وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة الشهيد حمه لخضر
كلية العلوم الاجتماعية و الانسانية
قسم التاريخ

مطبوعة بيداغوجية في مقياس :

علاقات الغرب الاسلامي مع السودان الغربي

لفائدة طلبة السنة الأولى ماستر تاريخ الغرب الاسلامي في العصر الوسيط

إعداد الدكتور : بن خيرة أحمد

الموسم الجامعي 1444-1445هـ/2023-2024 م

مقدمة

تعرض هذه المطبوعة العلاقات المبكرة التي ربطت بين بلاد المغرب بأقسامه الثلاثة؛ الأدنى، والأوسط، والأقصى مع السودان الغربي، ذلك المصطلح الذي أطلقه الجغرافيون العرب علي المنطقة التي تقع جنوب الصحراء الكبرى والممتدة بين المحيط الأطلسي غربا وبحيرة تشاد شرقا والتي ضمت عددا من الوحدات السياسية؛ مثل جاو، وتكرور، وغانة، ومالي. وقد ارتبطت هذه المنطقة بعلاقات تاريخية وصلات تجارية وثقافية مع بلاد المغرب منذ أمد بعيد بفضل تيسر الاتصال بين المنطقتين، بالرغم من بعد الشقة وأخطار الرحلة، فالصحراء وما يرتبط بها من أهوال ومخاوف كانت عاملا من عوامل الاتصال.

ويعترف الباحث باتساع مساحة المطبوعة مكانيا وزمانيا، كما نشير الى ان أغلب مصادر تدخل في نطاق كتب الجغرافيا والرحلات، أما المصادر التاريخية فهي نادرة، كما أن المؤلفات التي ألفها سودانيون من أهالي تلك البلاد يرجع أقدمها إلي القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ومع تأخرها الزمني، فقد جاءت المعلومات فيها شحيحة جدا فلم نستفد في هذه الدراسة الا ما كتبه أحمد بابا التنبكتي المتوفى في سنة 1036هـ/1627م ولا بكتاب ''تاريخ الفتاش'' لمحمود كعت المتوفي سنة **1002**هـ/1593م، أما السعدي المتوفى بعد سنة 1065هـ/1655م وصاحب ''تاريخ السودان'' فلم يقدم لنا إلا معلومة واحدة تخص التاريخ الذي أسلم فيه ملك جاو **Gao**.ومما لا شك فيه أن قلة المصادر المتاحة من الممكن أن تعيق مهمة الباحث لكن القراءة الجيدة للنصوص الموجودة وتوظيف المناهج التي تعتمد عليها الدراسات التاريخية بالإضافة إلي استخدام نتائج الاكتشافات الأركيولوجية من الممكن أن تأتي بثمار جيدة. .

ومن خلال عنوان هذه المطبوعة فإن الإشكاليات الأساسية التي يطرحها هذا العنوان هيتدور حول تحديد بداية الاتصالات بين المنطقتين، ثم طبيعة تلك الاتصالات، وأخيرا النتائج التى ترتبت عليها. الصلات التي ربطت بين بلاد المغرب والسودان الغربي قديمة ومتنوعة، وقد أعان علي هذه الصلات المسالك الصحراوية التي يسرت الاتصال بين المنطقتين. وقد مهدت تلك المسالك السبل أمام التجار، والفقهاء، والدعاة، لارتياد المدن والمناطق السودانية لنشر الإسلام وثقافته، وسوف تمكن معرفة تلك الصلات المتنوعة من رصد المرحلة المبكرة من مسيرة الإسلام في السودان الغربي**؛** ومن خلال المطبوعة حاولنا التعريج على عدة نقاط اساسية و هي كالتالي:

- جذور العلاقات بين الشمال الإفريقي وإفريقيا جنوب الصحراء في الفترة القديمة.
- المسالك التجارية بين الغرب الاسلامي و السودان الغربي.
- الحواضر والقبائل الصحراوية الفاعلة في العلاقات بين الغرب الاسلامي و السودان الغربي .
- دولة المرابطين وامتداداتها في بلاد السودان.
- العلاقات السياسية.
- العلاقات الاقتصادية.
- العلاقات الثقافية.
- الأثر المغربي في بلاد السودان: (انتشار الإسلام، المذهب المالكي، العقيدة الأشعرية، الطرق الصوفية، العمران المغربي...
- الأثر السوداني في بلاد المغرب: (الفن الغنائي، أدوار العبيد السود، الأعلام السودانيون ببلاد المغرب....

1- مصطلح السودان الغربي

راج استعمال مصطلح «السودان» أو «بلاد السودان» في الأدبيات التاريخية والجغرافية الإسلامية- بعد احتكاك المسلمين بالشعوب الإفريقية القاطنة في جنوب الصحراء الكبرى-، تمييزاً لهم عن الشعوب البيضاء القاطنة في الصحراء الكبرى أو «بلاد البيضان».

إن الحديث عن مصطلح السودان الغربي يفرض على الباحث الرجوع إلى المصادر العربية القديمة التي توضح بجلاء مدى التطور الدلالي التاريخي لهذا المصطلح تبعا للتطور المعرفي للقارة الإفريقية أولا، وثانيا وفق المتغيرات التاريخية للعصور الإسلامية الأولى[1]

وما يمكن تأكيده هو أن مصطلح السودان الغربي لم يظهر إلا في مراحل متأخرة من التاريخ، أي خلال ق19م عندما تم اكتشاف منابع نهر النيل والنيجر وعرف حينئذ أنهما نهران منفصلان عن بعضهما كل الانفصال وليس نهرا واحدا كما كان يعتقد من قبل، وقد أطلق اسم السودان الغربي على منطقتي نهر السنغال والنيجر، بينما أطلق اسم سودان وادي النيل على المنطقة الواقعة جنوب مصر[2]

أما بالنسبة للجغرافيين والمؤرخين والرحالة المسلمين، فقد كانت بلاد السودان تعني لهم منطقة أوسع بكثير من المنطقة المسماة حاليا بالسودان الغربي، فهي المنطقة التي يسكنها السود وتمتد جنوب الصحراء الكبرى من المحيط الأطلسي إلى بلاد النوبى على نهر النيل[3]

يرد في بعض المصادر العربية الاولى أكثر المصادر أهمية عن هجرة السودان إلى الغرب الإفريقي ، وتحديد بلادهم ومستقرهم ، وعن ممالكهم المشهورة ، كاليعقوبي وغيره، يقول الإصطخري (توفي 346هـ / 957م) عن بلدان السودان إنها : (عريضة إلا أنها قفرة قشفة جدا .. ويقال إنه ليس في أقاليم السودان من الحبشة ، والنوبة ، والبجة ، وغيرهم ، إقليم هو أوسع منه ، ويمتدون إلى قرب المحيط مما يلي الجنوب ، ومما يلي الشمال على مفازة ينتهي إلى مفاوز مصر من وراء الواحات ، ثم على مفاوز بينها وبين أرض النوبة ، ثم على مفاوز بينها أرض الزنج)[4](32) ويقول المسعودي (ت 446 هـ) : (إن أرض الحبشة وسائر السودان مسيرة سبع سنين ، وأن أرض مصر كلها جزء واحد من ستين جزءا من أرض السودان ، وتتصل أقاصي السودان بآخر بلاد ولد إدريس بن إدريس بن عبدالله بن الحسن من أرض المغرب، وهي بلاد تلمسان وتاهرت ، وبلاد فاس)[5] (33) ، وبمثل هذا قال أبوعبيد عبدالله البكري (ت 487 هـ) [6](34).

ويقول زكريا القزويني (682هـ 1283م)عن بلاد السودان : (هي بلاد كثيرة ، وأرض واسعة ينتهي شمالها إلى أرض البربر ، وجنوبها إلى البراري ، وشرقها إلى الحبشة ، وغربها إلى البحر المحيط)[7] (35).

---

[1] هاشم العلوي القاسمي، أصول الروابط التاريخية بين المغرب وغرب إفريقيا في العصور الوسطى، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، العلاقات المغربية الإفريقية، عدد خاص، السنة 1989، ص: 131.

[2] عثمان بناني، رد الاعتبار لتحفة النظار في العلاقات بين المغرب وإفريقيا الغربية، منشورات عكاظ 1987، ص: 41؛ M. Delafosse, Soudan, – Encyclopédie de l'islam, T4, paris 1934, p : 518-521.

[3] – J .Cuoq, Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'ouest, op, cit, p : 9.

–عثمان بناني، ن.م.س. ص: 42.

[4] المسالك والممالك لأبي إسحاق الإصطخري تحقيق د. محمد جابر الحين / 34 – 35، من مطبوعات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، الإدارة العامة للثقافة ، الجمهورية العربية المتحدة ، القاهرة عام 1381 هـ 1961م

[5] مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي ، اعتنى به وراجعه كمال حسن مرعي 127/1 ، المكتبة العصرية ، بيروت عام 1425 هـ – 2005م

[6] انظر ، المسالك والممالك للبكري ، تحقيق د. جمال طلبة 242/1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1 1 ، عام 1424 هـ – 2003 م

[7] آثار البلاد للقزويني / 24 ، طبعة صادر ، بدون .

وقد ورد ما يدل على ذلك النزوح والاستقرار ويؤكده عند اليعقوبي (ت 282 هـ – 895م)[1] (36) قوله وهو يتحدث عن أولاد كوش بن حام بن نوح ، وإن منهم الحبشة والسودان : إنهم لما عبروا النيل افترقوا فرقتين ، (فقصدت فرقة منهم التيمن بين المشرق والمغرب ، وهم النوبة ، والبجة ، والحبشة ، والزنج ، وقصدت فرقة المغرب (اي غرب إفريقيا) وهم : زغاوة ، والحس ، والقاقو ، والمرويون ، ومرنده ، والكوكو (سنغاي) ، وغانه)[2] (37) ، وورد مثل ذلك عند أبي عبيد البكري[3] (38).

والسؤال المهم فيما يتعلق بهذا الشعب وغيره ممن عبروا النيل متجهين نحو الغرب الإفريقي هو : اين استقروا ؟ استقروا في البداية في كل شمال إفريقيا حتى المحيط ، ثم نزحوا نحو الجنوب ، وقد تقدم البيان ، ومع ذلك لاتكاد تجد دولة قامت أو مملكة تأسست في جنوب الصحراء – إسلامية أو غير إسلامية – إلا ويتناقل معظم الباحثين المحدثين والمعاصرين أن من أقامها وافدون من غير السودان جاؤوا من الشمال أو الشمال الشرقي ، اعتمادا في أحيان كثيرة على أساطير ، فيقعون تارة في تناقض ، ويضربون تارة بعرض الحائط ما في هذه المصادر العربية الأولى ، وتاريخ المنطقة قبل الإسلام ، والإجماع قائم على حاجة بعض المصادر القديمة إلى تدقيق علمي وتحقيق بسبب مايشوب النسخ المعروفة من تناقض لايخلو من تحريف تعرضت له بعد مؤلفيها [4](39) ، لكنها قبل الإسلام (حضارات إفريقية الأصل والجذور ، ويمكن دراستها دراسة تحليلية لمقارنتها بالحضارات الأخرى القديمة التي كانت تزامنها ، وإن اختلفت معها في المكان ، اي مقارنة هذه الحضارات الإفريقية القديمة بغيرها من الحضارات الأخرى التي ظهرت في زمانها في مختلف قارات العالم الأخرى[5] وتمثل الإسلامية منها الحضارة الإسلامية التي يشاركها فيها – حيث وجدت – كل مسلم ايا كان جنسه أو موطنه .

ومهما يكن، لا يمكن إغفال الدور العربي في التعريف بممالك السودان الغربي، يقول بوفيل: « وقبل قدوم العرب لم يكن يعلم شيئا عن إفريقيا جنوب الصحراء ونحن (الأوروبيون) ندين بكل معلوماتنا عن التاريخ المبكر لداخل القارة إلى فئة قليلة من المؤلفين ...ودِيننا لهؤلاء العلماء كبير إلى حد أن عبارة يسيرة من كل لا يمكن إغفالها»[6]

جغرافية السودان الغربي في الدراسات الحديثة

أما جغرافية بلاد السودان الغربي اعتماداً على الدراسات الجغرافية الحديثة، فإنها تتسم بالتشابه تقريباً؛ حيث لا يوجد مناطق متباينة كثيرة وهو بشكل عام مستو مع وجود بعض الهضاب البسيطة، لذلك لا تظهر فوارق تضاريسية ضخمة، ولم تكن المرتفعات البسيطة بالضخامة أو الامتداد بحيث يصعب اجتيازها،وتقع هذه المرتفعات في غربي السودان الغربي في موريتانيا[(7)]، وفي الجنوب توجد هضبة فوتا جالون التي يصل ارتفاعها إلى حوالي 5000 قدم، وهذه الهضبة هي الحد الفاصل لتقسيم المياه في السودان الغربي، حيث تنحدر منها أنهار شمالية غربية تصب في المحيط الأطلسي، وأنهار شرقية، وتُعد هذه الأنهار المنحدرة من هذه

---

[1] انظر : تاريخ اليعقوبي أبي أحمد بن ابي يعقوب 191/1 طبعة دار صادر ، بيروت ، عام 1421 هـ – 1992م

[2] المصدر السابق 193/1 – 194

[3] انظر : المسالك والممالك 242/1

[4] انظر على سبيل المثال : الجزء السادس من موسوعة التاريخ الإسلامي ومراجعة عن سوننكي ص 103 ، وعن سنغاي ص 122- 123 ، وعن حكام إمارات الهوسا ص 128 – 129 ، وعن اليوربا ص 133 ، وعن برنو وكانم ص 136 ، 139 ، وانظر تاريخ إفريقيا السوداء 11/1 – 15

[5] الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء / 15 ، وانظر : تاريخ إفريقيا السوداء 1/ 116 – 130

[6] إدوارد بوفيل، الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى، ترجمة رياض زاهر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1968، ص: 10-71.

([7]) مُحَمَّد جمال الدين سيد: انتشار الإسلام في غرب إفريقيا، ص2-3.

الهضبة من أهم أنهار إفريقيا[1]، وتوجد غير هذه الهضاب مناطق مستوية معظمها كثبان رملية ثابتة في جنوب الصحراء الكبرى، وتمتد هذه الرمال جنوبا حتى منتصف نهر النيجر، وفي المناطق التي يجرى فيها نهر السنغال [2].

وأهم ظاهرة طبيعية في السودان الغربي هي نهر النيجر الذي يبدأ من السفوح الشمالية لهضبة فوتا جالون، ويبلغ طوله حوالي 4200كم وهو ثالث أنهار إفريقيا من حيث الطول ومساحة الحوض، ويرفده عدد من الأنهر الصغيرة، ويخترق هذا النهر عدداً من الأقاليم الطبيعية تبدأ من الاستوائي وما دون الاستوائي إلى منطقة شبه صحراوية في الشمال، ثم يتجه إلى الشمال الشرقي، ثم ينحرف إلى الشرق، وأخيراً إلى الجنوب حيث يصب في المحيط الأطلسي، كما يجري في السودان الغربي نهر السنغال الذي يبلغ طوله حوالي 700كم^2 ويتألف من رافدين كبيرين،وينحدر من الشرق إلى الغرب فيصب في المحيط الأطلسي[3]، وآخر الأنهار في السودان الغربي هو نهر غامبيا الذي يصب في المحيط الأطلسي أيضاً، ويبلغ طول حركة الملاحة فيه 350 ميلاً، وقد ساهمت هذه الأنهار في تنشيط حركة المواصلات داخل السودان الغربي؛ فنهر النيجر تستطيع القوارب أن تسير فيه على طول امتداده العظيم إذ أنّه صالح للملاحة[4]، أما نهر السنغال فهو صالح للملاحة فقط في فصل الأمطار من البحر وإلى مسافة بعيدة[5].

2- مملكة غانا: أكبر الممالك السودانية خلال العصر الوسيط.

تعتبر مملكة غانا أول تنظيم سياسي متطور عرفته بلاد السودان خلال العصر الوسيط والتي يكتنفها الكثير من الغموض والشك، وتبعا للمعطيات التي توردها المصادر العربية والرواية الشفوية ومقارنتها، خلصت الكتابات إلى تحديد موقعها فيما بين نهري السنغال غربا والنيجر شرقا، وعلى حدودها الشمالية كانت تتحرك القبائل البربرية الصحراوية[6]، وقد مكنها موقعها الجغرافي هذا القريب من مضارب القبائل الصحراوية في الشمال في انتقال العديد من المقومات الحضارية السياسية والاقتصادية والثقافية.

إنه لا يعرف على وجه الدقة تاريخ نشأة مملكة غانا ولا مؤسسوها الأوائل[7]، ولكن بالاعتماد على ما أوردته بعض المصادر الأساسية في كتابة تاريخ السودان، تمكن الباحثون والمهتمون من تكوين العديد من التأويلات والتصورات حول هذه المملكة. فمتى ظهرت غانا ؟

تشير بعض الدراسات الحديثة إلى أن غانا ظهرت لأول مرة في التاريخ كبلاد للذهب في أواخر القرن 2هـ/8م، فشهرة غانا وموقعها في التاريخ لم يتأت إلا مع الكتاب العرب اعتمادا على ما أوردته بعض المصادر الجغرافية[8]. فإذا كان ابن حوقل أول من حدثنا عنها قائلا: « سيطرت على مناجم الملح في الشمال ومناجم الذهب في الجنوب ولذا سمي ملوكها بملوك الذهب»[9] فإن أهم

([1]) يسري الجوهري، محمد خميس الزوكة: دراسات في جغرافية العالم الإسلامي، ص505.

([2]) نعيم قداح: إفريقيا الغربية في ظل الإسلام، ص2، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1960م.

([3]) دريد عبدالقادر نوري: تاريخ الإسلام في إفريقيا، ص28 – يسري الجوهري، محمد خميس الزوكة: دراسات في جغرافية العالم الإسلامي، ص469.

([4]) Rodeickj Mcintosh and Susan Mcintosh: the Inland Niger Delta Befor the Empirc of Mali, Vol 22, p20, Journal of African History.

([5]) نعيم قداح: إفريقيا الغربية في ظل الإسلام، ص2.

[6] الهادي الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء، من نهاية ق15م/18م، الدار المصرية اللبنانية 1999، ص: 21.

[7] أحمد الشكري، . ص: 110.

[8] Vincent Monteil, L'islam noir une religion à la conquête de l'Afrique, collection Esprit/Seuil. p : 81.

[9] ابن حوقل، صورة الأرض، . ص: 98.

مادة وصلتنا عن بلاد السودان الغربي كانت ابتداء من القرن 5هـ/11م وخاصة مع البكري « فقد تعني غانا البلد، كما تعني أيضا العاصمة وقد تعني اسم الملك»[1]

أما الإدريسي فقد حدد المجال الجغرافي لغانا بأنه يمتد من: « جهة الغرب ببلاد مفزارة ومن الشرق ببلاد ونقارة، ومن الشمال بالصحراء المتصلة التي بين أرض السودان العرب المغاربة ومن الجنوب بأرض الكفر من اليميم»[2].

وعنها يقول ياقوت الحموي » :وغانا كلمة أعجمية لا أعرف لها مشاركا من العربية وهي مدينة كبيرة في جنوب بلاد المغرب متصلة ببلاد السودان»[3]، وكذا القلقشندي الذي عاش خلال 7هـ /ق15م أن: « بلاد غانا تقع غرب بلاد صوصو وتجاور البحر المحيط الغربي وقاعدته مدينة غانا »[4]

أما خلال ق17م، واعتمادا على ما كتبه مؤرخو بلاد السودان وفي مقدمتهم صاحب ''تاريخ السودان'' فوصف غانا جاء على الشكل التالي: « كإمارة عظيمة على أرض باغن، قيل أن سلطتهم كانت قبل البعثة فتملك حينئذ إثنان وعشرون ملكا وبعد البعثة إثنان وعشرون ملكا وعدد ملوكهم أربعة وأربعون ملكا وهم بيض في الأصل ولكن ما نعلم من ينتمي إليهم في الأصل»[5]، وعلى هذا الأساس فإن ''غانا'' تطلق على الإمبراطورية السوننكية لوكادو. هذه الأطروحة أخذ بها ''دي لافوس'' والذي حدد غانا كعاصمة قديمة لملوك السودان عرفت تحت اسم ''كياماكا'' حيث تتموقع غانا في ''باغينا''[6]، أما صاحب تاريخ الفتاش فقد حدد كومبي صالح كعاصمة في وكادو.

كل هذه المعطيات التاريخية المتضاربة حول ''غانا المدينة'' و ''غانا الدولة''، جعلت إمكانية إعطاء تعريف محدد من وجهة نظر تعتمد على الحدود الترابية أو السياسية أو الإثنية غير ممكنة على اعتبار أن تاريخ السودان شمل مجموعات بشرية تعني من خلال أسماءها مناطق محددة[7].

وبالنسبة للعاصمة، هناك تضارب كبير حول تحديد الإطار المكاني، فمن خلال الأبحاث[8] التي أجريت في المنطقة تبين أن المدينة التي تحدث عنها البكري[9] لم توجد بعد، وحتى بالنسبة لكمبي صالح المدينة التي اعتبرت العاصمة الغانية يجب تحديد موقعها بالضبط، في الوقت الذي نجد المدينة التي تحدث عنها الإدريسي خلال ق6هـ/12م تم البحث عنها في منحنى نهر السنغال[10] كل هذه المعلومات التي توفرت حول'' غانا الدولة'' تبدو مستقاة من مرجع واحد هو البكري، وهي فكرة ترجع ل''دي لافوس''، إلا أنها حسب ''فانسون'' تبدو غير منطقية وغير مبررة، سبب ذلك هو أن البكري لم يكن معاصرا بل اعتمد في كتاباته عن غانا إما عن وثائق أو رحالة[11]

---

[1] البكري، . ص: 37.

[2] الإدريسي، النزهة،. ص: 14.

[3] ياقوت الحموي، معجم البلدان،.ج3، ص: 770 .

[4] أبو عبد الله أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج5، القاهرة 1963، ص: 284.

[5] عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، باريس نشر هوداس 1964، ص: 9.

[6] Vincent Monteil, op, cit, p : 82

[7] Ibid., p : 83.

[8] ويقصد بها الأبحاث التي أجريت في المنطقة من طرف بوفيل وتوماساي لتحديد الإطار المكاني للعاصمة الغانية كومبي صالح.

[9] البكري، المصدر السابق. ص: 37 .

[10] الإدريسي، النزهة، المصدر السابق ،ص: 14.

[11] Vincent Monteil, op, cit, p : 84.

أكثر من هذا وذاك نجد الإدريسي بعد قرن من الزمن لا يذكر أي شيء عن غانا، إلا أنه في سنة 1154م نجده يتحدث عن قصر بغانا بني حوالي 1116م، في الوقت الذي نجد فيه ابن خلدون متذبذبا في معلوماته عن غانا، فمرة يتحدث عن غانا البكري، وأخرى عن غانا الإدريسي[1].

من القضايا الأساسية أيضا التي أثارت إشكالا كبيرا بين الباحثين هي قضية إسلام غانا، متى دخلها الإسلام؟ هل قبل أم بعد الحركة المرابطية؟

فبالرجوع إلى المصادر العربية يتضح – من خلال بعضها- أن الإسلام قد دخل غانا منذ وصول الفاتحين العرب إلى الصحراء الكبرى حيث يذكر القلقشندي: « أن أهل غانا قد أسلموا أول الفتح »[2]، وإذا كان الأمر عكس ما ذكره هذا المصدر فلا يجب أن ننكر أو نتناسى الدور الكبير الذي لعبته الإمارات الخارجية التي ظهرت بكل من سجلماسة وتاهرت ودولة الأدارسة في نشر الإسلام في هذه المناطق خاصة القريبة من مجال نفوذهم في الصحراء، ويبقى دور المرابطين كبيرا في ترسيخ مبادئ الدين الإسلامي بهذه البلاد.

ويبدو أن القرب الجغرافي لعب دورا كبيرا في انتشار الإسلام بالسودان الغربي، فتواجد مراكز تجارية رابطة بينه وبين دول الشمال الإفريقي سمح بتلاقح حضاري كبير لاسيما انتشار الإسلام في صفوف من تعامل مع التجار المسلمين أو عاشرهم وهذا عين ما أشار إليه البكري خلال ق5هـ/11م بقوله: « ومدينة غانا مدينتان إحداهما يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة فيها إثنا عشر مسجدا أحدها مسجد جامع ولها أئمة ومؤذنون والراتبون...»[3]، ومن هنا نستنتج أن الإسلام انتشر بالحواضر الكبرى ثم انتقل تدريجيا حتى عم جل أوساط السودان الغربي، مما يدفعنا إلى القول أنه انتشر بشكل سلمي عكس ما تروجه بعض الدراسات حول انتشاره بهذه البقاع بحد السيف، وهو سر نجاح انتشار المؤثرات العربية الإسلامية، إذ نجد بعد قرن من الزمن أي خلال ق6هـ/12م أن مملكة غانا أصبحت دولة مسلمة ملكا وشعبا » وغانا مدينتان على ضفتي البحر الحلو، أكبر بلاد السودان قطرا وأكثرها خلقا وأوسعها متجرا... وأهلها مسلمون»[4]، وهو نفس ما يشير إليه الزهري ويدعمه بقوله: « وهم اليوم مسلمون وعندهم العلماء والفقهاء والقراء وسادوا في ذلك وأتى منهم إلى بلاد الأندلس رؤساء من أكابرهم وساروا إلى مكة وحجوا وزاروا وانصرفوا إلى بلادهم وأنفقوا أموالا كثيرة في الجهاد»[5]، بل أكثر من ذلك، احتل المسلمون مكانة بارزة في البلاط الغاني حيث كان يتكون أغلب وزرائه وكتابه وتراجمته وأصحاب بيت ماله.

من القضايا الأساسية التي أثارت أيضا العديد من التساؤلات هي قضية القضاء على إمبراطورية غانا من طرف الدولة المرابطية، وهذه الإشكالية ترجع إلى كثرة الروايات التي تداولت هذا الموضوع، لكن بالتدقيق فيها يتضح أن الأمر (نهاية غانا) جاء نتيجة ظروف داخلية عجلت بانهيارها ونهايتها.

---

[1] Ibidem.

[2] القلقشندي، صبح الأعشى، ن.م .س، ج5 ، ص: 284.

[3] البكري، ن.م.س. ص: 171.

[4] الإدريسي، ن.م.س. ص: 23.

[5] أبو عبد الله محمد الزهري، كتاب الجغرافيا، تحقيق محمد حاج صادق، دمشق 1958، القسم 336 و338./ مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، البيضاء، دار الرشاد الحديثة 1979، ص:7.

فإذا رجعنا إلى تاريخ سقوط غانا والذي حددته بعض المصادر خلال ق5هـ/11م[1] نجده لا يتماشى والمعلومات التاريخية التي جاءت بها المصادر المعاصرة أو المتأخرة، ذلك أن هذه المصادر لا تتحدث عن سقوط غانا خلال هاته الفترة، بل ظل اسمها مرسوما في المصادر العربية الإسلامية بعد التاريخ المذكور إلى حدود ق7هـ/13م.

أما المصادر المحلية والرواية الشفوية فكانت بمثابة الحكم الفاصل في هذه الإشكالية، حيث أرجعت أسباب الانهيار إلى عوامل داخلية تمثلت أساسا في نضوب مادة الذهب من أماكن الاستخراج الخاضعة لغانا، صاحبه تحول في المراكز التجارية حيث حلت ''ولاتا'' محل ''غانا المدينة'' ثم انتقلت تدريجيا نحو مدينة ''تمبكت'' في الشرق حيث أصبحت أهم مركز تجاري مع حلول ق7هـ/13م[2]

إضافة إلى العامل الاقتصادي، لعبت العوامل الطبيعية دورا كبيرا في عملية الانهيار الغاني، فمع منتصف ق5هـ/11م عرفت المنطقة جفافا ساهم في انتشار وتفرق القبائل الصحراوية في اتجاه الشمال وقبائل الساحل نحو الجنوب. هذه العوامل الاقتصادية والطبيعية مجتمعة أثرت بشكل كبير على الوضعية الداخلية لغانا الدولة، فانتهزت القبائل الخاضعة هذه الوضعية وجنحت نحو الاستقلال وكثرت الفتن والإضرابات مما هيأ الفرصة لقبائل الصوصو حيث وجهت ضربة قاضية لهذه الإمبراطورية بزعامة سومنجورو إلى أن تمكن زعيم القبائل المالينكية ساندياطا بفضل عبقريته العسكرية من القضاء على المجموعتين معا والحصول على طاعة العشائر المالينكية التي اعترفت به إمبراطورا، كما تابع فتوحاته في الجنوب إذ أصبحت إمبراطورتيه عند وفاته تمتد على مساحة تفوق مملكة غانا بين الصحراء والمنطقة الغابوية وبين أعالي النيجر والسنغال مع مدينة نياني كعاصمة وتأسيس دولة إسلامية جديدة هي **3-3- إمبراطورية مالي.**

قامت مملكة مالي الإسلامية على أنقاض إمبراطورية غانا، وعرفت أوج عظمتها خلال ق14م حيث امتدت من جنوب المغرب متصلة بالبحر المحيط الذي يحدها من الغرب، كما يحدها من الشرق بلاد بورنو، ومن الشمال بلاد البربر ومن الجنوب الهمج حسب القلقشندي[3]، إلا أن حسن الوزان حدد موقعها على طول أحد فروع النيجر مسافة ثلاثمائة ميل، يحدها جنوبا جبال وعرة وغربا غابات مسحورة تمتد إلى المحيط وتمتد شرقا إلى إقليم كانوا[4].

شكلت مالي إلى جانب الممالك الأخرى التي عرفتها بلاد السودان الغربي، السمات والخصائص المحددة والواضحة لهذه المنطقة لفترة طويلة من الزمن، ويبدو أنها – مقارنة مع غانا – قد حظيت باهتمام الكثير من المؤرخين والجغرافيين العرب. فالمصادر التي تتحدث عنها كثيرة ومتنوعة على الأقل خلال مرحلة الامتداد أي ق14م، ومن خلال الاطلاع عليها يستطيع الباحث رسم صورة واضحة المعالم للمجتمع الإسلامي داخل مملكة مالي.

وبخصوص أمر تأسيس دولة مالي يبدو أنه يكتنفه الكثير من الغموض والشك، فاعتمادا على بعض المصادر[5]، يعتقد أن مؤسسيها الأوائل هم قبائل الماندينج الذين استغلوا الفراغ السياسي الذي عرفته المنطقة بفعل الضغط المرابطي والذي ساهم بشكل

---

[1] الزهري، المصدر السابق ،ص 143.

[2]– عن نشأة مدينة تنبكت وأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية في ظل امبراطوريتي مالي وسنغي والحكم المغربي انظر: شوقي عطا الله الجمل، تنبكت وعلاقتها بالمغرب قبل حملة المنصور السعدي وتحت الحكم المغربي، المغرب وإفريقيا جنوبي الصحراء في بدايات العصر الحديث، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، سلسلة: ندوات ومناظرات (2(، الرباط 1992، ص: 41-57..

[3] القلقشندي، صبح الأعشى ، ج5، ص: 288.

[4] الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص: 164.

[5]عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، ج6، ص: 200./ القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، م.س. ص: 293.

كبير في استقلال العديد من الأقاليم التي كانت تحت سيادة إمبراطورية غانا. كما أن الدخول في صراعات سياسية على السلطة انتهى بسيطرة قبائل الماندينج التي يرجع إليها الفضل في قيام مملكة مالي بقيادة " سندياتا كيتا "[1] حيث تمكن من السيطرة على العاصمة كومبي صالح سنة 1240م وتوسيع رقعة المملكة، التي أصبحت تمثل أكبر قوة حربية واقتصادية تتحكم في تجارة المنطقة[2].

أما من حيث الاسم فيبدو الاختلاف واضحا بين المؤرخين والجغرافين العرب في ضبط اسم مالي، فالبكري وهو أول مؤرخ عربي ذكر اسم مالي خلال ق11م، أشار إلى أنها بلد اسمه "ملل "ويطلق على ملكها اسم المسلماني[3]، أما الجغرافي ابن بطوطة المعاصر لها والذي استقر بها لمدة سنة تقريبا (1352/1353م)، والذي ترك منجما من المعلومات القيمة التي استغلت وتستغل حاليا لتوضيح بعض جوانب التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي والفني لمملكة مالي، فيسميها مالي[4].

وخلال ق15م نجد الحسن الوزان في وصفه لإفريقيا يطلق عليها اسم ملي[5]، أما خلال ق17م فنعثر على اسم (مل) عند محمود كعت[6] في حين يطلق عليها عبد الرحمن السعدي اسم ملي[7].

ما يستفاد من كل هذه المصادر ومقارنتها أن الاسم الغالب هو مالي لا سيما وأنها وردت بهذا الاسم لدى جغرافي معاصر كابن بطوطة الذي زارها فترة ازدهارها ووصفها وصفا يدل على إلمامه واطلاعه الكبير على أحوالها المختلفة. وما يزكي هذا الاستنتاج هو أن العمري في " مسالكه " ميز بشكل دقيق بين التكرور ومالي، حيث يقول » :وصاحب هذه المملكة (مالي) هو المعروف عند أهل مصر بملك التكرور، ولو سمع هذا أنف منه، لأن التكرور إنما هو إقليم من أقاليم مملكته، والأحب إليه أن يقال صاحب مالي لأنه الإقليم الأكبر وهو به أشهر»[8].

4- جذور العلاقات بين الشمال الإفريقي وإفريقيا جنوب الصحراء في الفترة القديمة.:

والجدير بالذكر أن هذه الصلات تعود إلى مرحلة ما قبل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب؛ حيث تشير مجموعة النقوش الصخرية إلي تلك الاتصالات التجارية عبر الصحراء الكبرى والتي يظهر من خلالها عربات تجرها الخيول، كما يظهر طريق يبدأ من وادي درعة[9] مرورًا بإدرار لينتهي في الدلتا الداخلية لنهر النيجر[10]. وهناك طريق آخر أشارت إليه تلك النقوش الصخرية هذا الطريق يعبر الصحراء الكبرى من جنوب تونس وخليج سرت ويمر بجبال الأحجار في الجزائر الحالية ليصل إلى نهر النيجر نحو مدينة جاو التي تعد أقدم حواضر السودان الغربي[11].

---

[1] القلقشندي، صبح الأعشى، ص: 293 .

[2] القلقشندي، صبح الأعشى، ص: 293

[3] عثمان بناني، المصدر السابق. ص: 47.

[4] أنظر الرحلة لابن بطوطة، المصدر السلبق. ص: 682.

[5] الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص: 164.

[6] محمود كعت، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، نشره هوداس 1964، ص: 38.

[7] عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، المصدر السابق، ص: 9.

[8] العمري، المصدر السابق. ص: 34.

[9] درعة مدينة خصبة في جنوب المغرب الأقصى وراء جبال الأطلس، وتقع شرقي إقليم السوس، ويخترقها نهر يعرف بوادي درعة، ويوفر جبل درعة و جبل درن للمدينة الحصانة، والمدينة عامرة بها أسواق جامعة.انظر البكري: مصدر سابق، ص 350، 351؛ عصمت دندش: دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1988، ص 42.

[10] Norris, H. T: Ṣanhājah Scholars of Timbuctoo, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 30,No. 3, Fiftieth Anniversary Volume, (1967), p .634 .

[11] Hunwick, John: Les Rapports Intellectuels Entre Le Maroc Et L'Afrique Sub-Saharienne à Travers Les Ages , ,Chaire du Patrimoine Maroco-Africain, Université Mohammed V, Rabat, 1990, p.8 .

لقد شكلت المدن الواقعة على البحر الأبيض المتوسط منذ التاريخ القديم، أكبر المراكز التجارية، وكانت مستودعاتها، منذ العهد القرطاجي إلى البيزنطي، مرورا بالعهد الروماني، في طلب مستمر للمواد النفيسة، كالرقيق والعبيد... ولكننا لا ندري إذا كانت منذ تلك الفترة محاولات لربط علاقات ثقافية واقتصادية مع بلاد السودان.

إن الأبحاث التي تهتم بتاريخ العلاقات بين طرفي الصحراء، في التاريخ القديم، لم تقدم لحد الآن، أي دليل يشير إلى وجود مسالك صحراوية، في تلك الفترة[1].

ليس من المستحيل أن تكون التأثيرات المتوسطية قد استطاعت الوصول إلى منطقة النيجر، في الفترة القديمة، لكننا لا نملك أي دليل يسمح بتأكيد ذلك، فإذا كانت العلاقات بين شمال وقلب إفريقيا، في التاريخ القديم، قد برهنت عليها التحريات الأركيولوجية، بشكل نسبي فيما يخص الصحراء الشرقية، بين المنطقة الممتدة من الفزان إلى واحات زويلة وكوفرة Koufra ، فإنه على عكس ذلك في الوجهة الغربية، لا زالت تنقصنا الدلائل لإثبات أية علاقة، تربط بين الشمال والواجهة الغربية لإفريقيا، لهذا فإنه من الصعب التحدث عن تسرب التأثيرات المتوسطية، إلى قلب القارة الإفريقية، عبر الصحراء، في التاريخ القديم.

ومع ظهور الجمل، ستصبح العلاقات الثقافية والتجارية، ظاهرة واضحة، بحيث سمح هذا الحيوان للتجمعات الصحراوية البربرية، الصغيرة، من التحكم في مسالك التجارة الصحراوية. وبتنظيمهم لتجارة القوافل، ساهموا في تطوير العلاقات التجارية، ما بين شمال الصحراء، وجنوبها.

ويبدو ان الحضور المغربي في **السودان الغربي**[2] بدأ وفق تطور تاريخي، ذلك ان الروابط والصلات البشرية بين السودان الغربي وبلاد المغرب[3] تبرز من خلال المعاملات التجارية فضلا عن عامل الهجرة ،وما ترتب عليها امتزاج بشري امتد لعصور خلت تعكس عمق تلك العلاقات ، فتلك الروابط تعود إلى أزمنة تاريخية قديمة، فقد كانت قوافل **قرطاجة**[4] تقطع الصحراء لجلب الذهب والعبيد و العاج مقابل المنسوجات و الأدوات المصنعة، و كان هذا التبادل قائما منذ العهدين **اليوناني**[5] و **الروماني**[1]،ثم **البيزنطي**[2] إلى أن وصل الإسلام إليها[3].

---

[1]- P. Salama ; « Le Sahara pendant l'antiquité classique » ; in L'Histoire générale de l'Afrique ; vol ;2 ; 1980 ; p.p. 553-594. Voire aussi la carte fournie par l'auteur ;p. 556 ;J. Desanges ; « les protoberbères » ;in L'Histoire générale de l'Afrique ; vol ;2 ; 1980 ; p.p.453-499.

[2]. **السودان الغربي**:هي بلاد كبيرة و أرض واسعة ينتهي شمالها إلى أرض البربر وجنوبها إلى البراري وشرقها إلى الحبشة وغربها إلى بحر المحيط و هي أرض محترقة لشدة الحرارة وأرضه منبت الذهب(ينظر:القزويني"زكريا بن محمد بن محمود ت682هـ"،**أثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر،د.ط، بيروت، د.س.ن، ص24).

[3] **بلاد المغرب**: تمتدعلى بحر المغرب في غربيه، ولهذا البحر جانبان شرقي وغربي،أما الغربي فمن مصر وبرقة إلة افريقية وناحية تنس وسبة وطنجة، و أما الشرق فهو بلد الروم من حدود الثغور الشامية إلى القسطنطينية إلى نواحي رومية وقلورية،(ينظر: إبنحوقل"ابي القاسم ابن حوقل النصيبي ت380هـ"،**صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، د.ط، بيروت، 1996م،ص64).

[4]. **قرطاجة**:تأسست 814ق م من طرف الأميرة عليسة التي فرت من أخيها، خرجت من مدينة صور متوجة إلى افريقية، وتقع هذه المدينة في خليج تونس وهي في موقع إستراتيجي، مما سمح لها بالهيمنة على بحرالمتوسط،(ينظر: محمد هادي حارش، **التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري**،المؤسسة الجزائرية للطباعة، د.ط،الجزائر، 1992م، ص44).

[5] **اليونان**: تقع شرقي الخليج القسطنطيني وغربا البحر المحيط، وهم فرقتين فرقة يقال لها الإغريقيون وفرقة الأخرى يقال لها اللطنيون، وجميع العلوم العقلية مأخوذة منهم مثل علم المنطق وعلوم الطبيعية و الإلهية والرياضية،(ينظر: أبو الفداء"عماد الدين ابو الفداء ت732هـ"،**مختصر في أخبار البشر**،ج1، المطبعة الحسينية المصرية، ط1، مصر، د.س.ن،ص84).

5- الحياة الاقتصادية بالسودان الغربي قبل الاسلام

لقد شكلت المدن الواقعة على البحر الأبيض المتوسط منذ التاريخ القديم، أكبر المراكز التجارية، وكانت مستودعاتها، منذ العهد القرطاجي إلى البيزنطي، مرورا بالعهد الروماني، في طلب مستمر للمواد النفيسة، كالرقيق والعبيد... ولكننا لا ندري إذا كانت منذ تلك الفترة محاولات لربط علاقات ثقافية واقتصادية مع بلاد السودان.

إن الأبحاث التي تهتم بتاريخ العلاقات بين طرفي الصحراء، في التاريخ القديم، لم تقدم لحد الآن، أي دليل يشير إلى وجود مسالك صحراوية، في تلك الفترة[4].

ليس من المستحيل أن تكون التأثيرات المتوسطية قد استطاعت الوصول إلى منطقة النيجر، في الفترة القديمة، لكننا لا نملك أي دليل يسمح بتأكيد ذلك، فإذا كانت العلاقات بين شمال وقلب إفريقيا، في التاريخ القديم، قد برهنت عليها التحريات الأركيولوجية، بشكل نسبي فيما يخص الصحراء الشرقية، بين المنطقة الممتدة من الفزان إلى واحات زويلة وكوفرة Koufra ، فإنه على عكس ذلك في الوجهة الغربية، لا زالت تنقصنا الدلائل لإثبات أية علاقة، تربط بين الشمال والواجهة الغربية لإفريقيا، لهذا فإنه من الصعب التحدث عن تسرب التأثيرات المتوسطية، إلى قلب القارة الإفريقية، عبر الصحراء، في التاريخ القديم.

ومع ظهور الجمل، ستصبح العلاقات الثقافية والتجارية، ظاهرة واضحة، بحيث سمح هذا الحيوان للتجمعات الصحراوية البربرية، الصغيرة، من التحكم في مسالك التجارة الصحراوية. وبتنظيمهم لتجارة القوافل، ساهموا في تطوير العلاقات التجارية، ما بين شمال الصحراء، وجنوبها، ويعد حدث الدخول الإسلامي إلى إفريقيا، عاملا ساعد على تطوير وتنظيم التجارة الصحراوية، خاصة مع ما كان يعرفه الإسلام من تطور سياسي وثقافي وتقني، آنذاك، ومنذ هذا التاريخ سيصبح الجانب الديني، عنصرا مدعما للعلاقات الصحراوية، خاصة بعد تسرب الإسلام إلى بلاد السودان.

والسؤال الذي يطرح نفسه، عندما نكون بصدد دراسة العلاقات التجارية الصحراوية، هو هل هذه العلاقات التجارية كانت تنظم ،فقط من طرف الدول الحاكمة في شمال إفريقيا؟ أم يمكن أن ندخل في هذه الصيرورة، دور الممالك السودانية أيضا؟ هل من الضروري الاستمرار في الاعتقاد بأن الدول السودانية لم تكن متطورة بالشكل الكافي ، الذي يسمح لها بالاشتراك في تطوير التجارة الصحراوية؟ أم على العكس من ذلك، يجب الأخذ بالاعتبار ذلك التطور الثقافي والتقني، الذي عرفته نسبيا، منطقة عرب إفريقيا جنوب الصحراء، قبل احتكاكها بالتجار المسلمين؟ [هذا التطور هو الذي سمح لها، وبطريقة نسبية، بتوسيع النشاط المحلي خارج الحدود الإقليمية، وهيأها بالتدريج للاندماج في التجارة الصحراوية].

وأخيرا هل كان للتجارة الصحراوية دور في تقوية وتنشيط الممالك السودانية، في تلك الفترة؟

---

[1]. **الرومان**:وهم أمة ينسبون إلى عاصمة دولتهم روما، وهي مدينة مؤسسة وسط إيطاليا أسسها رومانوس سنة 753ق.م (ينظر: مبارك بن محمد الميلي، **تاريخ الجزائر القديم والحديث**، ج1، دار الغرب الإسلامي، د.ط، بيروت،د.س.ن، ص242).

[2]. **بزنطة**:قامت الإمبراطورية البيزنطية عام 330م محل الإمبراطورية الرومانية، واتخذت من القسطنطينية عاصمة للمسحية،وكان مؤسسها قسطنطينوس الذي نقل الحكم إلى القسطنطينية،(ينظر: عموره عمار، **موجز في تاريخ الجزائر**، دار ريحانة، ط1، الجزائر،2002م،ص35).

[3]. محمد الشريف، **الجالية المغاربية ببلاد السودان المغرب(ق8هـ/ 14م)**، كلية الأدب تطوان،د.ط، د.س.ن، ص1.

[4]- P. Salama ; « Le Sahara pendant l'antiquité classique » ; in L'Histoire générale de l'Afrique ; vol ;2 ; 1980 ; p.p. 553-594. Voire aussi la carte fournie par l'auteur ;p. 556 ;J. Desanges ; « les protoberbères » ;in L'Histoire générale de l'Afrique ; vol ;2 ; 1980 ; p.p.453-499.

إن الإجابة عن هذه الأسئلة ليست بالأمر الهين، ذلك أن جل الكتابات التي تتكلم عن التجارة الصحراوية، تقدمها كحركة أسسها وقواعدها منظمة، فقط من طرف تجار شمال إفريقيا. [ومن أجل تلبية طلب زبائن هذه المنطقة]. لهذا إذا أردنا أن نبحث عن الماضي الاقتصادي والتقني لمنطقة الساحل الإفريقي، قبل أي احتكاك مع المسلمين، حتى يتسنى لنا حصر دور السودانيين، وثقلهم التجاري، وربما سمح لنا هذا أيضا، بتجاوز الفكرة القائلة بأن كل تطور اقتصادي، في منطقة السودان الغربي، كان مرتبطا، حتما بالتجارة الصحراوية.

منذ بضعة سنوات سمحت نتائج التحريات الأركيولوجية، بكشف النقاب، نسبيا عن نشاط فلاحي قديم بمنطقة غرب إفريقيا. ويبدو أن السكان القدامى لوسط موريطانيا الحالية [المكونين من البافور والغانغارو Bafour et Gangaro]، كانوا يستعملون زراعة المصطبات، التي كانت تعتمد على مياه الأمطار، وهذا مؤشر على أن التربة، وقتها كانت خصبة، (تتلقى ما يقارب 400 ملم سنويا) ، على عكس تربة موريطانيا الحالية[1]. لكن الجفاف التدريجي لهذه المناطق كان، ربما، وراء هجرة الفلاحين السود (خاصة Gangaro)، في اتجاه الجنوب، للبحث عن محيط فلاحي أفضل، وعن مواطن تسمح بحياة مستقرة.

وقد زود نهري السينغال والنيجر، ومنذ وقت مبكر، سكان المنطقة بالمياه الكافية، مما سمح لهم بإيجاد حياة منظمة ومستقرة. فقد مكنت غزارة مياه النهرين السكان من إحداث تجمعات سكنية، على شكل قرى مكثفة، [وهذا ما أكدته الأبحاث الأركيولوجية، التي أجريت، خاصة بحوض السينغال، حيث تم حشر ما بين 400 و500 قرية متجمعة على ضفتي النهر وخلجانه].

"إن النمو الديمغرافي، الذي عرفته منطقتي السينغال والنيجر، ساهم، ربما، في عملية الاندثار التدريجي للمنطقة الغابوية، فالدلالات الموجودة في سيراليون وليبيريا، وكذلك بغابة البنين، تسمح بالاعتقاد أن أول سكان المنطقة كانوا يتعاطون الفلاحة "[2].

فغزارة مياه النهرين سمحت للسكان بتوفير مواد غذائية كثيرة ومتنوعة، بحيث تمكنوا، منذ القرن السابع، من إنتاج عدة منتوجات غذائية، كالحبوب، وأيضا، توفير منتوجات الصيد النهري. وهذا بالتالي، سمح بتنشيط حركة النمو السكاني بالمنطقة، ما سمح لبعض الباحثين بتقدير نسبة السكان بمملكة التكرور، مثلا، الواقعة على حوض السينغال، والتي وصلت فترة ازدهارها، إلى ما يقارب 500000 مسكن، في مساحة تقدر ب 40000 كلم^2.[3]

وقد سمح البحث الأثري بإبراز هذا الماضي الفلاحي، بالمنطقة، بحيث تم اكتشاف جرات خزفية، عليها نقوش تجسد مواد غذائية، وكذلك اكتشاف حبوب الذرة، بالهضبة الوسطى لمنطقة السينغال، وفي منطقة النيجر ، بضواحي مدينة جيني، في المحل الأثري (Jenae-Jenae)، تدل التحريات الأركيولوجية على وجود تمركز سكاني، منذ 250 قبل الميلاد، إلى 1400 ميلادية، وتدل كذلك على أن سكان المنطقة، كانوا يمارسون تربية البقر، زراعة الأرز[4].

---

[1] - Ch. Toupet ; « l'évolution du climat de la Mauritanie du moyen âge à nos jours, Plans de désertification au sud du Sahara » ; colloque du Nouakchott, Dakar, 1976.

J . Devisse ; L'apport de l'archéologie de l'Afrique occidentale entre le 5° et le 12° siècle ; C.R.A.I ; 1983.

[2]- Devisse ; Vansina ; « Africa from the seventh to the eleventh century… » in General History of Africa ; Unesco ; Vol. 3.

[3] - Chavane ; (B) ; Village da l'ancien Tekrour ; recherches archéologiques dans la vallée du Sénégal ; Paris 1985.

[4] - Mc Intoch ; R.I. and Mc Intoch .s.k; « The inland Niger Delta before the empire of Mali. » J.A.H ; 22 ; 1981 ; pp. 1- 22.

وكان هذا التطور الفلاحي المبكر، بجوار النهرين، سببا في دفع السكان إلى تبني، وبالتدريج، طريقة تقسيم العمل فيما بينهم(حرث- صيد نهري- قنص-...)، وهذا التقسيم سينعكس من خلال مجموعة من الأنشطة، يقوم بها السكان، حسب مؤهلاتهم.

وإلى جانب هذا التطور الفلاحي المبكر، الذي عرفته منطقة غرب إفريقيا، كان هناك تنظيما اقتصاديا، من نوع آخر، يتعلق بالتبادل المحلي، فقد كان هذا التبادل يتم في أسواق محلية صغيرة، لكن رغم صغرها، كانت تتم فيها أغلب المبادلات التجارية بالمنطقة. فالسوق المحلي شكل نقطة الانطلاق، والحلقة الأولى ضمن سلسلة من المبادلات، لأنه كان يمول أكبر الأسواق الإقليمية، التي كانت تتجمع فيها مجموعة مواد تأخذ بدورها المسالك الصحراوية، في اتجاه الشمال. (وقد حتمت المبادلات تنظيم وسائل النقل، خاصة النقل النهري). وكان لهذه الأسواق المحلية تأثير على البنية الاجتماعية الإفريقية، فإلى جانب أنها كانت مجالا لتبادل السلع والمنتوجات، كانت تمثل أيضا، نقطة التقاء بين الفلاحين، وتسمح بتبادل الأفكار والعادات فيما بينهم، فكان التبادل التجاري، وسيلة للتفاعل على المستوى الاجتماعي والثقافي.

وما يمكن استنتاجه هو أن هذا المزيج من التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية، كان من جهة، جد مخالف للتنظيمات، التي كانت موجودة في شمال الصحراء، ومن جهة ثانية، أنها كانت متواجدة ولمدة طويلة قبل تقوية تجارة العبور الصحراوية.

- **التعدين**

نتساءل عما إذا كان الغرب الإفريقي يتوفر على نشاط معدني محلي، قبل أي احتكاك بالعرب والبربر المسلمين؟ هل كانت لديه صناعة معدنية؟ وما الحيز الذي يأخذه هذا الجانب في الذاكرة الشعبية وفي الأسطورة الإفريقية؟ ثم ما هي دلائل البحث الأثري في هذا الجانب؟

لقد تركت لنا الروايات والأساطير الإفريقية، إشارات تتعلق بالتعدين، على ضفاف كل من نهري السينغال والنيجر. ونذكر في هذا السياق إشارة ورد ذكرها لدى محمود كعت، في كتابه، تاريخ الفتاش، مفادها أن عائلة تعرف ب "زا"، (حسب كعت ربما تكون قادمة من اليمن)، كانت تحترف مهنة الحدادة، وحسب نفس المصدر، من المرجح أن تكون هذه العائلة وراء تأسيس مملكة غاو، وهذا يعكس لنا الحظوة والمكانة الاجتماعية، التي احتلها أهل تلك الحرفة.

الرواية الشفوية بمنطقة الفوتا بالسينغال، تتحدث أيضا عن وجود التعدين بالمنطقة، وما أحدثه الحديد من دور بارز في قيام بعض الممالك الإفريقية [مملكة التكرور]، فنجدها تشير إلى الدور الذي لعبه معدن الحديد، في إبراز العائلة الفولانية القديمة Les Dya ogo، والتي حكمت مملكة التكرور ما بين 800 و1000 ميلادية ب[Chavane B.]، ذلك أن هذه العائلة كانت وراء ظهور صناعة التعدين الحديدية بالمنطقة.

وإلى جانب الروايات الشفوية، لدينا إشارة أخرى في مصادر مكتوبة، تعزز مدى أهمية معدن الحديد في تاريخ سكان منطقة إفريقيا الغربية. فالبكري في كتابه المسالك والممالك، يشير إلى استعمال الحديد في الحياة اليومية، لدى سكان حوض السينغال، فيشير هذا المؤلف إلى أسلحتهم، والمكونة من الرماح الحديدية، التي تستعمل للصيد والقنص، كما أن هذه الأسلحة الحديدية، كانت تستعمل إما للهجوم ، أو الدفاع، وهذا ما نلمسه عند الزهري، الذي يشير إلى الهجوم الذي شنه أهل غانة على بعض القبائل المجاورة. وكان امتلاك أسلحة من الحديد عاملا مكن أهل غانة من الانتصار، الشيء الذي يدفع للاعتقاد بأن امتلاك هذا المعدن سمح لحكام غانة ببناء إمبراطورية قوية.

[هكذا نلاحظ أنه بالرغم من وجود عدة شهادات مكتوبة وشفوية في هذا الشأن، فإن جل المهتمين بالتاريخ الإفريقي، حاولوا بطريقة غير مبررة ربط الحياة الحضرية، في جنوب الصحراء، بكل مجالاتها (الصناعية والفلاحية..)، ربطا مباشرا بالتجارة الصحراوية فقط.]

وتأتي التحريات الأركيولوجية لتعزز الروايات التي أوردناها سالفا، هذه التحريات همت مجموعة من المناطق في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، فالمواقع الأثرية في كل من منطقة السينغال ومنطقة النيجر، تؤكد وجود صناعات معدنية، وبشكل مكثف، قبل أي احتكاك بالمسلمين، وقبل ازدهار التجارة الصحراوية، فقد تم العثور بمنطقة الفوتا بالسينغال، على مجموعة من القرى القديمة يرجع تاريخها إلى 400 سنة قبل الميلاد[1]، وتدل آثار هذه القرى، على أن سكانها لم يكتفوا باستخراج معدن الحديد من المناجم فحسب، بل كانوا يقومون بصناعته في عين المكان، بحيث تم العثور على مجموعة من الأفران المخصصة لهذا الغرض[2]، والتي كانت تبنى بمحاذاة الأنهار، وهذا يعكس، مرة أخرى، دور الأنهار في التنظيمات الحضارية القديمة، بمنطقة إفريقيا الغربية.

فبالإضافة إلى تنظيم الفلاحة، فإن كلا من نهري السينغال والنيجر، لعبا دورا كبيرا في تكثيف صناعة التعدين بالمنطقة، لأنهما كانا يمدان الصناع بالمياه الكافية للقيام بتبريد المعادن، بعد تعرضها لعملية الانصهار.

ولم تكن صناعة التعدين، بالمنطقة مقتصرة فقط، على الحديد، فقد استطاعت الأبحاث الأركيولوجية، في كثير من المواقع الأثرية، من اكتشاف مجموعة من الأدوات النحاسية، المصنوعة في المكان[3].

وبالرغم من أن هذه الأبحاث ما تزال غير مترابطة، فإنها مع ذلك، تؤكد على أن تصنيع معدن النحاس، كان يقوم به السكان المحليون، وهذا يفند الكتابات التي كانت، دائما، تتبنى الفكرة القائلة بأن كل الأدوات النحاسية المستعملة، في غرب إفريقيا، كان لها أصل مغربي.

فإذا أخذنا مدينة أوداغشت مثلا، نجد أنه بالرغم من أن التجارة الصحراوية ساهمت، وبشكل مؤكد في تطوير إنتاج مادة النحاس، لكنها لم تكن السبب في ظهور هذا المعدن ولأول مرة في المدينة. فالأبحاث الأركيولوجية، التي أقيمت في الموقع الأثري Tegdaoust، تدل على أن عملية تصنيع مادة النحاس، كانت تقام محليا، على الأقل ابتداء من القرن السابع الميلادي. [هذا بالرغم من أن موقع Tegdaoust، لم يكن به لاستخراج معدن النحاس، لكن من الأرجح، أن هذا المعدن كان يجلب إلى المدينة، من بعض المناجم المحلية، خاصة وأن التحريات أكدت أن استخلاص معدن النحاس، في موريطانيا، ترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد، كما أن منطقة العير بالنيجر عرفت تواجدا قديما لهذا المعدن.

هذه المعطيات تدفعنا للاستنتاج أنه لا يمكن ربط ظهور معدن النحاس، لأول مرة، في منطقة إفريقيا الغربية بالتجارة مع دول شمال إفريقيا، لأنه قبل وصول النحاس المغربي، كان هناك ترويج وتسويق محلي لهذه المادة، داخل إفريقيا الغربية، وأن المنطقة عرفت، ومنذ وقت مبكر، تكاملا اقتصاديا محليا، يجمع بين المناطق المنتجة، والمناطق المستهلكة.

نستنتج مما سبق من هذا الجرد التاريخي، المتعلق بالحياة الاقتصادية، بمنطقة إفريقيا الغربية، أن هذه الأخيرة، عرفت قبل أي احتكاك بالتجار المسلمين، تنظيمات متطورة في مؤسساتها الاقتصادية والاجتماعية، الشيء الذي ساهم في استقرار السكان، وخلق مجتمعات منظمة وقوية، كانت وراء تأسيس أقوى الإمبراطوريات السودانية، في العصر الوسيط.

---

[1] - Chavane B. « Villages métallurgiques » : l'espace sénégambien

[2] - Robert D. et Soganan ; « Une industrie métallurgique ancienne Mauritanienne du fleuve Sénégal » ; in N. Echad ; éd. 1983 ;p. 45-62 ; Chavane B.

[3] - Vanacker ; Tegdaoust 2 ; 1979 ; « Cuivre et métallurgie du cuivre à Tegdaoust ; 1983

كما أن المنطقة عرفت استقلالا ذاتيا، فيما يخص المبادلات التجارية الإقليمية، وابتداء من القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، ستنشأ بالمنطقة، مدن تجارية مزدهرة، كأوداغشت وغانة، هذه المدن ستسهم باتساع النشاط التجاري، بمنطقة السينغال والنيجر.
ومنذ ذلك الوقت أصبحت السلطة السياسية والإيديولوجية للدول السودانية، يؤثر فيها طبقة التجار، لأنهم كانوا يحتلون مكانة هامة في المجتمعات الإفريقية.

وسيعرف هذا النشاط الاقتصادي، بمنطقة السودان الغربي تطورا ملحوظا، مع انفتاح هذه الأخيرة على محاور التجارة الصحراوية.

فإلى أي حد ساهمت المبادلات الصحراوية في تطوير الأنشطة المحلية؟ وما هي خصوصيات هذا الاحتكاك ما بين طرفي الصحراء شمالها وجنوبها؟ وكيف تعاملت الدول السودانية مع ذلك التفاعل الثقافي الذي أتاها من طرف التجار المسلمين؟

تشير العديد من المصادر ان بداية الحملات الاستطلاعية لنشر الإسلام في بلاد السودان كانت منذ فترة وصول الفاتحين إلى بلاد المغرب وتحديدا منذ زمن **عقبة بن نافع الفهري**[1]55هـ/672م ، المرتبط بالفتح الإسلامي لبلاد المغرب[2]،وعلى اثر دخلت فلولا من جيش عقبة الى بلاد السودان وفتح كل من **التكرور**[3] وغانا، لنجد بأن إسلام غانا تزامنا مع إسلام أهل المغرب، كما تبعتها حملات أخرى ومنها حملة القائد **موسى بن نُصير** إلى **وادي درعة** في السودان الغربي، حيث مكّنت هاتان الحملتان من التعرف على تلك المناطق وعلى سكانها من قبائل صنهاجة[(2)] ،وفي القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد قاد حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع حملة عسكرية في أيام ولاية عبيد الله بن الحجاب على المغرب 123/116هـ وصلت إلى مناطق السوس الأقصى وأرض السودان[4]

وفيما يتصل بانتشار الاسلام يأتينا البكري برواية أقل ما يقال عنها انها ضرب من الخيال فقد وردت معلوماته عن جيش اسلامي استهدف فتح منطقة السودان الغربي، عهد الدولة الأموية لم يحقق مبتغاه ، ولا حتى في العودة إلى مناطقه، فاستقر أفراده في بلاد السودان، وشكل أحفادهم خلال منتصف القرن الخامس هجري نواةتشكيل بشري عربي الملامح في بيئة سودانية، والغريب في رواية البكري انهم تخلوا عن الإسلام لصالح الوثنية[5].

وبعدما تمكن الإسلام من قلوب المغاربة، حاول الولاة التوسع بهدف نشر الإسلام في بلاد السودان، و كانت البداية من **السوس الأقصى**[6]، حيث اعتبرت دولة الخلافة إن السوس الأقصى منطقة عبور للوصول إلى ذهب السودان، والمصادر العربية عندما

---

[1] . **عقبة بن نافع الفهري**:ابن عبد قيس بن لقط بن عامر بن أمية بن طارفبن الحارث الفهري، ولد قبل وفاة الرسول صل الله عليه وسلم بسنة واحدة، فتح إفريقيا واختط بعدها مدينة القيروان،(ينظر: ابن عذارى"أحمد بن مُحَّد ابن عذارى المراكشي ت257هـ"، **البيان المغرب في أخبار المغرب والأندلس**، ج1،تح ج.س.كولان و ليفي بروفنال، دار الثقافة، د.ط، بيروت،د.س.ن،ص ص19،20

[2] . بان حسين السنجري، **إمبراطورية غانا الإسلامية** ، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية، العدد2، جوان 2012م،ص272.

[3] .**التكرور**:وهي مدينة على النيلمن الغرب على ضفافه أكبر من مدينة سلا المغربية , وبينها وبين سجلماسة مسيرة اربعون يوما بسير القوافل، و أقرب بلاد إليها من بلاد لمتونة بالصحراء أسفي بينهما خمس وعشرون مرحلة،(ينظر: الحميري"مُحَّد عبد المنعم الحميري ت900هـ"،**الروض المعطار في خبر الأقطار**، تح إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط2، بيروت،1984م،ص134).

[4] عباس كريم عبد، "**الصلات التجارية بين المغرب و السودان الغربي**"مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بابل، العدد4، سبتمبر 2010م، ص 47.

[5] . البكري "ابي عبيد عبد الله ابن عبد العزيز البكري ت487هـ"، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب**،دار الكتاب الإسلامي، د.ط، القاهرة، د.س.ن، ص179.

[6] . **بلاد السوس**: تسمى تارودنت وهي طرف من البر داخل في البحر أربعين ميلا، و أما السوس فهو يطلق في الكتب على ما وراء جبل درن من جهة الجنوب إلى الصحراء ومن أهم مدنها درعة, (ينظر: الحميري"مُحَّد عبد المنعم الحميري ت900هـ"، المصدر السابق، ص131).

تتحدث عن أي غزوة عربية للسوسو، ترادفها دائما بغزوة أخرى نحو السودان، وتجسد تدخلها الاقتصادي من قبل بعض الأمراء المروانيين، ففي عهد الخليفة الأموي ، أمر ولاة إفريقية بتشييد ساقية لجلب الماء في طريق المؤدية لسودان [1].

5- المسالك التجارية بين الغرب الاسلامي و السودان الغربي.

تعتبر العلاقات الاقتصادية بين المغرب والسودان الغربي أقوى الروابط في تأريخ الاتصال بين هذين الإقليمين، وتعتبر الطرق أهم وسيلة لهذا الاتصال فهناك عدة طرق تربط بين شمال أفريقية وغربها عموماً، والطرق:-

* من سجلماسة إلى والاتا – تنبكت – جنى – جاو.
* من تلمسان إلى توات – تنبكت.
* من ورجلان إلى جاو – يتصل هذا الطريق بموانئ المغرب الاوسط في الشمال.
*من واحة الجرير في جنوب المغرب الادني إلى ورجلان – سوق – غدامس.
* من طرابلس الغرب على الساحل الليبي إلى غدامس ويمر فرع منه بفزان وينتهي إلى بورنووجاو.
* من مصر إلى واحدة سيوه – زاويلة – تادمكة – جاو – تنبكت[2].

وقد اختلف المؤرخون والباحثون في بدايات هذه الطرق ونهاياتها كما ركز بعضهم على أهمية بعضها دون غيرها التي كانت وسيلة الاتصال الاقتصادي والثقافي والسياسي في آن واحد معاً[3].

إن الماء متوفر في الصحراء ويوجد على مسيرة يومين أو ثلاثة من وادي درعة إلى وادي تارجا وفي جبل أدراد مجابة ماؤها على ثمانية أيام وهي المجابة الكبرى[4].

إن السفر عبر الصحراء الكبرى لم يكن أمراً شاقاً وصعباً بسبب وفرة الماء ولم تكن الصحراء بلا ماء وعشب ولكنه يتوفر في أحيان كثيرة بل توفرت المياه السطحية ولم تتعدَ أعماقها في أحيان كثيرة عدة أمتار كما أن بها عيوناً ومياه جارية والبعد بين البئر والآخر لا يتعدى اليومين أو الثلاثة وثمانية أيام على الأكثر[5].

يذكر ابن خلدون بوجود آبار ارتوازية بالصحراء بقوله: في البلاد الصحراوية إلى وراء العرق غربيه في استباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب وذلك أن البئر تحفر عميقة بعيدة الهوى وتطوي جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة فتحت بالمعاول والفؤوس إلى أن يرق ثم تصعد ويقذفون عليها زبرة من الحديد تكسر طبقتها على الماء فينبعث صاعداً فيفعم البئر ثم يجري على وجه الأرض وادياً[6].

هنالك ثلاث طرق للتجارة الخارجية الهامة الأول هو الطريق المحاذي للنهر من الجنوب الغربي والذي تحمل منه التجارة المجلوبة من عدة مناطق وطريقان آخران من الشمال أحدهما من المغرب والآخر من غدامس[7].

---

[1]. إبراهيم القدري بو تشيش، **تاريخ الغرب الإسلامي**، دار الطليعة، ط1، بيروت، 1994م،ص44.

[2]ابن حوقل: أبو القاسم محمد البغدادي الموصلي (ت 367هج)، صورة الأرض، مطبعة الحياة، بيروت، 1979، ص91.

[3]عوض الله: الشيخ الأمين وآخرون، تجارة القوافل ودورها الحضاري، ط1، مؤسسة الخليج للطباعة، الكويت، 1984، ص125.

[4]البكري: عبد الله بن عبد العزيز (ت 487هج)، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، مكتبة المثنى، بغداد، 1986، ص163.

[5]المغربي: محمد، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، دار الرشيد للطباعة، بغداد، 1982، ص163.

[6]حسن أحمد محمود: المرحلة الأفريقية في تأريخ المرابطين، المجلة التاريخية المصرية، المجلد/12، 1964، ص57.

[7]حسن أحمد: المرحلة الأفريقية، ص121.

إن أهم هذه الطرق هو الطريق الممتد من تغازة إلى تنبكت وهو الطريق الذي اشتهر بتجارة الذهب ولم يزل أهم الطرق من ناحية الثقافة حتى القرن التاسع عشر وكان خراب سجلماسة في السنين الأخيرة قد حرم هذا الطريق من ثغوره التاريخية الشمالية فحلّت مكانها إلى حد ما مدينة أبوام المجاورة ولكن أغلب التجار تركوا تافيللت واتجه بعضهم إلى عين صلاح عاصمة توات وقد سافر التجار من وادي وابوام عبر عكا التي ورثت أعمال سجلماسة على طول الطريق القديم عبر تغازة وتاوديني إلى تنبكت على... فبدلاً من الاتجاه غرباً إلى تاوديني ثم والاتا... تتبع الطريق الخط المباشر عبر وادان[1].

إن بداية القرن الخامس عشر أصبح الطريق القديم الذي يمتد من ناحية السوس إلى والاتن "والاتا" قد أهمل نتيجة لاعتداءات الأعراب من البادية السوسية على سابلتها فتركوا تلك الطريق ونهجوا الطريق إلى السودان من أعلى تمنيطت (توات) وبسقوط غانا على يد المرابطين انتهت أهميتها كمركز تجاري. وفي عام 1224 تحول التجار المسلمون بعيداً جهة الشمال الغربي إلى والاتا، وفي عام 1240م تحطمت غانا نهائياً وتغير الميزان الاقتصادي وانحرف جهة الشرق إلى منحنى النيجر الأوسط وأصبحت جنى وتنبكت وجاو مراكز تجارة الاستيراد والتصدير وخلف ملوك مالي ومن ثم ملوك سنغي ملوكَ غانة في الاستفادة من ذلك التحول[2].

اكتسبت طرق الشرق أهميتها بقيام سلطنتي كانم ويرنو كما أن انهيار سلطنة سنغي وقيام ممالك الهوسا نشط الطريق الشرقي وجعله أكثر أهمية في الطرق الغربية وأصبحت كانوهي المركز الرئيسي الذي تنتهي عنده الطرق التجارية بدلاً من تنبكت، وبعد الاحتلال الأوربي لسواحل أفريقيا الغربية انحرف جانب كبير من التجارة ناحية الجنوب نحو الساحل وأصبح القرنان السابع عشر والثامن عشر يمثلان فترة تدهور اقتصادي بالنسبة للمناطق المسيطرة في وسط النيجر وأدى سقوط مملكة سنغي على يد السعديين إلى انهيار تجارة الصحراء بين المغرب والسودان الغربي وساعد في تنشيط تجارة الساحل مع الأوربيين كبديل للطرق الصحراوية مع المغرب[3].

/–الحواضر والقبائل الصحراوية الفاعلة في العلاقات بين الغرب الاسلامي و السودان الغربي .

1– سجلماسة:

تعتبر سجلماسة مركزاً تجارياً هاماً ومنها تسير القوافل إلى تغازة وقد ذكر عنها ابن حوقل بأنها كانت مركزاً تجارياً هاماً وبها أرباح متوافرة ورفاق متقاطرة وأهلها قوم سراء مياسير وأبنيتها كأبنية الكوفة[4].

حافظت سجلماسة على وضعها العام لعدة قرون فبينما لها أهميتها التجارية فهي صحيحة الهواء كثيرة التمور والأعناب والزبيب والفواكه والحبوب والرمان كثيرة الغرباء وبها معادن الذهب والفضة وهي تشبه مدينة البصرة في كثرة التمر. إن المسافة بينها وبين تغازة خمسة وعشرين يومياً[5].

2– تغازة:

يصفها لنا ابن بطوطة بأنها قرية لا خير فيها ومن عجائبها إن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح يحفر عليه في الأرض فيوجد منه ألواح ضخمة متركبة يحمل الجمل منها لوحين. إن قرية تغازة على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر[6]،

---

[1] مسعد: مصطفى، الإسلام والحركات الإصلاحية في غرب أفريقية، مجلة أم درمان الإسلامية، العدد/1، 1963، ص123.

[2] البكري: المغرب في ذكر، ص 173 .

[3] مصطفى مسعد: الإسلام والحركات الإصلاحية، ص 124 .

[4] ابن حوقل: صورة الأرض، ص 99

[5] ابن حوقل: صورة الأرض، ص 101 .

[6] إبن بطوطة(ت 779 هـ):رحلة إبن بطوطة ، دار صادر، بيروت، 1964م، ص69.

وكانت تغازة تابعة لقبيلة موفة وبسبب اهتمام السودانيين عادة بمدن الملح فقد قام أهالي سنغي باحتلالها في عهد الحاج أسكيا مُحَمَّد سلطان سنغي وفي عهد السعديين قام المغاربة باحتلال تغازة وضموها لمملكتهم وفرضوا عليها زكاة المعدن[1].

إن تجار السودان كانوا يصلون إلى تغازة ليحملوا منها الملح إلى السودان كما كان التجار المغاربة يأخذون منها الملح كذلك إلى السودان، وفي بعض الأحيان يقوم السودانيون بحمل الملح على ظهر إبلهم مقابل أجرة قد تبلغ قيمتها ثلاثة أمثال قيمة الكمية المحمولة من الملح يدفعها لهم التجار المغاربة إذ يتناول التاجر حمله جمل من كل أربعة جمال على حين يتناول صاحب الجمال حمولة الجمال الثلاثة مما يؤكد الرحلة وتكلفة الترحيل الباهظة[2].

3- تكدا:

اشتهرت تكدا بإنتاج النحاس الذي يستخرج من مناجمها ويحمل إلى بلاد السودان ويسبك في بعض الأحيان وتصك منه العملة. ومن تكدا تسير القوافل إلى برنو حيث تجلب الجواري والعبيد والثياب وتصدر منها السلع إلى المغرب والنحاس الذي يحمله التجار إلى سلطنة مالي لاستبداله بثلث وزن النحاس ذهباً خالصاً[3](32).

4- توات:

وهي من المراكز التجارية الهامة وقد ذكرها ابن خلدون وأشاد بعمرانها وقال فيه: فمنها على ثلاث مراحل قبلة سجلماسة وتسمى وطن توات وفيه قصور متعددة تناهز المائتين آخذة من القرب إلى الشرق وآخرها من جانب الشرق يسمى تمنطيت وهو بلد متبحر في العمران وهو ركاب التجار المترددين من الغرب إلى بلد مالي من السودان بهذا العهد تحتوي توات على أربعة آلاف عائلة وبها تربة خصبة لزراعة الحبوب والشعير ويزرعون القصب السكري بكميات وافيرة وعندهم كمية من التمر ولا يستعملون أي عملة بجانب الذهب[4](33)، وتعتبر توات مركز إنعاش لتجار القوافل إذ تقع في واحة غنية وتزود التجار بالغذاء والماء العذب وتوفر الكلأ لجمالهم كما يتم تغيير الجمال والأدلاء وغالباً ما يقوم تجار السودان بعرض بضاعتهم بها[5](34)

5- غدامس:

كانت غدامس مركزاً تجارياً هاماً وتتفرع منها عدة طرق تجارية وتصل إليها القوافل القادمة من طرابلس وجنوب تونس والجزائر وتتجمع فيها وبعض هذه القوافل يسافر غرباً عن طريق توات ومنها إلى تنبكت وبعضها يسافر مباشرة إلى غات وكانو والفرع الثالث يتجه اتجاهاً جنوبياً غربياً إلى مرزوق ومنها إلى بورنو[6](35).

وزارها الرحالة لين ودهش بطريقة تجارها في أجواء محاسباتهم التي تتمشى مع الأساليب الحديثة فقد كانوا يحسبون تكلفة البضاعة للأقطار المتعددة وتكلفة الضرائب ويضعون في اعتبارهم المخاطر التي تتعرض لها بضاعتهم كما يضعون نسبة مئوية لما ستجنيه تجارتهم ولهم فواتير حسابية كما يقومون بعقد عقود شفاهية[7](36).

---

[1] مصطفى مسعد: الإسلام والحركات الإصلاحية، ص 122.

[2] الشيخ الأمين: العلاقات بين المغرب والسودان الغربي، دار المجمع العلمي، جدة، 1979، ص64.

[3] البكري: المغرب في ذكر، ص 174 .

[4] إبن خلدون : العبر ، ج7 ، ص17-18 .

[5] القشتالي: عبد العزيز، مناهل الصفاء في أخبار ملوك الشرفاء، المطبعة المهدية، الرباط،1964، ص87.

[6] ابن خلدون: العبر، ص 18 .

[7] القشتالي: مناهل الصفاء، ص 52 .

وعلى الرغم من أن الرحالة لين قد زار غدامس في القرن التاسع عشر إلا أن التقاليد التجارية تستمر لعدة قرون ونستشف عن حديث لين: الوعي المبكر الذي كان يتمتع به تجار غدامس ولعل هذا ينطبق على كل التجار في المغرب فالتقاليد التجارية عرف متبادل يتعارف عليه الناس في هذه الأقاليم[1](37).

6- مرزوق:

اشتهرت مرزوق كمركز تجاري لبلاد البرنو وأن لها صلة ببلاد توات وغدامس وإن صلتها بالسودان الغربي أكثر من صلتها بإقليم برنو وقد ظلت مرزوق كما كانت منذ القدم وحتى القرن الثامن عشر المركز الرئيسي لإنعاش قوافل التجارة القادمة من غدامس وطرابلس إلى بلاد الهوسا وبرنو والمركز الرئيسي لتجارة الرقيق[2](38).

ثانياً: المراكز السودانية:

مدينة اودغست : وهي من المراكز التجارية المهمة في السودان الغربي ، وتقع في شمال غرب السودان الغربي ، في نقطة النهاية الذي يربط بلاد المغرب بالسودان الغربي ، والذي يبدأ من مدينة سلجماسة وينتهي بمدينة اودغست.

واكتسبت مدينة اودغست اهميتها ليس من كونها محطة لاستراحة القوافل التجارية فحسب ، بل انها سوق ونقطة لقاء بين تجار القوافل الصحراوية ، حيث يبادلون بضائعهم الشمالية بالبضائع القادمة من اودغست .

1- بني أوتياني:

كانت عاصمة مملكة مالي وتستمد المدينة أهميتها من موقعها بالقرب من مناجم الذهب وبزوال المملكة نجد أهميتها قد انتهت وعند زيارة الحسن الوزان "ليو الأفريقي" لها في القرن السادس عشر لم تكن سوى قرية تسمى مالي ويصفها ليو بقوله: كانت هناك قرية كبيرة تحتوي على ستة آلاف عائلة أو أكثر وتسمى مالي وكانت تسمى بها المملكة كلها وهي مقر إقامة الملك والمنطقة تنتج كثيراً من القمح واللحم والقطن ويوجد كثير من الصنّاع بها والتجار في جميع الأمكنة والملك يرحب بجميع الغرباء في كرم وكان السكان أثرياء[3](39).

2- تنبكت:

كانت تنبكت مركزاً تجارياً في عهد سلطنتي مالي وسنغي بيد أنها ازدهرت في عهد سلطنة سنغي واكتسبت أهميتها من موقعها الممتاز في منحنى النيجر فأصبحت في سنغي أقرب محطة للقوافل التجارية القادمة من الغرب كما أن موقعها على النيجر جعلها حلقة اتصال بين تجارة المغرب وتجارة السودان[4](40).

3- جاو:

وهي عاصمة سلطنة سنغي وورد ذكرها على لسان البكري –الجغرافي الأندلسي- في حوالي 1607م كما ذكرها صاحب كتاب الاستبصار بقوله: وأهلها مسلمون وأكثر ما يحمل إليها الملح والودع والنحاس المسبوك وحواليها معادن التبر، وهي أكثر بلاد السودان ذهباً، إن السلع التجارية الرئيسية هي الملح والودع والنحاس المسبوك أما الملح فكان يرد إليها من تغازة والودع يأتيها من الهند بواسطة التجار المغاربة والنحاس من تكدا[5](41)، وتقع جاو على بعد أربعمائة ميل جنوب شرق تنبكت وبها تجار أثرياء وترد

---

[1] الشيخ الأمين: العلاقات، ص 67 .

[2] الشيخ الأمين : العلاقات ، ص81 .

[3] الوزان: الحسن بن مُحَمَّد، وصف أفريقية، الرياض، 1965، ص 94 .

[4] الحسن بن مُحَمَّد الوزان: وصف أفريقية، ص 97 .

[5] ديفدسون: باسيل، أفريقيا القديمة تكتشف من جديد، ترجمة نبيل بدر وسعد زغلول، الدار القومية، القاهرة، 1972، ص59.

إليها الأقمشة من المغرب وأوربا كما يوجد بالمدينة سوق للرقيق. وفي عصر ازدهار الطرق الصحراوية بين المغرب والسودان الغربي كانت القوافل تصل إلى تنبكت ومنها تتجه إلى جاو غير أن ذلك تغير في آخر عهد مملكة سنغي بعد تدهور أحوالها وأصبحت الطرق الشرقية أكثر ازدهاراً بسبب نمو ممالك الهوسا فكانت القوافل ترد إلى جاو ومنها إلى تنبكت، وقد تم تأسيس جاو قبل دخول الإسلام إليها في أواخر القرن الثاني الهجري وقد انتشر الإسلام في القرن السادس[1](42).

4- جنى:

كانت جنى مركزاً تجارياً هاماً وتأسست في القرن الثالث الهجري واشتهرت بتجارتي الملح والذهب وهي سوق عظيمة ويلتقي فيها تجار الملح وتجار الذهب وكانت تزخر بالأموال والرجال وهي ملتقى للطرق ويتم في مدينة جنى مبادلة الملح بالذهب وساعد موقعها الممتاز في منطقة محاطة بالمياه في تأمينها من غارات المعتدين، كما أنها تتميز بثرواتها الحيوانية والسمكية والزراعية ولا سيما القطن الذي يشتريه التجار المغاربة لتصديره إلى أوربا مقابل أواني نحاسية وأسلحة وغيرها من السلع وتستخدم القوارب في نقل الملح والسلع الأخرى من تنبكت إلى جنى وبالعكس وبذا غدت جنى صلة الوصل بين تجارة الذهب والملح[2].

5-- ولاته :

مدينة موريطانيه- حاليا – تقع في مقاطعة الحوض الشرقي، تأسست في القرن الأول الهجري عرفت ببيرو، أي المدينة الكبيرة، تم العثور بها على شواهد تاريخية متمثلة في الألواح الحجرية على القبور تحمل أسماء زنجية وأخرى عربية والكتابات كلها بالعربية[3] تبعد عن العاصمة نوا قشط بحوالي 1200كلم إلى الشرق، وهي تبعد عن تنبكت بنفس المسافة تقريبا[4] ، أما تاريخ تأسيسها فلم تشر إليه الدراسات والمصادر التاريخية إلا أن خليل النحوي يضن أنها شيدت في القرن الهجري الأول[5].

وتسمية ولاته يقال ان معناها : العارض المرتفعة[6] وتقع الى الشمال الغربي من مدينة تنبكت ، تأسست على أنقاض مدينة "بير" ولذلك يسميها البعض " بير " او" بيرو"[7] وذلك عقب هجرة العلماء والتجار المسلمين بعد سقوط عاصمتهم كومبي صالح ، والذين هربوا من مدينتهم خوفا من بطش قبائل الصوصو لهم ولذلك خشوا على أموالهم من النهب والضياع فدخلوا بها الى المدينة في بداية القرن السابع للهجرة /الثالث عشر الميلادي[8].

ويذكر ابن بطوطة ان هؤلاء التجار كانوا من قبيلة مسوفة[9] وأشار السعدي[10] على أنها كانت مأوى للتجار المسلمين بقوله: " واليه يرد الرفاق من الأفاق وسكن فيه الأخيار من العلماء والصالحين وذوي الأموال " ، وعلى ضوء ما ورد ذكره كان يعيش بولاته

---

[1] الوزان: وصف أفريقية، ص 65 .

[2] المراكشي، محي الدين عبد الواحد بن علي (ت 647هج)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1959، ص47.

[3] زينب احمد هاشم : علاقة مصر بالدول الإسلامية في حوض نهر النيجر في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، رسالة ماجستير ، قسم التاريخ ، معهد البحوث والدراسات الإفريقية القاهرة ، 1982، ص104

[4] كولين ماكيفيدي : أطلس التاريخ الإفريقي ، ت مختار السويفي ، ط1 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب لبقلهرة ، 1987 ، ص 105

[5] أبو بكر أحمد المصطفى المحجوبي : منح الرب الغفور في ذكر ما أهمل صاحب فتح الشكور ، دراسة وتحقيق وتقديم ، الهادي المبروك الدالي ،ط1، 2001 ، بدون مكان.ص122.

[6] ولد حمادي : ولاته ، حاضرة العلم وحاضنة الدين ومنارة الثقافة في موريتانيا جريدة الراية 2010/08/07موريطانيا www.ereyde.com

[7] الهادي المبروك الدالي : قبائل البرابيش ، ط1 ، دار الكتب الوطنية ، 2002 ، بدون تاريخ،ص 28.

[8] حسن الوزان : وصف إفريقيا –ترجمة محمد حجي عمار زينر، محمد الأخضر، أحمد توفيق، أحمد يتجلون –دار النشر للمعرفة –الرباط.، ج2، ص 160.

[9] عبد الرحمان السعدي: -تاريخ السودان –وقف على طبع هوداس-مكتبة أمريكا والمشرق –باريس ، بدون تاريخ.. ص20.

[10] عبلة محمد سلطان : العناصر المغاربية في السودان الغربي – دورها السياسي والحضاري منذ ظهور المرابطين حتى نهاية دولة سنغاي – رسالة دكتوراه – مركز البحوث والدراسات الافريقية جامعة القاهرة – 1999-ص 156.

عدد كبير من التجار المسلمين عرب وبربر وخاصة من قبيلة مسوفة حيث كان يفد اليها التجار وأصحاب الأموال من كل بلد ،من أهل مصر وفزان وغدامس وتوات ودرعة وفاس وسوس وغيرها، وتحول النشاط التجاري قليلا الى تنبكت فكانت عمارة تنبكت في خراب بير[1] ، وزارها ابن بطوطة[2] وسماها " إيوالاتن " بمعنى نبتعد في لغة السوننك وهو ما قاله المهاجرون الذين تركوا كومبي كومبي صالح واتجهوا الى ولاته[3].

احتلت ولاته دورها كبوابة غربية لعبور التجار الى السودان الغربي وذكر ابن بطوطة[4] "أول عمالة السودان " وكان أخر الثغور لمملكة مالي .

وتحولت ولاته إلى سوق كبير في عام 600هـ /1203 م يرد إليها التجار من سائر البلاد المغربية من ورجلان و فزان و غدامس وتوات ودرعه و تفليلات و فاس والسوس[5] ومن عوامل تردد التجار واستقرارهم بها هو الآمان الذي يشعرون به أثناء وجودهم بهذه المدينة كما قال ذلك ابن بطوطة[6]: "فلا يخاف المسافر فيها، ولا المقيم من السارق ولا غاصب مع عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ولو كان بالقناطير المقنطرة ، وإنما يتركون بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقيه وكان وجود تجار العرب والبربر في ولاته بارزا فقد ذكر ابن بطوطة[7] 67 لما عزم الدخول الى هذه المدينة قام تاجر من سلا وهو صديق له من تأجير منزلا له قبل وصوله وقد يكون أكثرية التجار من الطوارق وهم الذين أسسوها قبل تنقلهم الى تنبكت[8].

وقد استنكر ابن بطوطة بعض تصرفات أميرهم اسمه فربا بعد المعاملة السيئة، فعندما توجه إليه مع رجال قافلته، كان جالسا في سقيفته وبين يديه أعوانه، ويكلمهم بترجمان على قربهم منه، واحتقارا لهم، وعند ذلك خرج ابن بطوطة من بلادهم لسوء أدبهم واحتقارهم للبيض[9] ، وقد صف ابن بطوطة أهل ولاته بالكرم، وأن سكانها محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن واخبرنا انه امضي بضعة أيام اخرى في ولاته ووجدها " شديدة الحر، وفيها يسير نخيلات يزرعون في ظلالها البطيخ وثياب أهلها حسان مصرية[10].

فولاته تبدوا من حديث ابن بطوطة، بمثابة مركز للتجارة من سوادنين ومغاربة على السوء وبحكم موقعها كانت تعد مركز استقبال القوافل التي في طريقها الى السودان الغربي[11] ، وهي التي اجتذبت التجار بعد سقوط المدينة الغانية القديمة، وانتقلت التجارة الى ولاته walata[12] .

---

[1] ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة (المعروف بـ: تحفة النظار في غرائب الأمطار) دار بيروت للطباعة والنشر –بيروت –1400هـ/1980م ،ص 65 .

[2] عبد الرحمان السعدي: نفس المصدر، ص 11، 12.

[3] نفس المصدر ص 21 .

[4] ابن بطوطة : نفس المصدر ،ص 677 .

[5] مطير سعد غيث أحمد: الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي (خلال القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة/ السادس عشر والسابع عشر للميلادي) – ط1 دار الكتب الوطنية –بنغازي ليبيا 2005م.،ص204.

[6] ابن بطوطة نفس المصدر ،ص 676 .

[7] عبد الرحمان السعدي :المصدر السابق ، ص 21 ، حسن الوزان : المصدر السابق ، ص 530 ، عبلة محمد سلطان: المرجع السابق ، ص 92 .

[8] ابن بطوطة المصدر السابق،ص 672 .

[9] نفس المصدر ،ص677.

[10] عبد الرحمان السعدي:نفس المصدر، ص 21.

[11] ابن بطوطة : نفس المصدر ،ص676 .

[12] نفس المصدر والصفحة.

وبذلك شهدت ولاته أوج ازدهارها الاقتصادي في عهد مملكة مالي، كما أشار إلى ذلك ابن بطوطة خلال القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي، الا ان أحوالها تغيرت بعد ذلك وهاجرها سكانها الى مدينة تنبكت ولذلك قال عنها السعدي[1]: "فكانت عمارة تنبك من خراب بير " ومن خلال ما عرض نستنتج أن ولاته اشتهرت أنها حلقة للعلم ومنطلق لقوافل الحجيج وأيضا كميدان للحركة التجارية النشطة ، فقد وفد إلى ولاته الكثير من العلماء والصالحين، وأصحاب الأموال من كل فج ومن قبائل شتى، من سلجماسة، ودرعة، وتافيلالت وفزان وغدامس ومصر وغير ذلك ومن هنا تتضح العلاقة بين تطور التجارة وانتشار الإسلام في المنطقة وقد اشتهرت هذه المدينة أيضا بزراعتها وبساتينها التي عرفت ازدهارا كبيرا، فهي تقع في واد مشهور بخصوبة تربته وغزارة مياهه مما جعل من ولاته ملتقى لطرق القوافل التي كان ربط بين بلاد المغرب وبلاد السودان الإفريقي، حيث كانت المدينة تمثل المرجعية الدينية والعلمية لسكان منطقة الحوض بصفة عامة .

من نتيجة النشاط التجاري للعرب المسلمون في السودان الغربي ، هو اسلام حاكم التكرور ، الذي اسلم على يد التجار العرب من بلاد المغرب دخل اول ملك حكم مملكة السنغاي الاسلام وهو الملك زاكاسي وذلك في سنة (400 هـ / 1009 م). كما انطلق التجار العرب المسلمون من غانة الى القبائل في كانجابا واسلم على يديهم ملكهم سنة (422 هـ / 1030 م) . وفي (ق 5 / ق 11 م) امتد نشاط التجار العرب المسلمون الى مناجم الذهب في غيارو ويرسني وكوغة ومن نتيجة ذلك اسلام حاكم مدينة هلل وقومة على يد احد التجار العرب.

ومن القبائل العربية التي كانت قد انتقلت من مصر الى بلاد المغرب قبيلة جذام ، ومنها اتجهت جنوباً عبر الصحراء الى اراضي مملكة الزغاوة ، في السودان الاوسط وذلك في اواخر (ق 5 هـ / ق 11) وسيطروا على دارفور في السودان الشرقي واتخذوها قاعدة للهجوم على الاقاليم المجاورة .

ومن الهجرات الفردية الى بلاد كانم ، هجرة الكثير من العلماء ورجال الدين العرب الى افريقيا الغربية بلاد كانم ، وكان هدفهم نشر الاسلام وثقافته

القبائل الفاعلة :

صنهاجة الجنوب جابوا الصحراء الإفريقية و انتشروا فيها , من بداية الرمال إلى التخوم الداخلية للصحراء الإفريقية على امتدادها الجغرافي من وادي النيل شرقا إلى لمحيط الأطلسي غربا , و هو ما يعبر عنه بصنهاجة ما بين الحبشة و الزنج .[2]

وحدد عبد الوهاب بن منصور أن هذا الإقليم من الصحراء الكبرى بداية من غدامس إلى البحر المحيط و بلاد السودان بأقصى الجنوب . [3]

وبشيئ من التعميم و زيادة على ما ذكر , حصر "ألفرد بل" تواجدهم في نطاق ضيق بقوله : " إنهم كانوا يملكون القسم الشمالي الشرقي من السنغال "

---

[1] جمال زكريا قاسم : العلاقات العربية الإفريقية ، مجلة البحوث والدراسات الافريقية ، العدد 547، القاهرة 1977 ص 28 .

[2]- هاشم العلوي ,مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن 4ه/10م, وزارة الاوقاف و الشؤون الاسلامية , المملكة المغربية . 1985م,ص 101 .

[3] الفرد بل , الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي من الفتح العربي حتى اليوم , تر و تح : عبد الرحمن بدوي,ط3دار الغرب الاسلامي, بيروت, 1987

وكانت بعض بطونهم تضرب في منطقة الأطلس الأوسط من تازا إلى إقليم بني هلال و تحتل منحدرات الأطلس الكبير الجنوبية , و توغل جنوبا محتلة الواحات الواقعة على أطراف الصحراء[1]. و بأكثر دقة ذكر لنا ابن خلدون أنهم كانوا بالجانب الشرقي من جبال درن ما بين تازا و تادلا و معدن بني فزان حيث الثنية المفضي إلى أكرسليون من بلاد النخيل بناحية سلجماسة , و بالرجوع إلى الغرب من أكرسليون نحو درجة إلى ضواحي السوس الأقصى و أمصاره من تاردودانت و ايفري إلى فوتان و غيرها.[2]

وكان حوض صنهاجة في القبلة مسيرة سبعة أشهر طولا, و مسيرة أربعة أشهر عرضا , من دول لمطة إلى قبلة القيروان من بلاد إفريقية [3].

ويرى مارمول أن صنهاجة تشكل أول إقليم مأهول غرب صحاري ليبيا و لعل المقصود بهذا الإقليم غدامس , و أشار ابن خلدون إلى أن هذه الطبقة من صنهاجة هم الملثمون الموطنون بالقفر , وراء الرمال الصحروية بالجنوب أبعدوا في المجالات هناك منذ دهور , قبل الفتح لا يعرف أولها , فأصحروا عن الأرياف , و لما استخدم هؤلاء الإبل استقروا في بعض جهات الصحراء منذ وقت بعيد.[4]

تنتشر قبائل الملثمين حسب المصادر من غدامس الواقعة جنوب طرابلس (شرقا) حتى المحيط الأطلسي(غربا) و ذلك في المناطق الصحروية التي تلي سلسلة جبال درن (شمالا) و تنزل جنوبا حتى مصب نهر السنغال جزء من منحى النيجر و على الشرق منهم تصل مضاربهم حتى مناطق مدينة "تادمكة" (جنوبا) و قد ذكر ابن ابي زرع بأن مضاربهم من القبلة (الشرق) إلى الغرب مسرة سبعة أشهر.[5]

ولما تدخل مضارب الملثمين تجد كل قبيلة لها مجالها الجغرافي الي تتحرك فيه ,فقد قيل مثلا أن مضارب قبيلة لمتونة مسيرة شهرين طولا و عرضا و كانت مدينة "أركى"* حصن لمتونة و معقلها.

بل و سيطرت على الطريق التجاري الهام الذي يحاذي ساحل المحيط . و كذا بالقرب من طريق القوافل سجلماسة – غانة .لذا كانت لمتونة أكبر قبائل الملثمين لذا كانت قبائل لمتونة أكبر قبائل الصنهاجيين عددا ووفرة للمال و بذلك نالت رياسة صنهاجة الصحراء عموما , و في الجنوب منها نجد قبيلة جدالة و تعد الأقرب غلى بلاد السودان , و كانت مدينة أوليل مركزها و هي التي اشتهرت بالملح الي تنقله القوافل شمالا و جنوبا , اما مسوفة فقد كانت مضاربها قاحلة إذ حصرت بين سلجماسة في الشمال و أودغست في الجنوب.

هذه المضارب الموغلة في الصحراء الكبرى جعلت المنطقة تحافظ على نمط معيشتها دون تدخل القوى الخارجية فيها كثيرا.[6]

---

[1] حسن أحمد محمود, قيام دولة المرابطين- صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى- ,دار الفكر العربي ,القاهرة . 1956,ص 37.

[2] بن خلدون . مصدر سابق . ص 273.

[3] ابن أبي زرع. الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و ملوك مدينة فاس. دار المنصور . الرباط. 1972. ص120.

[4] ابن خلدون . مصدر سابق .ص 241.

[5]- ابن أبي زرع. مصدر سابق , ص 120

[6]- ابن أبي زرع, مصدر سابق , ص120.

وقد لخص أبو العباس الناصر ي في وصفه لمضارب قبائل صنهاجة الجنوب و موقعهم الجغرافي بقوله : " و كان هؤلاء الصنهاجيون يقيمون في مواطن متفرقة من صحراء شمال إفريقية و يعرفون بالملثمين"[1]

وينتشرون في مساحات واسعة من تلك الصحراء , و تمتد جنوبا حتى شمالي النيجر و مالي وتشاد و يفصلون بين عامة قبائل الأمازيغ , و قبائل بلاد السودان في الجنوب , و كان لهم قبل قيام دولة المرابطين بأزمان عديدة جولة و صولة و جهاد و دعوة .و يتفق مع هذا الراي "قوتيه" و لعله استسقى مادته عنه فهو يتبنى ما ذكره بن خلدون مؤكدا أن مرد ذلك إلى قوة قبائل البتر التي استخدمت منذ العصر الروماني الإبل , فدفعت قبائل صنهاجة أمامها نحو المغرب الأقصى , و لما استخدم هؤلاء الإبل استقروا في بعض منذ وقت بعيد. [2]

أهم القبائل الصنهاجية الملثمين

قبائل صنهاجة الجنوب أو قبائل الملثمين كما عرفناها سابقا و ذكرنا أصلهم و نسبهم و أصل تسميتهم بالملثمين كانت لهم عدة قبائل ضاغنة في تخوم الصحراء في الحدود التي ذكرت سابقا , و كما أسلفنا الذكر أن قبائل صنهاجة الجنوب تتفرع على سبعين قبيلة , و في هذه السطور سنحاول التعرف على أهم القبائل و التجمعات السكانية للقبائل الصنهاجية و من أهم هذه القبائل :

1/ لمتونة :

تعد قبيلة لمتونة من أهم قبائل صنهاجة الصحراء و بدا بروزها كقوة سياسية بارزة في المنطقة , و كانت لها الزعامة و السيطرة على غيرها من القبائل خصوصا بعد دخولها احت لواء الشيخ عبد الله بن ياسين(كما ذكرنا سابقا) و هو ما أكسبها قوة و هيمنة[3], و كانت هي أيضا فرع من فروع البرانس , و كانت تسكن منطقة تلي منطقة لمطة و جزولة و تمتد من وادي النيل على المحيط الأطلسي حتى رأس بوجادور الحالية و من الشرق من واد نون تقع مدينة أزكى مسيرة سبعة أيا من وادي النون و هي حصن لمتونة و معقلها.[4] .

وكانت تؤثر حياة القفر(الصحراء) على حياتهم الأخرى فكانوا يعتمدون في قوتهم على اللبن و لا يعرفون لا زرعا و لا حرثا و لا يأكلون الخبز و كانت مهنتهم الرعي و رأس مالهم الأغنام التي كانوا يعشون على لحومها و ألبانها.[5]

و كانت لمتونة تدين بالمجوسية قبل أن ينتشر الإسلام فيها بفضل جهود عبد الله بن ياسين و أبوبكر بن عمر اللمتوني , و بفضل مكانها التي احتلتها في الزعامة و انتقالها إلى المغرب الأقصى أقام سكانها بالمدن و تمكنوا من الوصول إلى أرقى المناصب في السلطة خاصة بعد تولى أمرهم يوسف بن تاشفين , حرصوا على تولية المناصب الحساسة في الدولة , و شاركوا في الحياة الاجتماعية بالبلاد و أصبحوا يزاولون مخلف الأنشطة الزراعية منها و الصناعية و التجارية.[6]

---

[1]- ابو العباس الناصري ,الاستقصا لأخبار دول المغرب, ج1, تح: جعفر الناصري,/ محمد الناصري , دار الكتاب . الدار البيضاء, ص 425.
[2]- حسن احمد محمود , مرجع سابق , ص 42.
[3]- البكري , مصدر سابق , ص 164
[4]- حسن أحمد محمود , مرجع سابق , ص 45
[5]- ابن خلدون , المصدر السابق , ص 171 , ابن أبي زرع , الأنيس المطرب , ص 76
[6]- حسن علي حسن , الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس , عصر المرابطين و الموحدين , ص247

و لم يكتفوا به فقط بل انخرطوا في الحياة العسكرية و قاموا بعمل كبير في المجال العسكري و برز منهم القادة و العسكريون و الولاة و نواب الأمر.[1] .

2/جدالة :

هي إحدى قبائل صنهاجة لا تختلف هي الأخرى عن قبيلة لمتونة في كون رجالها ينتجعون المراعي و يقيمون في الصحراء[2], و تمتد مضاربهم حتى نهر السنغال متخذة من مدينة أوليل مركزا لها حيث معدن الملح الذي تحمله القوافل إلى الشمال و إلى الجنوب3, و كان لها دور كبير أيضا في قيام دولة المرابطين كقبيلة لمتونة بفضل زعيمها يحي بن إبراهيم الجدالي و قصة حجه (ذكرناها سابقا) و جلبه للشيخ عبد الله بن ياسين -كما أسلفنا القول في سابق الصفحات- و على الرغم من انتقال الزعامة إلى قبيلة لمتونة إلا أن قبيلة جدالة بقيت محافظة على مكانتها في المجتمع المرابطي بعد تأسيس الدولة ,و حضي أهلها بالمناصب العليا في السلطة , حيث ساهمت هذه القبيلة في الحفاظ على الدولة المرابطية من خلال إسهاماتها في عديد المجالات خاصة الجهاد.[4]

3/ مسوفة

تعد هذه القبيلة من القبائل الصنهاجية المشهورة التي كتنت تتخذ من المنطقة الصحراوية الممتدة بين سجلماسة و أوداغست في الجنوب منتجعا لها , و هي بذلك كانت تتحكم في مراكز العبور الأساسية لذهب السودان الغربي[5] , فضلا عن امتهانهم مهنة الرعي و اعتمادهم في عيشتهم على لحوم الأغنام و ألبانها, و بعد أنا انضمت إلى دعوة الشيخ و الداعية عبد الله بن ياسين تبوأت مكانة جيدة في المجتمع الجديد , و بعد تأسيس دولة المرابطين احتل بعض أبنائها مراكز قيادة في الدولة الجديدة و أيضا مكانة اجتماعية جيدة.[6]

4/ لمطة :

هي أيضا إحدى قبائل صنهاجة الجنوب و تحتل المنطقة الواقعة و الممتدة من جبال درن حتى وادي نول القريب من المحيط الأطلسي[7], و قد سميت مدينة "نول" باسم القبيلة هذا ما نفته معظم المصادر الجغرافية ' و إنما سميت نول لمطة لأن قبيلة لمطة يسكنونها.[8] .

و هذه القبائل التي ذكرناها لا تمثل كل قبائل صنهاجة الجنوب الواسعة المجال إنما أهم القبائل و التجمعات القبلية التي ساهمت بشكل كبير في بناء موطن و وحدة سياسية للملثمين و هو عبارة عن ما يسمى بدولة المرابطين.

---

[1]- حسن أحمد محمود , مرجع سابق , ص 46
[2]- الحلل الموشية , مصدر سابق , ص 17
[3]- حسن أحمد محمود , مرجع سابق , ص 46
[4]- نفسه , ص 377
[5]- ابن بطوطة , رحلة ابن بطوطة المسماة " تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار "ج 2, اعتنى بها و راجعها درويش الجويدي , المكتبة العصرية , صيدا , بيروت , 2005,ص 271, 272.
[6]- - محمد عبد الهادي شعيرة , المرابطون تاريخهم السياسي , ط1, القاهرة , 1969, ص 30
[7]- ابن حوقل , صورة الأرض, دار مكتبة الحياة و بيروت, لبنان, 1996,ص 101
[8]- - عبد المنعم الحميري , الروض المعطار في خير الأقطار , ج1, تح ك إحسان عباس , مؤسسة ناصر للثقافة , بيروت , لبنان , 1988, ص 584

تعتبر قبائل صنهاجة الجنوب عدة قبائل مترامية الاطراف كل قبيلة لها زعيمها السياسي , وتمثل لمتونة و جدالة ومسوفة من اكبر قبائل الملثمين . وتعتبر لمتونة هي صاحبة الريادة على غيرها من القبائل حيث أنها استطاعت أن توحد اغلب القبائل تحت رايتها.

حيث شكلت لمتونة أول حلف في القرن 3 هـ/9م بقيادة زعيمها يتلوتان بن تلاكاكين (ت222هـ) حيث انه استطاع ان يتحكم في الصحراء ويرفع لواء الجهاد حتى دان له أزيد من عشرين ملكا من ملوك السودان يؤدون له الجزية , وبعد وفاته خلفه احفاده و لكن حلف صنهاجة ضعف وتفكك سنة 306 هـ عندما قتل أشياخ صنهاجة تميم بن الأثير بن فطر بن يتلوتان بن تلاكاكين وتفرقت كلمتهم.[1]

في الوقت الذي انفك فيه عقد الملثمين و في الوقت نفسه ظهر خطر مملكة غانة في الجنوب و القبائل الزناتية في الشمال , و بروز خطر الدولة الشيعية الإسماعيلية العبيدية في بلاد المغرب , والخلافة السنية الأموية في الأندلس على الساحة السياسية , تجدد الحلف الثاني للملثمين في حوالي عام 350 هـ بزعامة لمتونة ,لكنه باء بالفشل وضعف وتفكك , ثم تجدد الحلف في القرن الخامس هجري في حوالي عام 424هـ بزعامة أبو عبد الله مُحَمَّد بن تيفاوت المعروف بتارشتا اللمتوني (أبو عبيد الله بن تيفاوت , ابو عبد الله بن تارشت اللمتوني) و هو زعيم قبيلة لمتونة , ولما توفي في مواجهته لملك غانة تخلت لمتونة عن الزعامة و خلفه صهره (حسب بن ابي زرع) يحي بن إبراهيم الجدالي زعيم قبيلة جدالة في نفس السنة .[2]

بعدما توفي أبو عبد الله مُحَمَّد بن تيفاوت زعيم قبيلة لمتونة و تفكك وحدته التي أقامها مع قبائل صنهاجة الجنوب للوقوف في وجه التهديدات المحيطة بهم , خلفه زعيم قبيلة جدالة (و التي تعتبر من أكبر قبائل الملثمين الى جانب قبيلة لمتونة) فزعيم جدالة يحي بن إبراهيم يعتبر واضع النواة الأولى لفكرة وحدة الملثمين فأساس فكرته أن تكون على أساس ديني إسلامي ومعه بقية الأسس الأخرى سياسية اقتصادية ...., خاصة و أن الأمير قد رأى أن الجهل و الطبقية انتشرت في قومه , فولى ابنه إبراهيم على رأس صنهاجة و قصد الحج و التعلم و التفقه في الدين عام 429 هـ , و هو ناو على تغيير وضع معتقدات قومه الفاسدة الى معتقدات دينية إسلامية على منهج سليم و صحيح من خلال العودة بداعية من الحج يثق به لكي يعلم الملثمين أمور دينهم ويوحد صفوفهم , و أثناء رجوعه من الحج دخل القيروان و ذهب الى فقيهها أبو عمران الفاسي ليطلب منه أحد طلابه لكي يذهب معه الى موطنه و يعلم قومه و يرجعهم الى المنهج القويم – بعد أن قص عليه قصة قومه و ما انتشر فيهم من فساد في الدين و الأخلاق- و بعد أن اختبره الشيخ ابي عمران في الدين وجده لا يفقه شيئا الا انه صحيح النية والعقيدة و اليقين , وبعد ان نظر في أمره استشار طلبته فلم يجد من تتوفر فيه الشروط لتنفيذ المهمة كإمامة بلغة البربر وتحمل قساوة الصحراء ...., فبعث بكتاب يحمله الأمير الجدالي لتلميذه في سجلماسة " وجاج بن زلوا للمطي " ليختار له أحد طلبته يكون جديرا بالمهمة و تتوفر فيه الشروط اللازمة للنجاح في هذه المهمة .[3]

---

[1]- احمد محمود حسن , مرجع سابق , ص 72-73.

[2]- ابن أبي زرع , مصدر سابق , ص 121-122 , احمد محمود حسن , مرجع سابق , ص 101-103.

[3]- أحمد حسن محمود . مرجع سابق . ص 112-113.

فلما وصل يحي بن إبراهيم الجدالي إلى الشيخ وجاج بن زلو اللمطي و قرأ كتاب شيخه أبو عمران الفاسي , فأختار له أحد تلاميذه اسمه عبد الله بن ياسين الجزولي (نسبة إلى قبيلة جزولة البربرية) , فسار مع الأمير يحي إلى تخوم الصحراء ...[1] و كان عبد الله بن ياسين فقيها شديد الورع , و لما وصل إلى قبيلة جدالة بدأ يبث تعاليم الدين و نصحهم و إرجاعهم إلى الطريق المستقيم , و يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر.[2]

وواصل الداعية عبد الله بن ياسين نشاطه في الدعوة و الإصلاح بدأ القوم يسأمون منه لما شدد عليهم عندما أمرهم بترك المنكرات فهجروه, و أرادو أن يقتلوه , فلما رأى منهم ابن ياسين الإعراض و عدم قبول ما يقول لهم أراد الرحيل إلى بلاد السودان , فلم يتركه يحي ابن إبراهيم و قال له : "هل لك في رأي أشير به عليك ؟ إن هاهنا في بلادنا جزيرة في البحر , و فيها الحلال المحض في ما لا شك فيه من أشجار البرية , و صيد البر و أصناف الطيور و الوحوش و الحوت ...., فندخل لها و نعيش فيها بالحلال , و نعبد الله ." فقا له عبد الله ابن ياسين هذا أحسن فهلم بنا ندخلها على اسم الله, فدخلها و معه سبعة نفر من جدالة , و أبتنى فيها رباط , فتسامع الناس بأخبارهم حتى اجتمع له حوالي الف رجل من صنهاجة الجنوب فسماهم المرابطين للزومهم رابطتهم.[3]

بدأ الشيخ عبد الله بن ياسين يعلم الفئة التي انضمت له تعاليم الدين و الكتاب و السنة و الوضوء و الصلاة و الزكاة ... , فلما تفقهوا و تعلموا و أدركوا أكمور دينهم جيدا , قام الشيخ فخطب عليهم و عظهم و شوقهم إلى الجنة وخوفهم من النار , و أمرهم بتقوى الله و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر , ثم دعاهم إلى الجهاد فيمن خالفهم من قبائل صنهاجة , حيث قال لهم : "يا معشر المرابطين , إنكم جمع كثير و أنتم وجوه قبائلكم , و قد أصلحكم الله و هداكم إلى صراطه المستقيم فوجب عليكم أن تشكروا نعمة الله عليكم و تخرجوا إلى أقوامكم تدعوهم إلى الله".[4]

خرج المرابطون و هم حوالي ثلاثة آلاف من رباطهم بعد أن تدربوا على القتال و دخل الإسلام بشرائعه في قلوبهم , و من حكمة بن ياسين أنه خاض بالملثمين أمر الجهاد ضد مملكة غانة إلا أنه فقد أمير الحق من المرابطين يحي ابن عمر اللمتوني الذي أستشهد و هو يحارب هذه المملكة , فأختار عبد الله بن ياسين أخاه أبوبكر بن عمر اللمتوني على رأس المرابطين , ثم أعلن الجهاد عل قبائل الملثمين الت أمهلها سبعة أيام للرجوع إلى أوامر الله و لما أبت أعلن ضدها الجهاد , و كانت قبيلة جدالة أول قيلة جاهد ضدها المرابطون خاصة و أنها نقضت العهد مع ابن ياسين بعدما أستشهد أميرها يحي بن إبراهيم , و كذلك لقرب مضاربها من نهر السنغال مقر رباط عبد الله بن ياسين , و لما أذعنت بالقوة توجه المجاهدون صوب قبيلة لمتونة أصغت و لم تعاند أو تقاوم , و بعد أن نصر الله الشيخ ابن ياسين و مجاهديه في هذه المواقع خضعت له بقي القبائل الصنهاجية كمسوفة و لمطة جزولة و غيرها.[5]

---

[1]- بن خلدون , مصدر سابق , ص 243.
[2]- محمد عبد الله بن عنان , دول الطوائف منذ قيامها في الفتح المرابطي , مكتبة الخانجي , القاهرة , ط 2, 1389ه / 1969 , ص 301.
[3]- نواف أحمد عبد الرحمان , حضارة الأندلس , الجندارية للنشر و التوزيع , الأردن ,عمان , 2015 , ص 101.
[4]- الناصري , مصدر سابق , ص 10.
[5]- ابن ابي زرع , مصدر سابق , ص 126-127, حسن أحمد محمود , مرجع سابق , ص 145.

لما وحد ابن ياسين قبائل الملثمين و أنشأ معالم دولة المرابطين ككيان سياسي لقبائل صنهاجة الجنوب على أساس قويم و ديني شعاره العدل و المساواة , و نبذ العصبية و النزاعات القبلية , و كما أسلفنا بالذكر أن الشيخ عين أبوبكر بن عمر اللمتوني خليفة لأخيه يحي بن عمر على رأس المرابطين و قلده أمور الحرب و الجهاد و قاد عدة حملات مجاهدا في سبيل الله بتوجيه من شيخه فتح عدة مناطق و أعاد الكثير من المناطق للإسلام في بلاد السوس و غيرها من البلدان.[1]

استطاع أبو بكر بن عمر اللمتوني أن يعيد الوحدة لقبائل المرابطين، ونهض إلى المهمة الكبرى التي كلفه بها شيخه ابن ياسين و أعانه فيها إبن عمه يوسف بن تاشفين , حيث زحف المرابطون إلى بلاد السوس الأقصى و قصدوا بلاد المصامدة و توغلوا فيها ،و فتحون عدة مناطق , و بايعتهم عدة قبائل في تلك المناطق.[2]

و بعد وفاة الشيخ عبد الله بن ياسين واصل أبوبكر بن عمر اللمتوني رسالة شيخه و هي نشر الإسلام , فقاد جمع المرابطين و أصبح رئيسهم و منه بدأت الدولة المرابطية التي جمعت قبائل صنهاجة الجنوب تحت راية واحدة هي دولة المرابطين.[3]

قُسِّمت القبائل المقيمة في السودان الغربي في المصادر العربية إلى فئتين: الفئة الأولى(4) تقيم في الأجزاء الشمالية على امتدادها من الغرب إلى الشرق، وحظيت باهتمام المصادر العربية، حيث قامت بتصنيفها وترتيبها حسب أهميتها السياسية والاقتصادية والعددية مع رصد مواردها الاقتصادية ونمط عيشها، ووصفت عاداتها وتقاليدها، والمعتقدات الدينية لديها، وكان يقيم في تلك المناطق عدد من القبائل السودانية منها التكرور ومن ثم الغانيون وأخيراً الكوكو في الشرق، بالإضافة إلى بعض الجيوب التي أقامت فيها بعض القبائل البربرية خصوصاً في المناطق الواقعة بين إقليمي غانة وكوكو(5)، وقد تميزت تلك القبائل السودانية بعدد من الصفات الجيدة لعل من أهمها أن بعض تلك القبائل يظهر من وصفها في المصادر العربية أنها لم تكن كلها زنجية خالصة بل كانت مهجّنة حيث كان بعضهم يوصف بالجمال مع ألوان فاتحة وشعر مُسترسل(6).

كما أكدت المصادر على أن جل أفراد القبائل السودانية الواقعة في الجزء الشمالي من السودان الغربي يسترون عوراتهم(7)، بالإضافة إلى أنها أكثر تنظيماً، وتقيم في وحدات سياسية متكاملة نسبياً، كما تميزت بأنها أكثر تقدماً وحضارة من جاراتها المقيمة في الأقاليم الجنوبية.

أما الفئة الأخرى من القبائل السودانية فقد كانت تقيم في الأقاليم الجنوبية من السودان الغربي على امتداده من الغرب إلى الشرق، حيث كانت تجاور القبائل الشمالية، وتؤكد المصادر العربية على أنّ هذه القبائل سودانية خالصة، ومن أهمها الدمدم واللملم

---

[1]- الناصري , مصدر سابق , ص 120.

[2]- محمّد عبد الله بن عنان , مرجع سابق , ص 301.

[3]- عبادة بن عبد الرحمان رضا كحيلة , المغرب في تاريخ الأندلس و المغرب , 1424هـ/2000م , ص 101.

(4) Edward William Bovill: the Golden Trade of the Moors, p51, Markus Wiener Publishers, Princeton, 1995

(5) البكري: كتاب المسالك، جـ2، ص879.

(6) البكري: كتاب المسالك ، جـ2، ص883 – الغرناطي: تحفة الألباب، ص42.

(7) الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ1، ص18،22،24،28 – ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، ص91.

والنمنم وغيرها[1]، وتناقض سابقاتها الشماليات في الصفات حيث توصف بالجهل والتخلف متمثلاً ذلك بشيوع العري بينهم وأكلهم لحوم البشر[2] مع تفشي الفواحش والإباحية بين بعض أفرادها[3]، ولذلك فقد هُمِّشت هذه الفئة في المصادر العربية فلم تنقل المصادر معلومات عنهم بالدرجة نفسها التي نالتها القبائل الشمالية من السودان الغربي.

وفي الحقيقة فالدراسات السكانية الحديثة تفترض تصنيفاً آخر للقبائل في السودان الغربي، إلا أنّ تقسيمها للقبائل يحمل في طياته بعض القواسم المشتركة مع ما هو سائد في المصادر العربية، غير أنها تتفوق عليها لأنها أكثر وضوحاً وتحديداً؛ وذلك لأن روادها قد تلقوا جل معلوماتهم من أهل البلاد خلال إقامتهم بينهم ودرسوا القبائل السودانية بدقة أكثر، كما اعتمدوا كثيراً على الروايات الشفهية المحلية لتحديد الإطار الإقليمي لكل قبيلة، لفهم طبيعة الثقافة الخاصة بكل قبيلة والتنظيم السياسي لها، وذلك ضمن المميزات اللغوية والثقافية والاجتماعية والجنسية لكل قبيلة على حده، غير أن هذه الدراسات تُركز فقط على الصورة القبلية للسودان الغربي في العصر الحالي، ولا تستطيع أن تدعي لنفسها أنها ترسم صورة للتركيب القبلي والعرقي في السودان الغربي خلال القرون التي كانت الحضارة الإسلامية مزدهرة فيها.

بادئ ذي بدء لابد من الإشارة إلى أن دارسي السلالات البشرية الإفريقية عموماً يفترضون وجود خط طولي وهمي يُقسم الأجناس البشرية في إفريقيا ثقافياً وسلالياً إلى قسمين، حيث يبدأ ذلك الخط من مصب نهر السنغال في الغرب مروراً بمدينة تنبكتو وبحيرة تشاد ومن ثم إلى الخرطوم ثم يتجه إلى الجنوب الغربي للحدود الأثيوبية حوالي خط عرض 12 درجة شمالاً، ومن ثم يسير بمحاذاة الحدود الجنوبية لأثيوبيا حتى ينتهي عند مصب نهر جوبا (Juba River) في المحيط الهندي، فالمناطق الواقعة إلى الجنوب من ذلك الخط تتصف بأنها مناطق رطبة وسكانها أهل استقرار وإقامة، والمقيمون فيها هم الزنوج الحقيقيون (True Negroes) وهم يتميزون بالبشرة السمراء والشعر الأجعد، وأنهم أهل زراعة، في حين أن المناطق الواقعة إلى الشمال منه مناطق جافة وسكانها رعاة رُحَّل لون بشرتهم فاتحة لأنهم من الجنس الحامي أو السامي[4]، مما يعني أن أي جنس زنجي يوجد إلى الشمال من ذلك الخط هم في الحقيقة مهاجرون زنوج من الجنوب[5].

تتميز معظم الأجناس البشرية في السودان الغربي ببعض الخصائص الجسمية مثل سواد البشرة، وتفلفل الشعر وطول القامة وغير ذلك من الصفات الجسمية التي اشتهر بها الزنوج الحقيقيون[6]، غير أنّ هذه المنطقة تعد من أشد المناطق في القارة الإفريقية

---

(1) الدمشقي: نخبة الدهر، ص268.

(2) العمري: مسالك الأبصار، ص77 – الدمشقي: نخبة الدهر، ص268.

(3) الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ1، ص22 – الوزان: وصف إفريقيا، جـ2، ص159-160.

(4) Seligman, C.G: Races of Africa, p30 - 31, Oxford, London, 1966 - Carlson, Lucile: Africa,s Lands and Nations, P26, Mcgraw - Hill, New York, 1967.

(5) أنور عبدالغني العقاد: الوجيز في إقليمة القارة الإفريقية، ص82، دار المريخ للنشر، الرياض، 1402هـ/1982م.

(6) أنتوني سلري: الجغرافيا الاجتماعية لإفريقيا، ص14 – 15، ترجمة إبراهيم أحمد رزقانه، مُحَمَّد جمال الدين رزقانه، دار النهضة العربية، القاهرة.
Seligman: Races of Africa, P31-32.

تعقيداً لما تحويه من سلالات بشرية متعددة[1]، ويميل كثير من دارسي الأجناس والسلالات البشرية في السودان الغربي إلى تصنيفها إلى عدد مختلف من التقسيمات سواء حسب المكان الذي تقيم فيه، أو حسب الجماعات السلالية التي تنتمي إليها، غير أنّه يمكن التوفيق بين نوعين من تلك التقسيمات وتصنيفها حسب ما يلي:-

8-الأجناس والسلالات البشرية في السودان الغربي:

مجموعة الشعوب السنغالية:

يأتي في مقدمة هذه الشعوب قبائل التكرور، وهم يقيمون على ضفتي نهر السنغال غير أنّ لهم مساكن أخرى في بعض أقاليم السودان الغربي الأخرى[2]، وإليهم تُنسب البلاد المعروفة ببلاد التكرور[3]، أما أول من أطلق عليهم هذا الاسم فهم قبائل الجلف (الولوف)، وقد أطلقت عليهم تسميات التيكلور والتاكرور، وكانوا يتكلمون اللغة الفولانية حيث لم يكن لهم لغة خاصة بهم[4]، وإن كانوا يسمون أنفسهم بـ "هال بولار – أن" التي تعني الذين يتكلمون لغة بولار[5]، ويعتقد بعض الباحثين في أصل التكرور أنهم خليط من عدة أجناس، حيث انحدر فريق منهم من فوتة السنغالية من قبائل الجلف وقبائل السرير، وانحدر فريق آخر من الحوض[6] وبلاد المغرب الأقصى ثم نزحوا جنوباً، وانحدر فريق ثالث من زنوج الفلان، فشكّلت هذه المجتمعات ما عرف باسم قبائل التكرور[7]، ومن اختلاطهم بغيرهم من أجناس السودان الغربي وغيرها نقلوا كثيراً من صفات القبائل التي احتكوا بهم[8].

وفي المناطق الشمالية من نهر السنغال أقام الجلف (wolofs) الولوف لكن قبائل الفلان والبربر دفعتهم إلى المناطق الواقعة بين نهري السنغال وغامبيا[9]، وهم يوصفون بأنهم أصحاب طبيعة خيّرة، خصهم الله بالأخلاق الحميدة والسيرة الحسنة والنجدة

([1]) السيد خالد المطري: دراسات في سكان العالم الإسلامي، ص284، نشر جامعة الملك عبدالعزيز، جده، ربيع الآخر 1405هـ/ سبتمبر 1984م.

([2])TrimingHam,: A History of Islam in west Africa, P42.

([3]) ياقوت الحموي الرومي: معجم البلدان، جـ2، ص44، تحقيق فريد عبدالعزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1410هـ/1990م.

([4]) إبراهيم علي طرخان: دولة مالي الإسلامية، ص184.

([5]) جبريل نياني: مالي والتوسع الثاني للماندانع، جـ4، ص166.

([6]) الحوض: إقليم يُمثل حالياً المنطقة الجنوبية الشرقية من موريتانيا (مُحَمَّد فال بن بابه العلوي: كتاب التكملة في تاريخ إمارتي البراكنة والتراارزة، ص26، تحقيق أحمد ولد الحسن، المؤسسة الوطنية للترجمة والتنحقيق والدراسات، بيت الحكمة، تونس، 1986م).

([7]) موريس دلافوس: دائرة المعارف الإسلامية، جـ5، ص428، مادة تكرور.

([8]) المرجع السابق، جـ5، ص428، مادة تكرور.

([9]) السيد خالد المطري: دراسات في سكان العالم الإسلامي، ص286.

والشجاعة والوفاء غير أنهم من أشد الشعوب الإفريقية سواداً[1]، أما أصلهم فإن رواياتهم الشعبية تُرجعه إلى مجموعة من قبائل الفلان والسربر والبربر والماندنجو[2].

أما المناطق الواقعة بين نهري غامبيا والسنغال إلى الجنوب من الرأس الأخضر، فقد عاشت فيها قبائل السرير (serer) بجوار قبائل التكرور حيث دخلوا تحت سيطرتهم[3].

ثانياً: قبائل الفولانيين:

قبائل الفولانيين (Filani) من أهم قبائل السودان الغربي؛ وذلك لما كان لها من تأثير كبير في تاريخ غربي إفريقيا، وهم يقيمون في مناطق متعددة منه تمتد من مصب نهر السنغال في المحيط الأطلسي غرباً وحتى أعالي نهر النيجر[4]، ولقد اختلف الباحثون حول أصلهم، فمنهم من يرى أنهم قدموا من شرقي إفريقيا[5]، بينما يفترض آخرون أنهم ينحدرون من البربر أو اليهود الذين كانوا قد حكموا غانة،وبعد الإطاحة بهم انتقلوا إلى بلاد التكرور، واختلطوا بالقبائل فيها، وقد كانوا يتحدثون بلسان إفريقي يشبه لغة السرير والجلف[6]، غير أن الفولانيين أنفسهم يرون أنهم من أحفاد عقبة بن نافع، وأن ذريته هم الذين حملوا اسم الفولانيين[7]، وفي الحقيقة فإن الذي يظهر هو أنّ الفولانيين ليسوا زنوجاً أصلاً، وإنما جاءتهم الصفات الزنجية من كثرة تنقلهم واختلاطهم بالزنوج في غربي إفريقيا، حيث خالطوا قبائل سودانية متعددة مثل السرير والجلف، ومنهم من توغل جنوباً حتى مملكة غانة حيث قبائل الماندنجو، كما رحل فريق منهم إلى الشرق حتى منحنى نهر النيجر، وهم أثناء ذلك يتوزعون بين سادة حاكمين، ورعاة متجولين[8]، وفي كثير من المناطق التي تجولوا فيها أو مروا بها خلّفوا فروعاً لهم بقيت في عدد من أقاليم السودان الغربي، ومن أهم تلك الفروع قبائل الصوصو soso التي كانت تقيم في منطقة تدعى كانياجا التابعة لمملكة غانه[9]، وذلك حسب رأى من يعدهم من الفولانيين، ويعزو بعض الباحثين تَشَتُّتَ الفولانيين في السودان الغربي إلى الفترة التي نهضت فيها مملكة مالي الإسلامية في

([1]) عبدالرحمن بن عبدالله بن عمران بن عامر السعدي: تاريخ السودان، ص78، طبعة هوداس، مطبعة بردين، انجى، 1898م.

([2]) عصمت عبداللطيف دندش: دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، ص45، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ/1988م.

([3])Seligman: Races of Africa, P35.

([4])Ibid, P96-97.

([5]) إبراهيم علي طرخان: إمبراطورية الفولانيون الإسلامية، ص96-97، مجلة كلية الأداب، جامعة الرياض (الملك سعود)، المجلد السادس، 1979م. – نبيلة حسن مُحَمَّد: انتشار الإسلام في السودان الغربي، ص87.

([6]) Fage, J.D: An Introduction to the History of West Africa, P78, Combridge, 1955.

([7]) مُحَمَّد بيلّو: إنفاق الميسور في سيرة بلاد التكرور، ص208 – 209.

([8]) حسن عيسى عبدالظاهر: الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفولاني، ص56، طبع ونشر جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1401هـ/1981م.

([9]) إبراهيم علي طرخان: إمبراطورية غانة الإسلامية، ص53، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1390هـ/1970م.

القرن السابع الهجري؛ وذلك عندما قام بعض ملوكها بطردهم من أماكنهم الأولى في إقليم التكرور، حيث تشتتوا في مناطق متعددة من السودان الغربي، إلا أنّ الكثير منهم قد استمر في النزوح إلى الشرق وذلك في قرون لاحقة[1].

ثالثاً: قبائل الماندنجو Mandingo :-

لقبائل الماندنجو أهمية كبيرة في تاريخ السودان الغربي، فبالإضافة إلى كثرتها، وتعدد فروعها، فقد كان لها تاريخ سياسي في المنطقة حيث كان لسيطرتها على أرجاء كبيرة من السودان الغربي أثر كبير في تكوين الممالك المؤثرة فيه، ويجمع بين هذه القبائل تكلمها بلغة الماند أكثر من أنْ تربطها أصول عرقية مشتركة[2]، وتقيم هذه القبائل في المناطق الممتدة بين المحيط الأطلسي غرباً ونهر النيجر شرقاً، وينتشرون في الجنوب حتى خط عرض 9 درجة شمالاً[3].

والماندنجو قبائل كثيرة تتفاوت من حيث أهميتها تبعاً لإسهامها في تاريخ السودان الغربي، وفي تكوين الأسر الحاكمة والمساهمة في صياغة أحداث المنطقة، وفيما يلي أهم تلك القبائل:-

أ - السوننك Soninke :-

تعد هذه القبيلة من أهم فروع الماندنجو، وترجع شهرتهم إلى تأسيسها أول مملكة في السودان الغربي، وقد كانت إقامتهم الأولى في الصحراء، ثم تركزوا بعد ذلك على حافتها الجنوبية فيما اشتهر باسم الساحل، وامتزجوا بالبربر والفولانيين مما غيّر بعض الشيء في ألوانهم، وجعل الجلف يطلقون عليهم سيركول أو سراكول، وتعني لديهم الرجال أو الناس الحمر[4]، وبسبب لونهم المختلف والمتميز عن بقية قبائل الماندنجو الأخرى رجَّح بعض الباحثين أنهم من أصول قوقازية قادمة من البحر المتوسط[5].

كان للسوننك عدد من العشائر الكبرى اشتهرت بينهم مثل السسيون Sisse وآل بكر Bakari والسليون Sille والدبالى Diali والساخو Sakha والكابا Kaba والدوكوري Doukoure والنياخاتي Niakhate والدياورا Diaoura ، وهذه العشائر أسر كبيرة، غير أن لهم فروع أخرى ثانوية[6].

ب - المانكا (ماندنكا) Maninka :

هذه القبائل من مجموعة القبائل المتكلمة بلغة الماند، وهي تقطن جنوب قبائل السونك[7]، في المنطقة الواقعة بين أعالي نهري السنغال والنيجر[8]، حيث الموطن الأول لكل القبائل المتحدثة بلغة الماند من الماندنجو[9]، وهم يطلقون على أنفسهم المانكا

---

(1) فيج. جي. دي: تاريخ غرب إفريقيا، ص82، ترجمة وتقديم وتعليق السيد يوسف نصر، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، 1982م.

(2) إبراهيم طرخان: دولة مالي الإسلامية، ص29.

(3)Seligman: Races of Africa, P35.

(4) إبراهيم طرخان: إمبراطورية غانة، ص18-19.

(5) السيد خالد المطري: دراسات في سكان العالم الإسلامي، ص291.

(6) إبراهيم طرخان: إمبراطورية غانة، ص20-21.

(7)Fage: An Introducton to the History of West Africa, P5.

(8)Trimingham: A History of Islam in West Africa, P60.

(9)Ibid, P.60

أو ماندنكا، وتسميتهم بالمالنك من قبل الفولانيين وغيرهم؛ هي تسمية محرفة لكلمة الماندنجو والماندنكا[1]، ويُسمون من قبل بعض جيرانهم بعدد آخر من التسميات، فهم يسمون أحياناً بالماندن Mandin ومانج Maning ومانجله Maneng وماندنج Mandeng، وقد تلقى المستعمرون هذه التسميات من القبائل التي احتكوا بها أثناء استعمارهم للسودان الغربي[2]، حيث يميل الإنجليز إلى تسميتهم الماندنجو Mandingo ، بينما يسميهم الفرنسيون بالمالنكي Malinke، ويبلغ عددهم حالياً حوالي المليون والربع، وهم ينقسمون إلى عدد من المجموعات التي استمدت اسمها من المكان الذي يقيمون فيه[3]، وقد تجاوز عدد الأسر الحاكمة منهم ثماني عشرة أسرة[4].

وتؤكد كثير من الدراسات الحديثة أن القبائل السودانية التي عُرفت في المصادر العربية باللملم هي قبائل المانكا الحالية، ويبنون تأكيدهم على أن قبائل اللملم وُجدت حيث كان المانكا، وفي المنطقة نفسها التي كانت مهداً لمملكة مالي[5].

جـ- البمبارا Bambara :-

فرع من قبائل الماندنجو يقطنون شرق عاصمة مملكة مالي الإسلامية حتى ثنية نهر النيجر، وهم يعتمدون على الزراعة، ويعيشون في قرى صغيرة، وتقيم كل أسرة في قرية مستقلة ولرؤسائها سُلطة كبيرة وقوية على أفرادها[6].

د – الديولا Dyula :

الديولا أو الجيولا وتعني في لغة السوننك والمانكا والبمبارا التاجر، وهم يقيمون على ثنية نهر النيجر وفي فولتا العليا، ويشكلون تجمعات صغيرة مهمة في أوساط المجتمعات السودانية الأخرى، وهم في الغالب من التجار[7].

رابعاً: قبائل فولتا الشمالية:-

مجموعة من القبائل تتكلم لغة تسمى الجور وتقيم شرق قبائل الماندنجو بين الصنقي في الشمال والغابات في الجنوب[8]، وهي تشمل قبائل متعددة مثل الموسى Mossi والداجومبا Dagomba والجورما Gurma والبوبو Babo[9].

([1])D.T. Niane: Sundiata an Epic of old Mali, P.85. Longman, Hong Kong, 1994.

([2]) إبراهيم طرخان: دولة مالي الإسلامية، ص27.

([3])Trimingham: Islam in West Africa, P14.

([4]) إبراهيم طرخان: دولة مالي الإسلامية، ص35،32،29.

([5]) أحمد إلياس حسين: دور فقهاء الإباضية في إسلام مملكة مالي قبل القرن الثالث عشر الميلادي، ص93، بحث ضمن كتاب بعنوان «ندوة العلماء الأفارقة ومساهمتهم في الحضارة الإسلامية»، نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بغداد، 1405هـ/1985م – أحمد الشكري: الإسلام والمجتمع السوداني، ص166.

([6]) نبيلة حسن مُحَمَّد: انتشار الإسلام في السودان الغربي، ص91.

Seligman: Races of Africa, P36.

([7]) نبيلة حسن مُحَمَّد: انتشار الإسلام في السودان الغربي، ص91 – مُحَمَّد جمال الدين السيد: انتشار الإسلام في غرب إفريقيا، ص34، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، 1974م.

([8])Fage: An Introduction to the History of West Africa, P5.

([9]) نبيلة حسن مُحَمَّد: انتشار الإسلام في السودان الغربي، ص92.

خامساً: الصنقي Songhy :-

عاش شعب الصنقي في إقليم دندي شمال مدينة بوسا على نهر النيجر، وانتشروا على طول نهر النيجر حتى مدينة تنبكتو والبحيرات الكبرى فيما وراءها شمالاً[1]، ويُحيط الغموض أصل الصنقي، فالمصادر السودانية التي أمدتنا بالصيغة العربية لاسم هذه القبيلة أو الشعب سغى وسنغى تؤكد قدوم جدهم من اليمن[2] بينما يرى بعض الباحثين أنهم جنس أفريقي، إلا أن المرجح هو أن الصنقي شعب إفريقي خليط فيه اصول شرقية فهو مُتزنج، ويحمل خصائص قوقازية نتيجة للاختلاط، وأقرب الشعوب الإفريقية شبهاً بالصنقي هم الولوف[3].

(1)Bovill: the Golden Trade of the Moors, P132.

(2) كعت: تاريخ الفتاش، ص25.

(3) إبراهيم علي طرخان: إمبراطورية صنغي الإسلامية، ص6-7، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض (الملك سعود)، المجلد الثامن، 1981م.

دولة المرابطين

يبرُزُ دورُ عبد الله بن ياسين الجَزُولي ذلك الفقيه المجاهد الذي أمضى سبعَ سنواتٍ يطلب العلمَ في الأندلس، وسنواتٍ أخرى في المغرب، ورابَطَ بجانب شيخه الفقيه الزاهد الوليّ الصالح وجّاج بن زَلُّو اللَّمطي (ت 445هـ) الذي أقام فترةً بالقيروان يتلقَّى العلمَ والفقه المالكي على يد شيخ المذهب في عصره أبي عمران الفاسي، ثم عاد ليخُطَّ طريقَه في مجال نشر الدعوة والإسلام السُّني الصحيح ومحاربة البِدَع والمبتَدعة والخوارج وغيرهم، ويؤسس رباطه الذي أطلق عليه اسمَ (دار المرابطين.(

لقد انطلق ابنُ ياسين[1] ، كما هو معلوم . من دار المرابطين[2] هذه متجهاً نحو أقاصي الصحراء رفقةَ يحيى بن إبراهيم الجُدالي أميرِ قبيلة صنهاجة ذاتِ الفروع الثلاثة الكبرى المعروفة (جُدالة ولمتونة ومَسُّوفة)، وقد كُلِّفَ بهذا الأمر. بعد اختيارٍ دقيقٍ وصائب . من شيخه وأستاذه في الدين والمذهب والورع والجهاد وجاّج اللمطي الذي إنما فعلَ ذلك امتثالاً لتوصية الشيخ الكبير أبي عمران الفاسي نزيلِ القيروان، بأن يصطفي من قِبَله رجلاً يرتضيه لتولِّي مهمة تعليم قبائل الصحراء الممتدة إلى أرض السودان أُمورَ دينهم الذي اعتنقوه من قبلُ، وتعميق فهمهم له وإصلاح عقائدهم على مذهب أهل السُّنة والجماعة. ولكن الرجل لم يقف عند مهمته الدعوية في الصحراء، وإنما تطلَّع لما هو أعظمُ وأخطرُ، فكان المؤسِّسَ الحقيقي للدولة المرابطية.

لاقى عبد الله بن ياسين كثيرًا من الصعوبات، فقد وجد أكثر الملثَّمين لا يُصَلُّون ولا يعرفون مِن الإسلام إلا اسمه، وعَمَّ الجهل عليهم، وانحرفوا عن معالم العقيدة الصحيحة، وتلوَّثت أخلاقُهم وأحكام دينهم، واصطدمت تعاليمه بمصالح الأمراء والأشراف، فثاروا عليه، وكادوا يقتلونه، إلا أنه ترك قبيلة جدالة، وانتقل إلى قبيلة لمتونة، ومِن ثَم اختار رباطه المشهور على مصب نهر السنغال، بعد انتشار صيته، وتعلُّق النَّاس به، فهرعوا إليه ليُربِّيهم، ويُنظِّمهم، ويُعلِّمهم[3]

ثم استُشهِدَ ابنُ ياسين رحمه الله في إحدى معاركه مع البرغواطيين بالمغرب الأقصى(451هـ) ، ليأخذ زمامَ صنهاجة أبو بكر بن عمر اللمتوني[4] الذي عاد إلى الصحراء رفقةَ فقيه مغربي آخر هو أبو بكر مُحَمَّد بن الحسن الحضرمي المعروف بالمرادي[1]،

---

[1] عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير بن على الجزولي, أصله من قرية "تماماناوت" في طرف صحراء غانا.

درس على فقيه السوس وجاج بن زلوا، رحل إلى الأَنْدَلُس في عهد ملوك الطوائف وأقام بها سبع سنين, واجتهد في تحصيل العلوم الإسلامية, ثم أصبح مِن خيرة طلاب الفقيه وجاج بن زلوا، فعندما طلب أبو عمران الفاسي مِن تلميذه وجاج بن زلوا أن يرسل مع يحيى بن إبراهيم فقيهًا عالمًا ديِّنًا تقيًّا مربيًّا فاضلًا، وقع الاختيار على عبد الله بن ياسين الصنهاجي الذي كان عالمًا بتقاليد قَومه، وأعرافهم، وبيئتهم، وأحوالهم.

ودخل عبدُ الله بن ياسين مع يحيى بن إبراهيم في مضارب، ومواطن، ومساكن الملَثَّمين من قبيلة جدالة في عام 430 هـ/ 1038م، فاستقبله أهلُها واستمعوا له، وأخذ يُعلِّمهم، فكان تعليمُه باللغة العربية لطلبة العلم، والإرشاد الديني للعامَّة بلهجة أهل الصحراء الأمازيغية.

[2] إن أصل هذه التسمية يعود إلى أتباع الحركة الإصلاحية التي أسسها عبد الله بن ياسين، الزعيم الرُّوحي، الذي بدأ بوضع أُسُس عقيدة حركة المرابطين، وأنشأ رباطًا لتعليم مَن الْتَفَّ حوله أُمورَ الشريعة وفروعها، فأسس حركة جهادية لنشر الدين الإسلامي، وهكذا كان رجال المرابطين يلزمون الرباط بعد كل حملة من حملاتهم الجهادية، كما كان رجالها يشدُّون اللثام (النقاب) على وجوههم، فعُرِفوا بالملثَّمين.

[3] علي محمد الصلابي: فقه التمكين عند دولة المرابطين ص16.

[4] إن يحيى بن عمر كان من المجاهدين في السودان الغربي، وقد تُوُفِّيَ في جهاده في السودان، فخلفه أخوه أبو بكر بن عمر، الذي سار في طريق أخيه معتمدًا على عبد الله بن ياسين، حتى توفي هذا الأخير سنة (451هـ/ 1059م) في حروبه مع زنادقة برغواطة في شمال المغرب الأقصىK وكان لعمر بن إبراهيم –والد يحيى بن عمر وأخيه أبي بكر– أخٌ يسمى تاشفين عَمِل في خدمة أخيه حتى مات، فخلفه ابنه يوسف، وكان شابًّا موهوبًا، فارتفع مكانه عند ابن عمه أبي بكر، وأصبح من أكبر قادة المرابطين، فبينما كان أبو بكر بن عمر يُرتِّب بناء مراكش، بَلَغَتْه أخبار مقلقة عن أهله في جنوب الصحراء، وحوض السنغال؛ لأن قبيلة جدالة اعتَدَتْ على قبيلة لمتونة، فاستغاثت به، فترك القيادة في يد ابن عمه يوسف بن تاشفين، ومضى إلى الجنوب إلى ديار المرابطين الأولى، ولما أعاد الأمور إلى ما كانت عليه عاد إلى بلاده، ووجد ابن عمه قد أحسن سياسة

فأكمل الدور الذي بدأه ابنُ ياسين في الصحراء، وعُهِدَ إلى يوسف بن تاشفين إتمامُ مهمة تمهيد الشمال الإفريقي انطلاقاً من المغرب الأقصى. وبذلك أصبح المرابطون يتحكَّمون في إمبراطورية شاسعة مُوحَّدة تمتد أُفُقياً من الحدود المصرية إلى البحر المحيط، وعَمُودياً من بلاد الأندلس إلى حدود النيجر ونهر السنغال جنوباً .

ولقد تحدَّث كثيرٌ من المؤرخين عن دور المرابطين والحاملين لواءَ دعوتهم من فقهاء ومجاهدين في نشر الإسلام بالصحراء الكبرى وما بعدها ووراءها من بلاد السودان، وقرَّر المحقِّقون منهم أن وجود الإسلام بهذه المناطق كان سابقاً لقيام أمر الملثَّمين، وهناك شواهدُ وأدلة تاريخية كثيرةٌ على ذلك[2]، وإنما عمل هؤلاء في المقام الأول، على تصحيح فهم هذا الدين وتنقية العقائد من الشوائب والانحرافات والبِدَع والخرافات بحكم كونهم من أهل السُّنة وأنصار المالكية. فدورُهم كان إصلاحياً بالأساس، وهو الدورُ الذي قاموا به وركَّزوا عليه في الشمال من بلاد المغرب الكبير كله شرقاً وغرباً حين حاربوا البرغواطيّين وغيرهم من أصحاب النِّحَل والانحراف. لكن هذا لا يمنع من القول إنهم عملوا أيضاً، بجانب حركتهم الإصلاحية، على إتمام رسالة التبليغ والدعوة في المناطق الأخرى التي لم يكن الإسلامُ قد وصلَها من قبل. ثم إن تثبيت المرابطين لقواعدهم ورباطاتهم في أعماق الصحراء ابتداءً من أُودغست، التي استولوا عليها سنة 422هـ، وغيرها من المحطّات والمدن والرِّباطات التي استقرُّوا بها.

قد أعطى لوجود الإسلام ـ بلا شك ـ دفعةً جديدة وقويَّة كانت بمثابة موجة عالية حَمَلَته إلى نقط بعيدة فيما وراء الصحراء التي كانوا سادتَهَا بلا مُنازِع، فانطلقَ داخلَ الأرض السودانية انطلاقَ السُّيول من قِمَم الجبال. وليس من قبيل الصُّدَف أن تشهد فترةُ القرن الخامس وبدايةِ السادس الهجري ـ وهو عصر المرابطين في الصحراء ـ ظهورَ ممالك سُودانية ذات طابع إسلامي وسيطرة مرابطية صحراوية جزئية أو كلية، وهي: مملكة تَكرُور على نهر السنغال التي أسلم مَلِكُها في هذا القرن واندمجت في دولة مالي الإسلامية بعد ذلك. وكانت قبائلُ أمازيغية من لَمطةَ قد تدفَّقت عليها منذ القرن السابع الميلادي (الأول الهجري) ، ثم مملكة

الدولة من بعده، وكان أبو بكر رجلًا ورعًا؛ فرأى أن ابن عمه أجدر بالحكم منه، فاتفق معه على أن يتولى يوسف قيادة دولة المرابطين، وأن يدعم ابن عمه أبا بكر بن عمر في الجهاد في غانا، وبالفعل انسحب إلى الجنوب، وقضى بقية عمره في الجهاد.

[1] أصل الحضرمي من القيروان ، وكان فقيهاً أصولياً ولغوياً وله اشتغال بعلم الاعتقادات ودخل الأندلس سنة 487هـ . وقد تولى القضاء في أزكي من بلاد الصحراء وبها توفي سنة 489هـ على الأصحِّ.، كما في التشوف للتادلي والصلة لابن بشكوال، وقال عياض في الغُنية إنه توفي سنة 487هـ وهو مناقض لما قاله ابن بشكوال عن دخوله الأندلس في هذه السنة (أي سنة 487هـ) ووفاته بعدها بسنتين. وقد كان للحضرميّ تلاميذُ بالمغرب الأقصى منهم أبو الحجاج يوسف بن موسى الكلبي الضرير الذي أخذ عنه علم الاعتقادات فكان آخر من اشتغل به في المغرب.

[2] يذكر ابن أبي دينار القيرواني في كتاب : المؤنس في أخبار إفريقية وتونسص: 43 أن عقبة بن نافع واصلَ فتوحاته إلى طرفلة ودرعة من بلاد السوس الأقصى ودخل إلى بلاد لمتونة في الصحراء ففرَّ « الناسُ أمامه لا يقوم بين يديه أحد ولا يعارضه، إلى أن بلغ إلى البحر المحيط .... فأدخل فيه قوائمَ فرسه...». وحين تحدث البكري عن مدينة غانة في القرن الخامس الهجري قال إنها كانت مقسَّمة إلى مدينتين إحداهما يسكنها المسلمون وبها اثنا عشر مسجداً، ويستعين الملكُ بعدد من الموظفين المسلمين لمعرفتهم بالكتابة. وفي أثناء حديثه عن مدينة (تَدَمَكة) العاصمة القديمة لبربر الصحراء التي ضُمَّت فيما بعد إلى دولة السُنغاي ، قال إن أهلها مسلمون. وبعضُ المؤرخين (انظر: الجوهر الثمين) يقولون إن الإسلام وصل إليها في القرن الأول الهجري. ويقول إبراهيم طرخان نقلاً عن مصادره في كتابه عن دولة مالي الإسلاميةص: 47: «لم يكن المرابطون أول من أدخل الإسلام إلى بلاد السودان الأوسط والغربي في القرن الحادي عشر الميلادي، كما هو متواتر، بل إن الإسلام وصل إلى تلك البقاع في القرن نفسه الذي ظهر فيه، وهو القرنُ السابعُ الميلادي.(...) كما أن أمبراطورية أودغست الإسلامية (...) قامت بدور كبير في نشر الإسلام منذ القرن التاسع الميلادي ..». كما أجمعت كثيرٌ من المصادر الأخرى القديمة والحديثة (كالبكري واين خلدون والقلقشندي والقزويني وغيرهم) على وجود الإسلام قديماً في مناطق من غرب أفريقيا وخاصة مناطق مالي وحَوضَي السنغال والنيجر، وفي سُنغاي وغانة، قبل القرن الخامس الهجري. وكان ملوكُها الأوائل يرفعون نسبهم إلى حمير في اليمن. وكثيرٌ من فروع البربر يرفعون نسبَهم إلى حمير اليمنية.

غانة التي أصبحت تحت سيطرة المرابطين منذ سنة 460هـ واندمجت أيضاً في دولة مالي بعد ذلك. وأخيراً دولة تُنبُكتُ التي أجمعت المصادر التاريخية على أن الذين أسسوها هم قبائل من الطوارق الملثَّمين قريباً من نهر النيجر[1].

ولم يأت القرنُ السادس الهجري حتى كانت دولةُ كانم وبُرنُو قد قامت حول بُحيرة تشاد على يد أسرة من الملثَّمين الطوارق[2]، وقد زارها ابنُ بطوطة ووجد أهلَها مسلمين ومَلكُهم يسمى إدريس[3]، ومن ممالك الملثَّمين الُمسلِمة التي زارها ابنُ بطوطة أيضاً في القرن الثامن مملكة تَكَدَّة وكان ملكُها إذ ذاك يسمى إزار، وقاضيها مغربياً يسمى إسحاق الجاناتي، وشيخُ المغاربة فيها سعيد بن علي الجزولي.. وذكر ابنُ فضل الله العُمري في المسالك ثلاث ممالك بربرية إسلامية في تلك المناطق المحاذية للسودان أصبحت أراضيها فيما بعد جزءاً منه، وهي سلطنة آهير وسلطنة نموسة وسلطنة تادَمَكَّة، ثم تتابعت الممالك الإسلامية الكبرى بعد ذلك كمملكة مالي ومملكة سُنغاي ودولة آل فودي.

إن المغاربة قاموا بدور الوسيط الذي أوصل الرسالة إلى أهل السودان الغربي، كما قاموا بدور آخر وهو رعايةُ الإسلام في تلك الديار بحكم القرب والجِوار وحماية ظهره والدفاع عن وجوده والعمل على إرساخ جذوره وتثبيت دعائمه وتصحيح مسيرته باستمرار. ولذلك فإن الحضور المغربي وتأثيره القوي كانا متميِّزَينِ عبر التاريخ عن باقي المؤثِّرات الأخرى. فأين تجلىَّ هذا الحضور والتأثير؟

من كلمات عبد الله بن ياسين المأثورة لطلابه قوله: (اخرجوا على بركة الله وأنذروا قومكم، وخوِّفوهم عقاب الله، وأبلغوهم حُجته، فإن تابوا ورجعوا إلى الحقِّ، وأقلعوا عمَّا هم عليه فخلوا سبيلهم، وأن أَبَوْا ذلك وتمادوا في غيهم، ولجُّوا في طغيانهم، استعنا بالله عليهم، وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا)[4].

لقد قامت دولة المرابطين على أساس نشر المذهب المالكي، ومحاولة بعث القوى الإسلامية، واستنهاضها، والعودة بالمجتمع الإسلامي إلى عهد السلف الصالح، واعتمدت في التمكين لنفسها على مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأعلنت على البدعة والمنكرات التي انتشرت حربا لا هوادة فيها، فحطمت دنان الخمر، وكسرت آلات الطرب، وطالبت الناس بالقيام بفروض دينهم، ولذلك لقيت دعوة المرابطين الترحيب أينما حلت، واستنجد بها الفقهاء والعلماء لتخليص البلاد من المفاسد والمظالم، وفتحت البلاد والمدن أبوابها لهؤلاء المجاهدين الذين لا يبغون من الحياة الدنيا سوى الإصلاح، وقد توسعت هذه الدولة من مبدأ الجهاد، وأعادت إلى الأذهان صورة الدولة الإسلامية أيام الخلفاء الراشدين، فعاشت من أجل الجهاد طوال فترة حكمها القصير،

---

[1] يقال إن اسم تنبكتُو (وتُكتَب قديماً بدون واو: تُنبُكتُ) مأخوذٌ من اسم امرأة عجوز كانت تقيم بالمكان الذي أنشِئت فيه هذه المدينة. ويتحدث السعدي (ص: 22) عن فترة أخرى من حكم الطوارق . وهم الملثَّمون . لمدينة تنبكت سميت بفترة دولة الطوارق ابتدأت بعام 837هـ.

[2] قبائل الملثمين التي قامت على أكتافها دولة المرابطين، كانت قبائل بدوية، ولكنها امتازت بأنها قبائل بناءة غير مخربة، فلم تكن تغير لمجرد السلب النهب، وإنما من أجل نشر عقيدة سامية، كانت تغير لكي تقوم وتصلح ما اعوج، وكان الفضل في ذلك كله راجعا إلى إمامهم الشيخ عبد الله بن ياسين، فقد أثرت فيهم الحياة العقلية الرفيعة التي مارسوها في بدء حياتهم في رباط ابن ياسين، الذي فتح عقولهم للثقافة الإسلامية، والتراث العربي، وتركت تعاليمه في نفوسهم أبلغ الأثر، فبدءوا منذ اللحظة التي وطئت فيها أقدامهم أرض بلاد المغرب، يقبلون على المدارس في شغف، فلم يتخلفوا عن الركب، ليتابعوا حياة الإغارة والعدوان، بل انكبوا على الثقافة والعلم ينهلون ويأخذون منه بنصيب وافر

[3] انظر رحلة ابن بطوطة: 4/ 275، تحقيق. التازي

[4] د. محمد عبد القادر أحمد: المسلمون في غينيا ص26.

وسخرت كل مواردها لهذا العمل، وجعلت من البلاد معسكرا ضخما تدوي فيه طبول الجهاد، وبرغم انشغالها الدائم في الجهاد، فإنها لم تغفل النواحي الاجتماعية، والحضارية في هذه البلاد، فأرست قواعد الأمن والطمأنينة بين الناس فازدهرت الحياة الاقتصادية والثقافية في أرجاء الدولة[1]. ..[2]. .

وكان لانتشار المرابطين صوب السودان في الجنوب، وامتداد سلطانهم إلى الأندلس، أن جمعت دولتهم بين المؤثرات الأندلسية والمغربية والسودانية، فألفت بين تراث هذه البلاد ذات الحضارات المختلفة، والثقافات المتباينة، فازدهرت مراكش عاصمة هذا الملك الشاسع، وبلغت أوجها، فكانت "حاضرة الدولة ومقر السلطان وكعبة القصاد، وفد إليها العلماء من كل فج لينعموا بالحياة قريبا من الأمراء، فينالوا رفدهم، وعطاءهم، وقصدها من كل فحوله، حتى أشبهت حضرة بني العباس في صدر دولتهم"[3]

ومع أن المؤثرات الأندلسية كانت موجودة في المغرب من قبل عهد المرابطين، إلا أنها لم تكن تتعدى الإقليم الشمالي، الذي انتشرت فيه المدن، ذات الماضي المجيد، في تاريخ الحضارة الإسلامية مثل فاس، لا تكاد تتخطى هذا النطاق إلى الجنوب، فلم يكن هناك تعاون أو اتفاق بين قسمي المغرب الأقصى، عقبة تحول بين المؤثرات الأندلسية، وبين أن تعم البلاد

وفي عهد المرابطين استطاعت المؤثرات الأندلسية، والمغربية بالتالي أن تتخطى جبال درن في الجنوب، موغلة في إقليم الصحراء، حتى وصلت إلى السودان، حيث الحضارة الزنجية البكر، وحيث وجدت هذه المؤثرات الأندلسية الراقية والمتقدمة من يشجعها من المرابطين، ويأخذ بيدها ويشد أزرها، ويدل على ذلك أن الأمير أبا بكر بن عمر كان يصحب معه الشيخ الفقيه أبا بكر مُحَمَّد بن الحسن الحضرمي المعروف بالمرادي[4] الذي عرف باختصاصه في علوم الاعتقادات، وهو أول من أدخلها المغرب الأقصى، ونزل أغمات وريكة، فلما عزم الأمير أبو بكر بن عمر التوجه إلى الصحراء ولاه قضاء أزكى[5] من صحراء المغرب وبقي بها إلى أن توفي عام 489 هـ/1096م.

حل الشيخ الفقيه أبو الحجاج يوسف بن موسى الكلبي الضرير محل شيخه المرادي، وكان يختلف من مراكش إلى اغمات وبعض مدن المغرب، يأخذ طلبة العلم عنه، ومنهم القاضي عياض الذي ذكره ضمن شيوخه بقوله :"قرأت عليه أرجوزته الصغرى التي ألف في الاعتقادات، وحدثني بالكبرى وبكتاب التجريد لأبي بكر المرادي شيخه، وعنه كان أكثر أخذه."

وتوفي أبو الحجاج بمراكش عام 520 هـ/ 1126 م[6].

وظهر من فقهاء المرابطين الفقيه أبو القاسم بن عذرا، وأخوه الفقيه سليمان ابن عذرا الجزولي، وكانا قد توليا أمور المرابطين الدينية بعد وفاة الشيخ عبد الله بن ياسين[7]،ومن شيوخ المرابطين الشيخ أبو مُحَمَّد برزجان بن مُحَمَّد الجزولي الضرير الذي صحب الإمام

---

[1] ابن أبي زرع : روضة القرطاس ص 157.

[2] حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص 325.

[3] عبد الواحد المراكشي، المعجب ص 164.

[4] التادلي : التشوف في رجال التصوف، رقم 11، ص 106 وانظر مقدمة كتاب السياسة للمرادي الذي حققه الدكتور سامي النشار.

[5] انظر الروض المعطار.

[6] التادلي : 2.س. من 106، الغنية، رقم 97، ص 226.

[7] القاضي عياض : ترتيب المدارك، ص ، 4 ص 780.

أبا بكر بن العربي، ثم قدم مراكش واستقر بها إلى أن مات[1].

وذكر القاضي عياض[2] الشيخ لمتاد بن نصير اللمتوني الذي بلغ منزلة كبيرة في علمه حتى أن المثل يضرب بفتياه في بلاد الصحراء، وتعظيم أمرها."

ومنهم أيضا أبو عبد الله الملك مروان اللمتوني الذي ذكره صاحب التشوف في عداد الأولياء والزهاد[3]

وكان بعض الأمراء الذين لا تمكنهم الظروف من الالتحاق بالمدارس والاختلاف إلى مجالس العلم، والعلماء، يرسلون في طلب أعلام الفقهاء والعلماء إلى قصورهم، فيجلسون إليهم، ويأخذون العلم عنهم، ويتفقهون في الدين على أيديهم، فذكر عن الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين أنه كان يرسل في طلبه الفقيه الجليل الشيخ علي الصدفي[4]، ليسمع عليه الحديث وينتفع لعلمه وفضله، واتصل به الفتح بن خاقان[5]، الكاتب المشهور، وباسمه طرز كتاب قصائد العقيان.

واتخذ المرابطون العلماء لتهذيب بنيهم، فيذكر ابن خلدون[6] ذلك بقوله :"فقد نقل عنهم من اتخاذ المتعلمين لأحكام دين الله لصبيانه، والاستفتاء في فروض أعيانهم، واقتناء الأئمة للصلوات في نواديهم، وتدارس القرآن بين أحيائهم، وتحكيم حملة الفقه في نوازلهم وقضاياهم."

وكان الأمير علي بن يوسف يرسل أبناءه إلى الأندلس لتلقي العلم ويتشدد في تعلم أولاده، ويظهر ذلك من الرسائل القصيرة التى أرسلها علي بن يوسف إلى ابنه أبي بكر الذي كان يقوم على رعايته وتأديبه الطبيب الأندلسي المشهور أبو مروان بن زهر، وكان على ما يبدو أن الأمير أبا بكر لم يكن منكبا على الدرس منصرفا إلى التحصيل، مما دعا والده إلى تقريعه ونهره، يقول فيها :"كتابنا ألهمك الله رشد نفسك من حضرة مراكش – بعد وصول الوزير الجليل أبي موان ابن الوزير أبي العلاء بن زهر، محل أبينا يشكو ما يكابده ويقاسيه من تضريبك، فامسك عليك رمقك، وخذ من الأمور ما يسر، وإلا أنفذناك إلى ميورقة"[7].

وأقبل أمراء المرابطين وعمالهم على الحياة الثقافية، ينهلون منها ومن مواردها في تواضع المستفيد، لا في كبرياء الحاكمين، مثال ذلك الأمير ميمون ابن ياسين الصنهاجي الذي عني بالرواية وسماع العلم وحج البيت الحرام، وسمع منه الناس، وحدث عنه أبو القاسم بن بشكوال، وغيره وتوفي هذا الأمير 530 هـ - 1106م[8].

---

[1] التادلي المصدر السابق، ص 267.

[2] القاضي عياض : المصدر السابق ، ص 780.

[3] التادلي: المصدر السابق ، ص238.

[4] كان إماما مشهورا في العلوم من حديث وفقه، وولي القضاء في عدة أماكن وقصده الناس لأخذ العلم عنه حتى وفاته 514 هـ.
ابن الأبار : التكملة، ج1 ص 144 :146.

[5] هو أبو نصر الفتح بن خاقان صاحب كتابي مطمح الأنفس وقلائد العقيان، اتصل بملوك الطوائف فلما جاءت دولة المرابطين اتصل ببعض أمرائهم، وكانت وفاته بمراكش في أحد الفنادق وجد فيه قتيلا سنة 529 هـ/1134م.
ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3 ص 193، ابن الأبار : المعجم، رقم 275.

[6] ابن خلدون : العبر/ ج6، ص208.

[7] حسين مؤنس : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الثاني 1954، ص 68، 718.

[8] ابن الأبار، المصدر السابق رقم 1823 الصفحة 718.

وكان من أجل مظاهر تسامحهم في الاستعانة والاستفادة بمعظم الكتاب والشعراء الذين خدموا ملوك الطوائف، حتى الذين استمروا على ولائهم، وإخلاصهم لدولهم الزائلة، فشجعوا العلماء منهم، خاصة في عهد أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين[1].

وكان الفنانون والصناع يلقون من أمراء المرابطين وولاتهم الشيء الكثير من التشجيع والحماية، فعندما حضر المهندس عبد الله بن يونس الأندلسي إلى مراكش في سنة 470 هـ - 1077م، في عهد الأمير يوسف بن تاشفين ولم يكن بها إلا بستان واحد أبي الفضل مولى أمير المسلمين لأن الماء في هذه المنطقة ليس بعيد الغور، استخدم السواقي بعد أن قام بحفر آبار مربعة كبيرة من أعلى إلى أسفل، فكثرت البساتين فأكرمه الأمير يوسف طوال إقامته بمراكش[2].

وصار للتأثير الأندلسي صداه في السودان الغربي، ويظهر ذلك من شواهد القبور التي كشفت عنها في منطقة النيجر، والتي صنعت في مدين أليرية الأندلسية، إذ وجدت شواهد منها في إحدى المقابر وتحمل تاريخ 494 هـ -1100م[3] كما عثر على شواهد قبور من عهد المرابطين أيضا في منطقة النيجر الوسط، منقوشة بالعربية والإسبانية[4].

كما يبدو هذا التأثير أيضا في قصور ملوك غانة التي وصفها الإدريسي فقال :"قد أوثق بنيانه، وأحكم إتقانه، وزينت مساكنه بضروب من النقوشات والأدهان، وشمسيات الزجاج، وبنيان هذا القصر عام 510 هـ/1112م)[5].

إلا أن التأثيرات المغربية في السودان الغربي كانت أكثر وضوحا وهذا أمر طبيعي، لأن الإسلام دخل هذه البلد عن طريق المغرب، فحمل معه إلى غرب إفريقية تقاليد المغرب وثقافته "يرتدون عمائم بحنك مثل المغرب، وملبسهم شبيه بلبس المغاربة، جلباب ودراريع، بلا تفريج، وهم في ركوبهم كأنهم العرب"[6]

وكانت مدارسهم تكاد تكون مغربية صرفة، حتى طريقة الكتابة نفسها تأثرت بالطابع المغربي فالقلم العربي المستخدم هو القلم المغربي، بل لقد كانت تدرس نفس المناهج المغربية، وكانت الكتب والأدوات المتداولة، هي كتب المالكية مثل كتب القاضي عياض[7]،وموطأ الإمام مالك والمدونة الكبرى للفقيه سحنون وغيرها من كتب المالكية.

كما ظهر تأثر السودان بتعاليم ابن ياسين المالكية من التزام أمور الدين وأداء فروض الشريعة على أبعد الحدود، ومع أن الرحالة ابن بطوطة زار هذه المناطق بعد عصر المرابطين بحوالي قرنين، إلا أنه أشار إلى التزام السودان بهذه التعاليم وعلى مواظبتهم

---

[1] من هؤلاء الأدباء والكتاب، ابن القصيرة، والفتح بن خاقان، وأبو القاسم بن الجد، وأبو بكر بن مُحَمَّد المعروف بابن القيطرنة وأبو عبد الله بن أبي الخصال وأخوه أبو مروان، والكاتب المؤرخ ابن الصيرفي مؤلف كتاب "الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية".

ابن خاقان : قلائد العقيان ص 181،148175،115،109،106،104.

ابن بشكوال : الصلة رقم 1178،1149،1137.

ابن الأبار، م.س، رقم 2045،11743.

[2] الإدريسي، صفة المغرب وأرض السودان ص 67،68.

[3] حمد أحمد المغربي، موريطانيا ومشاغل المغرب الإفريقية، ص14.

[4] Bovill, E.W, The Golden Trade of the Moors, p.101, note 1.

[5] الإدريسي:م،س،ص6.

[6] القلقشندي : صبح الأعشى، ج15 ص 281.

[7] من هذه الكتب كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى، كتاب إكمال المعلم في شرح مسلم، كتاب التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة والمختلطة وكتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك وكتاب الأعلام بحدود قواعد الإسلام.

على الصلوات، والتزامهم لها في الجماعات، وضربهم أولادهم عليها، وازدحام المساجد بالمصلين، حتى إذا لم يبكر المرء بالذهاب إلى المسجد لم يجد موضعا، وحرصهم الشديد على حفظ القرآن، وتعلم الدين، ومعاقبتهم أولادهم بوضع القيود في أرجلهم لعدم حفظهم القرآن، وكانوا يستفتون الفقهاء، ويأتمرون بأمرهم، بل أن من لجأ إلى المسجد، أو دار الفقيه، أو الخطيب أمن العقاب، ولم سيتعرض له أحد بسوء[1].

ونتج عن امتزاج التقاليد الإسلامية التى نقلها المرابطون بالتقاليد الزنجية المحلية أن ظهرت تقاليد إسلامية زنجية، فترى في حياة الملوك والرعية المظاهر الإسلامية والعربية، فيذكر الإدريسي مركب ملك غانة فيقول :"ومن سيرته قربه من الناس، وعدله فيهم، وله جملة قواد، يركبون إلى قصره، في صباح كل يوم، ولكل قائد منهم طبل يضرب على رأسه، فإذا وصل إلى باب القصر سكت، فإذا اجتمع عليه جميع قواده، ركب وسار يقدمهم، ويمشي في أزقة المدينة، ودائر البلد، فمن كانت له مظلمة أو نابه أمر تصدى له، فلا يزال حاضرا بين يديه حتى يقضي مظلمته، ثم يرجع إلى قصره ويتفرق قواده، فإذا كان بعد العصر وسكن حر الشمس، ركب مرة ثانية وخرج حوله أجناده، فلا يقدر أحد على قربه، ولا إلى الوصول إليه، وركوبه كل يوم مرتين، سيرة معلومة، وهذا مشهور من عدله"[2].

فإذا كان الملك يخرج لتفقد الرعية مرتين في اليوم، فإن هذا يدل على عدله، وخشيته من وقوع الظلم على أحد، أو عدم وصل شكوى مظلوم ضعيف إليه.

وبلغ من تأثر ملوك السودان بالحضارة العربية الإسلامية أن حاولت الأسر الحاكمة أن تدعي الانتساب إلى الأصول العربية، وإلى البيت العلوي، فملك غانة كان ينسب نفسه إلى ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب[3].

واعتمد المرابطون على دعاتهم في نشر الإسلام منذ بدء دعوتهم، فكان الشيخ عبد الله بن ياسين يرسل الدعاة بعد تدريبهم في رباطه إلى القبائل الملثمة، والزنجية لترغيبهم في الإسلام، فاعتنق ملك التكرور "وارجابي بن رابيس" الإسلام على أيديهم، وطبق أحكام العقيدة الإسلامية بنجاح في مملكته، فاعتنق أهل المملكة الإسلام، وقام وارجابي بجهاد ما يليه من أهل السودان، وأرسل الدعاة لنشر الإسلام، ونجح في نشره بين أهلى سلى، وحسن إسلام ملكهم، فقام بدورهم في حركة الجهاد ونشر الدين الحنيف في البلاد المجاورة خاصة قلنبو الوثنية[4]، وتكون من التكرور دعاة للإسلام بين القبائل الولوف والفولبي والماندنجو، ونشروا المدارس الإسلامية في السودان الغربي، واستعانوا بالدعاة من المرابطين في بلاطهم لتعليمهم الشريعة والقراءة والكتابة حتى إنهم قلدوهم في ملابسهم[5].

وقد ازدادت أهمية الدور الذي يقوم به دعاة المرابطين بعد الفتوحات الكبيرة التي قاموا بها في المنطقة، فكان دعاتهم يتعقبون الجيش الفاتح لتعليم الناس قواعد الإسلام وليعملوا على تدعيم الدين، ويرجع الفضل في تحول كثير من أهالي البلاد المفتوحة إلى

---

[1] ابن بطوطة / تحفة النظار في غرائب الأمصار، ج 2 ص 193.

[2] الإدريسي :المصدر السابق، ص6.

[3] ن،م، ابن خلدون م، س/ ج5، ص 443.

[4] Ford Dary II, Agentes of Islamization, Islam is Tropical Africa

[5] البكري : م، س، ص172.50 :Ifemersis, C.C., States of the Central Sudan, p

Trimingham, I.S., A.history of islam in West Africa, p :28.

الإسلام إلى جهود الداعي منذ اللحظة الأولى التي يتعرف فيها المتحول إلى الإسلام بالعقيدة، فيسير على المبادئ القائمة على الإخاء والمساواة ومحاربة الطبقية، وكان هؤلاء الدعاة يحظون بأوفى نصيب من التقدير والاحترام. وفي بعض قبائل إفريقيا الغربية كانت كل قرية تضم دارا لاستقبالهم وضيافتهم، ويعاملون بأعظم مظاهر الاحترام والتقدير، ويحتلون بين الماندنجو مكانا أعظم شأنا، وينالون احتراما يلي احترام الملك، ويعتبر الرؤساء التابعون لغيرهم أقل منهم هيبة، وفي دول السودان الغربي التي اتخذت القرآن أساس للحكم من المسائل الدينية، تحتاج الدولة لخدماتهم، احتياجا شديدا ليفسروا لهم معاني القرآن[1].

ولضمان استمرار تأييد الكامل للدولة المرابطية المتسعة كان من الضروري خلق إدارات مركزية ذات سلطات مطلقة، يربطها بمركز الدولة اتصالات مستمرة لضمان السيطرة على أطرافها، كما كان من الضروري أيضا لضمان الولاء الكامل للدولة خوفا من نزع أي من هؤلاء الحكام الإقليميين على الاستقلال بإقليمه عن المرابطين، فكان الإسلام وحده هو الذي يستطيع أن يكفل كلا الغرضين ويحققه، فبنمو المدارس الإسلامية والمعاهد في السواد الغربي ظهرت طبقة متعلمة مثقفة تضم بعض العلماء الذين استطاعوا تنظيم إدارات الإمبراطورية، وتجارتها عل أكمل وجه، وهذه الطائفة لم تستغل مركزها أو قرابتها، وإنما استطاعت أن تشيع الأمن والنظام في إدارات الإمبراطورية المختلفة[2].

وقد بلغ إجلال الناس لشخص هؤلاء الدعاة المعلمين أنه كان لا يتعرض لهم أحد حين يجوسون خلال إمارات لا يعادي بعضها بعضا فحسب، بل يتقاتلون مع بضعهم البعض في حرب، فيحترمهم الناس مثل هذا الاحترام في القرى الوثنية التي يؤسسون فيها مدارسهم، حيث يحترمهم الناس باعتبارهم معلمي أبنائهم، وكانت هذه المدارس إليها الأطفال، فيحفظون القرآن ويتفقهون في عقائد الإسلام وشعائره، فإذا ما نجح الداعي على هذا النحو، لما له من حظ موفور فن العلم والمعرفة، فإنه لا يتوانى عن التأثير في الأهالي الذين جاء ليعيش بينهم، ويساعد على ذلك أن من عاداته وطباعه في الحياة ما يشبه عاداتهم وطباعهم في كثير من الوجوه[3]

ولعل أبرز خصائص انتشار الإسلام في بلاد السودان، انه ابتدأ بالطبقات العليا والأسر الحاكمة، ثم انتشر بعد ذلك بين الرعايا[4] ، وتوضح لنا قصة إسلام أول ملوك مالي هذه الحقيقة التي أوردها البكري[5]

ومع أنه لم يوضح اسم الملك الذي ذكره بالمسلماني، والذي أورد قصة إسلامه فقد أوضح أنه كان يوجد ببلاده أحد العلماء المسلمين الذين يقومون بالدعوة الإسلامية، وأن الإسلام لم يكن غريبا في مالي عندما أسلم هذا الملك، فلم يكتف المرابطون بتحول الإسمي للإسلام، بل أرسلوا العلماء بين القبائل السودانية لبث العقيدة الصحيحة، فنشطت حركة انتشار الإسلام في مملكة مالي الناشئة.

ولم تكتف مملكة مالي باعتناق الإسلام، والحرص على مظاهره وتكريم علمائه، وإنما أخذت تدعو له بين الوثنيين، وأخذت ترسل

---

[1] Mahoney, F., X Idwa H.O., The peoples ef Sengambia P.P 135 -136.

[2] توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام، ترجمة. حسن إبراهيم ص 391و392.

[3] Ronald, Olivar et Fage, I.D., A Shart History of Africa, p.88

[4] توماس أرنولد : م.س.ص 392.

[5] Chailley, Marcel, histoire de l'Afrique Occidental Française p.33

بدورها الدعاة لتشر الدين بين هذه القبائل، بل لقد اقترنت جميع فتوحاتها الحربية بالدعوة إلى الإسلام، يقول العمري :"وملك مالي في جهاد دائم، وغزو ملازم لمن جاوره من كفار السودان"[1].

وبعد سيطرة المرابطين على مملكة غانة تحمس ملكها لنشر الإسلام، حتى أن بعض العشائر من السوننكي تكاد تختص بالعمل في الدعوة إلى الإسلام فقط، وكلمة سوننك من أعالي نهر غمبيا استخدمها الماندنجو الوثنيون مرادفة لكلمة داعي، مما يدل على الدور الكبير الذي قام به سوننكي غانة من نشر الإسلام بعد إسلامهم،[2] وفي أغلب الأحيان كان هؤلاء الدعاة يتزوجون من أهل البلاد، ولذلك يرحب الأهالي بدخولهم في نظامهم الاجتماعي، فيتوطد نفوذهم، وتستقر أحوالهم، وهكذا تزداد مهمة الداعي سهولة، ويستطيع نشر الإسلام بينهم بيسر[3].

كما كان لبساطة التعاليم الإسلامية ووضوحها أثر كبير في جذب هذه الشعوب للإسلام، علاوة على أن العقيدة الإسلامية بسيطة لا تتطلب تجربة كبيرة للإيمان، ولا تثير في العادة مصاعب عقلية يصعب فهمهما، كما كانت خالية من المخارج والحيل النظرية اللاهوتية، فهو دين فطرة بطبيعته سهل، لا لبس فيه ولا تعقيد في مبادئه، سهل التكيف والتطبيق على مختلف الظروف، وأن وسائل الانتساب إلى الإسلام أيسر، إذ لا يتطلب من الشخص لإعلان إسلامه سوى النطق بالشهادتين حتى ينضم إلى جماعة المسلمين، كما أن الإسلام لم يفرض على القبائل الزنجية التي اعتنقت الإسلام أن تغير من نظام معيشتها أو تفكيرها الديني، إلا ما يخالف العقيدة الإسلامية[4].

وقد استمر هؤلاء الدعاة في نشاطهم حتى بعد سقوط دولة المرابطين، يعلمون في دأب ونشاط وأشار البرتغاليون الذين استعمروا بعض المناطق في غرب إفريقيا في القرن الخامس عشر والسادس عشر الميلادي أي بعد المرابطين بأكثر من ثلاث قرون إلى وجود الدعاة من صنهاجة اللثام ومن العرب الذين كان لهم أثر كبير بين التكرور والولوف والماندنجو[5].

8-الإطار الجغرافي والسياسي العام لبلاد السودان الغربي

وباستقراء المادة التي حوتها المصادر العربية يمكن تحديد الإطار الجغرافي والسياسي العام لكل إقليم، والمدن المهمة التي حوتها تلك الأقاليم التي كان من أهما ما يلي:-

---

[1] يقول البكري : عرف ملك مالي بالمسلماني، لأن بلده أجدبت عاما بعد عام، فاستسقوا بقرابينهم من البقر حتى كادوا يفنونها، وكان عندهم ضيف من المسلمين يقرئ القرآن، ويعلم السنة، فشكا إليه الملك مادهمهم من ذلك، فقال له : أيها الملك لو آمنت بالله تعالى وأقررت بوحدانيته وبمحمد عليه السلام، وأقررت برسالته، واعتقدت شرائع الإسلام كلها لرجوت لك الفرج مما أنت فيه وحل بك، وأن تعم الرحمة أهل بلدك، وأن يحسدك على ذلك من عاداك وتاواك، فلم يزل به حتى أسلم، وأخلص نيته، وأقرأه من كتاب الله ما تيسر عليه، وعلمه الفرائض والسنن ما لا يسع جهله، ثم أجله إلى ليلة الجمعة، فأمره فتطهر فيها طهرا سابغا، وألبسه المسلم ثوب قطن كان عنده، وبرزوا إلى ربوة من الأرض، فقام المسلم فصلى، والملك عن يمينه، يأتم به، فصليا من الليل ما شاء الله، والمسلم يدعو والملك يؤمن، فما انبلج الفجر إلا والله قد أعمهم بالسقي، فأمر الملك بكسر الدطاكير (أي الأصنام) وأخرج السحرة من بلاده، وصح إسلامه، وإسلام عقبه وخاصته، وأهل مملكته مشركون فسموا ملكهم منذ الوقت بالمسلماني، البكري : م، س. ص178.

[2] العمري : مسالك الأبصار، ص 507.

[3] Trimingham, I.S., Islam In West Africa, p.p 13 ,14.

[4] Froellch, I. C., Esai sur les Causes et Méthodes de L'Islamisation de l'Afrique de L'Ouest des XI siècle, p.121.

[5] Lewis, I.L., Regional review of distribution of Islam,p.16

أولاً: التكرور:-

لعل أول من أمدنا بمعلومات وافرة وقيمة عن هذا الإقليم كان البكري واصفاً إياه بأنه يمتد على معظم أرجاء نهر التكرور (السنغال)، من البحر المحيط (الأطلسي) غرباً، وشرقاً حتى مدينة سِلَى التي تبعد عن غانة العاصمة بعشرين يوماً[1]، إلا أن مصادر أخرى حددت موقع إقليم التكرور شرق إقليم كوكو، في المناطق الواقعة بينها ومملكة اليرنو في السودان الأوسط[2]، على أن هذا الاختلاف في المصادر العربية لموقع إقليم التكرور قد طال ابن خلدون أيضاً، على الرغم مما توفّر لديه من مصادر تاريخية سودانية مهمة، مع حرصه الشديد على تدوين معلومات صحيحة[3]، ويظهر أن هذا الاضطراب في تحديد موقع إقليم التكرور كان بسبب خلط تلك المصادر بين التكرور كإقليم قائم بذاته، وبين خلع اسمه على كل السودان الغربي مُمَثَّلاً بمملكة مالي الإسلامية في ذلك الوقت، ولم نجد أحداً من مؤلفي المصادر يُفيد في حل ذلك الغموض حتى عند من له علم بذلك المشكل منهم، غير أنّ الدمشقي حاول التنبيه إلى ذلك عند تتبعه لمجرى نهر غانة (النيجر)، حيث ذكر أنه يجري مدة شهرين في بلاد الكانم والتكرور، ومن ثم يجرى لمدة شهرين آخرين في بلاد سماها بلاد تكرور العبد[4]، ويظهر من ذلك أنه أراد أن يلفت النظر إلى أن المصادر لا تتفق على بلاد تكرور واحدة، بدليل وجود بلاد أخرى تحمل الاسم نفسه.

وقد قامت في إقليم التكرور مملكة إسلامية سيطرت على كل أجزائه، وتعد أول مملكة إسلامية ظهرت في السودان الغربي اتخذت من الشريعة الإسلامية دستوراً لها[5]، ويستشف من بعض المصادر في الثلث الأخير من القرن السابع الهجري اتساع إقليم التكرور، وذلك بفضل المملكة الإسلامية التي كانت قائمة فيه، نتيجة لمد نفوذها إلى مناطق جديدة لم تكن قد ضُمت إليه في القرن الخامس الهجري[6]، أما في القرن الثامن الهجري خلال ازدهار مملكة مالي الإسلامية، فقد ضُم إقليم التكرور إليها كآخر الأقاليم السودانية التي دخلت تحت سلطة مالي[7].

ثانياً: غانة:-

يعتمد هذا الإقليم على شهرته التي اكتسبها من خلال الدولة الوثنية القوية التي كانت توجد فيه، بالإضافة إلى تحكمها أو تحكم ملوكها في تجارة الذهب، وذلك مما استحث المصادر العربية للحديث عن هذا الإقليم وازدهاره منذ أواسط القرن الثاني الهجري[8]، ولقد تتابعت المصادر العربية في الحديث عن إقليم غانة، وأمدتنا بمعلومات فريدة وقيمة عن ذلك الإقليم حتى إذا جاء القرن الخامس الهجري أمدنا البكري بتفاصيل مهمة عن حدوده، بالإضافة إلى المدن التي حواها ذلك الإقليم[9]، وإذا أشحنا النظر عن بعض المدلولات المربكة الخاصة بالإقليم التي وردت في المصادر، مثل تردد كلمة أوكار في بعض المصادر، وأنه كان يقصد بها

([1]) المغرب، جـ2، ص868.

([2]) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ5، ص275.

([3]) العبر، جـ6، ص414.

([4]) نخبة الدهر، ص111.

([5])Levtzion: Mamluk Egypt and Takrur, p 183.

([6]) علي بن موسى بن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، ص27،91، تحقيق إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1970م.

([7]) ابن خلدون: العبر، جـ5، ص931.

([8]) نبيلة حسن مُحَمَّد: انتشار الإسلام في السودان الغربي، ص142.

([9]) البكري: كتاب المسالك ، جـ2، ص871-882.

بلاد غانة[1]، أو استعمالهم لفظ غانة للدلالة على اسم الشعب والملوك وكذا اسم المملكة وحاضرتها في الوقت نفسه[2]، فإننا نجد أنّ كثيراً من المصادر العربية تستفيض في أهمية هذا الإقليم، لدوره المهم في طرق القوافل التجارية، وميزته الاستراتيجية؛ كمدخل لبلاد السودان الغربي لنشر الإسلام والثقافة العربية فيه مع الاستفادة من العوائد التجارية، ويمكن تحديد إقليم غانة من خلال استقراء المادة المصدرية الخاصة به، أنه كان يمتد غرباً حتى أعالي نهر التكرور (السنغال)، وشرقاً حتى ثنية نهر غانه (النيجر)، ويُحد شمالاً بالمناطق الصحراوية التي كانت تقيم فيها القبائل البربرية جدالة ولمتونة ومسوفة[3]، أما حدوده الجنوبية فكانت تُلامس حدود إقليم مالي الشمالية، حيث قُدِّرت المسافة بين عاصمتي إقليم غانة ومالي بنحو 12 مرحلة[4].

ولقد تعرض هذا الإقليم لحركة الجهاد التي قادها المرابطون وتردد في كثير من المصادر فتحهم للمملكة التي كانت قائمة فيه وذلك سنة 469هـ/1076م[5]، ولكن صورة المملكة الإسلامية التي كانت قائمة فيه لم تهتم بها المصادر العربية كثيراً كاهتمامهم بسابقتها الوثنية، وزاد الأمر غموضاً أن الفتوحات المرابطية في ذلك الإقليم لم تنل حظها في المصادر العربية إلا من إشارات غامضة فيها كانت تمتدح دور الأمير المرابطي أبي بكر بن عمر اللمتوني[6] ومساهمته في نشر الإسلام في ذلك الإقليم حتى تم له فتح ذلك الإقليم، ومن ثم مد نفوذه حتى مناطق الذهب في الجنوب[7]، وبعد ذلك قامت في الإقليم نفسه مملكة إسلامية حملت الاسم السابق نفسه، وتردد في بعض المصادر أنها لا تقل قوة عن المملكة الوثنية[8]، ولقد استمرت هذه المملكة تتحكم في هذا الإقليم حتى جاءها غزو وثني من جهة الجنوب، وذلك من قبل مملكة الصوصو الوثنية[9] إلا أن استيلاءهم عليها لم يدم طويلاً فقد تم تحرير إقليم غانة وذلك بواسطة ملوك مالي[10]، وتُفيد رواية لدى العمري أن هذا الإقليم كان له مكانة خاصة أثناء سيطرة ملوك مالي فعند حديثه عن الأقاليم الخاضعة لمملكة مالي يجعل حاكم إقليم غانة يمتاز بوضع استثنائي، وذلك دون سائر النواب الآخرين على الأقاليم والمدن المالية الأخرى[11]، والراجح أن العمري تأثر بالصورة السابقة الموجودة في المصادر عن مملكة غانة، حيث أن أجزاء مسالكه تفيض بمعلومات عن غانة وكأنها في أوج ازدهارها ومجدها، حيث جعلها محوراً لحديثه عن كل أقاليم وممالك السودان

([1]) البكري: كتاب المسالك، جـ2، ص871 – الدمشقي: نخبة الدهر، ص240.

([2]) ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، ص98- مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص219، أبو الفدا: تقويم البلدان، ص157 – ابن خلدون: العبر، جـ6، ص412.

([3]) أحمد الشكري: الإسلام والمجتمع السوداني، 109.

([4]) مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن إدريس الأدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، جـ1، ص19، 22، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، 1409هـ/1989م.

([5]) الزهري: كتاب الجعرافية، ص125 – أبو الحسن علي بن عبدالله بن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص116، دار المنصور، الرباط، 1972م – مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص17، تحقيق سهيل زكار، عبدالقادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1399هـ/1979م – ابن خلدون: العبر،جـ6، ص413.

([6]) هو ثالث أمراء الدولة المرابطية أسندت إليه الإمارة سنة 448هـ/1065م، وقد عمل منذ ذلك التاريخ على مواصلة رسالة الدولة المرابطية الجهادية حتى قُتل في غانة سنة 480هـ/1087م، (البكري: كتاب المسالك، جـ2، ص862، 865- ابن خلدون: العبر، جـ6، ص377).

([7]) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص136.

([8]) الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ1 ص23.

([9]) ابن خلدون: العبر، جـ5، ص931.

([10]) المصدر السابق، جـ6، ص913

([11]) العمري: مسالك الأبصار، ص61.

الغربي[1]، وهذا ما جعله يتمسك بتلك الفكرة عند حديثه عن السودان الغربي، ويُبقي على نوع من المكانة الخاصة لإقليم غانة، وإلا فالشواهد التاريخية تخالف ذلك

ثالثاً: كوكو:-

برز هذا الإقليم في الجزء الشرقي من السودان الغربي من خلال شهرة أهم مدنه، لذا حمل الإقليم اسمها نتيجة لسيطرة ملوكها على كثير من المناطق الواقعة بعد المنعطف المشهور بثنية نهر النيجر[2]، ولقد ساعد موقع كوكو الاستراتيجي على نهر النيجر بالقرب من حدود بلاد السودان مع الساحل الصحراوي أن جعلها عاصمة للمملكة المحلية الناشئة، واستمر هذا الإقليم يُدار من خلال هذه المملكة حتى ضُمت إلى مملكة مالي الإسلامية أوائل القرن السابع الهجري (أواخر القرن الثالث عشر الميلادي)[3]، ولقد حمل هذا الإقليم في فترة لاحقة اسماً جديداً هو سُغي أو صنغي وهو اسم للقبيلة أو الشعب السوداني الذي كان يُقيم في المنطقة نفسها[4]، أو نتيجة لاستعمال أهل الإقليم لغة تحمل الاسم نفسه[5].

ولقد برز من خلال المصادر العربية في هذا الإقليم عدد من المدن السودانية، أهمها مدينة كوكو التي ورد اسمها في المصادر بمسميات مختلفة مثل كُوْكُوْ[6]، وقد ورد كثيراً في المصادر، ويراد به المملكة بكاملها أو المدينة، ويظهر أن تسميتها بهذا الاسم لم يكن مبنيًا على أساس عرقي، أو مستمداً من أهل البلاد، بل إن الذي يفهم من بعض المصادر أن العرب هم الذين أطلقوا عليها هذا الاسم، وذلك من سماعهم لنغمة طبول أهلها في احتفالاتهم، أو عند تعاملهم معهم في تجارتهم، وأن هذه النغمة يفهم منها كلمة كُوْكُوْ[7]، وأحياناً يرد اسم هذه المدينة بصيغ كَرَكَرْ[8] أوكاغ وهو مرادف لاسم كُوْكُوْ[9]، ويُطلق عليها أحياناً قوقو[10]، وهو اسم أطلقته إحدى القبائل البربرية المقيمة في الصحراء عليها[11]، أما محلياً فقد عُرفت هذه المدينة بجاو[12] حيث اشتق اسمها من اسم فاكهة تسمى جاءو من شجرة محلية تسمى حنام[13]، وتقع هذه المدينة بالقرب من الثنية الثانية لنهر النيجر على بُعد ستة كيلو

([1]) أحمد بن يحي بن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، جـ1 ص309، جـ2، ص244، 305، مخطوط طبع بالتصوير عن مخطوطة رقم 2/2797، أحمد الثالث، طوبقابو سراي، استانبول.

([2]) الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ1، ص28.

([3]) ابن خلدون: العبر، جـ6، ص414.

([4]) كعت: تاريخ الفتاش، ص25.

([5]) الوزان: وصف إفريقيا، جـ1، ص39.

([6]) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، جـ1، ص193، القلقشندي؛ صبح الأعشى، جـ5، ص274.

([7]) البكري: كتاب المسالك، جـ2، ص883.

([8]) علي بن الحسين بن علي المسعودي: أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، ص88، دار الأندلس، بيروت، 1386هـ/1966م.

([9]) كعت: تاريخ الفتاش، ص45.

([10]) العزناطي: تحفة الألباب، ص42.

([11]) Spencer Trimingham,: A History of Islamin West Africa, p 84, oxfrd, 1975 .

([12]) باولو فرناندو، دي مواريس فارياس: نظام تجارة تادمكة وجاو "كاوكاو" وكوكيا، ص50، مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، العدد الأول، يناير، 1981م.

([13]) المرجع السابق، ص43.

مترات منها، وهي من الحواضر السودانية القديمة[1]، كما برزت مدينة أخرى في الإقليم نفسه هي كوغة، تلك المدينة العامرة بالسكان والحركة التجارية والصناعية التي تبعد عن مدينة كوكو عشرين مرحلة إلى الجنوب[2]، على بعد 150 كيلو متر من مدينة كوكو أسفل نهر النيجر داخل الحزام الذي يفصل بين نوعين من السافانا[3]، ويظهر أن العرب هم الذين أطلقوا عليها أيضاً هذا الاسم، وذلك لأن المحليين يسمونها كوكيا حيث اشتق اسمها من كلمة جونجو Hungu في اللغة السونغية وتعني جزيرة[4]، وقد كانت هذه المدينة هي العاصمة الأولى للإقليم قبل أن تُحْجب بمدينة كُوْكُوْ [5]، مما أدى إلى أن تأخذ كُوْكُوْ طابعاً إسلامياً، وفي المقابل بقيت الأولى تحت التأثيرات الثقافية والتقاليد المحلية[6]

رابعاً: صوصو:-

لم يكن لهذا الإقليم أو المقيمين فيه أي ذكر في المصادر العربية حتى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجريين حين أمدّنا ابن خلدون بمعلومات متفرقة عنه، حيث ذكر أن هذا الإقليم يُطلق على قبيلة سودانية تحمل الاسم نفسه، وتُقيم إلى الشرق من مملكة غانة، بينها وبين إقليم مالي[7]، أما الذي يتردد في الروايات الشفوية فهو أنّ الصوصو مجموعة من القبائل المانكية، تُقيم في منطقة جبلية تدعى كوليكورو، وأنّ عاصمتهم تسمى صوصو، وهي تقع على بعد 80كم شمال باماكو عاصمة دولة مالي الحالية[8] غير أنّ المصادر العربية تربط اسم الإقليم باسم ساكنيه لا باسم العاصمة، مع إمكانية استبدال الصادين بسينين مهملتين[9]، وفي موضع آخر أشار ابن خلدون إلى أنّ الصوصو يُقيمون في غربي السودان الغربي على البحر المحيط (الأطلسي)، ويحدهم من جهة الشرق مملكة مالي[10]، ويظهر أن ابن خلدون قد اعتمد في ذلك على مصدر معاصر له، حيث أمده بمعلومات عن أماكن استقرار الصوصو الجديدة المعاصرة له، سيما أن الروايات الشفوية أكدت أنه كان للصوصو موطنان أحدهما كان إلى الشرق من إقليم غانة، أما الآخر فهو داخل إقليم التكرور، وهو الذي رحلوا إليه، بعد القضاء على مملكتهم التي كانت مزدهرة أواخر القرن الثاني عشر الميلادي[11].

على أن شهرة هذا الإقليم تعود إلى أنه بعد سقوط مملكة غانة الوثنية بأيدي المرابطين أدت تلك الأحداث إلى سلسلة من الهجرات الداخلية بين الشعوب السودانية التي كانت تحت سيطرة ملوك غانة سابقاً، وهذا مما أوجد فراغاً سياسياً في تلك المنطقة، ومن ثم أدى إلى بروز أقاليم وممالك جديدة كان الصوصو أو السوسو يشكلون أهم هذه الأقاليم والممالك التي ظهرت، وذلك

([1]) أحمد الشكري: الإسلام والمجتمع السوداني، ص102.

([2]) الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ1، ص27.

([3]) باولو فرناندو، دي ماريس فارياس: نظام تجارة تادمكة وجاو "كاوكاو" وكوكيا، ص49.

([4]) المرجع السابق، ص49.

([5]) سينيكي مودي سيسوكو: الصنغي من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر، جـ4، ص200، ضمن كتاب تاريخ إفريقيا العام، إصدار اللجنة العلمية الدولية تحرير تاريخ إفريقيا العام (اليونسكو)، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1988م.

([6]) باولو فرناندو، دي ماريس فارياس: نظام تجارة تادمكة وجاو "كاوكاو" وكوكيا، ص50.

([7]) العبر، جـ6، ص412-413.

([8]) جبريل ت. نياني: مالي والتوسع الثاني للماندانع، جـ4، ص137، ضمن كتاب تاريخ إفريقيا العام.

([9]) ابن خلدون: العبر، جـ6، ص412 - القلقشندي: صبح الأعشى، جـ5، ص273.

([10]) ابن خلدون: المصدر السابق، جـ5، ص930 - 937.

([11])Trimingham: A History of Islam in West Africa, p59.

بقيامهم بتوسيع إقليمهم على حساب الأقاليم الأخرى في غانة ومالي[1]، وعندما برزت مملكة مالي في الثلث الأول من القرن السابع الهجري (النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي) ضُم هذا الإقليم إليها، وأصبح من أوائل الأقاليم السودانية التي انضوت تحت مملكة مالي، بالإضافة إلى كل الأقاليم والمدن السودانية التي كانت تحت سيطرة الصوصو[2].

خامساً: مالي:-

على الرغم من أن إقليم مالي من أهم أقاليم السودان الغربي وبخاصة منذ القرن السابع الهجري، فإنه عند تتبع بروزه منذ أن بدأت المصادر العربية تورد عنه بعض الإشارات البسيطة نجد أن هذا الإقليم يختلف عن غيره من أقاليم السودان الغربي، ففي الوقت الذي يُلاحظ فيه الأهمية الكبرى، والمكانة الرفيعة التي نالتها أقاليم السودان الغربي الأخرى في المصادر العربية المبكرة، نجد أن المادة الإخبارية المتعلقة بإقليم مالي في المصادر حتى القرن السابع الهجري يكتنفها الغموض، حيث توحي بأنه إقليم خامل ليس له تأثير ولا توجد فيه مقومات حضارية أو اقتصادية أو سياسية، وذلك من خلال وصف القبائل المقيمة فيه بالوحشية والهمجية والكفر[3].

أما السمة الأخرى التي اقترنت بوجود هذا الإقليم فإنه على عكس جاره الشمالي إقليم غانة الذي عُرف قادته بالوثنية فقد عُرف عن قادة إقليم مالي بأنهم من السابقين إلى الإسلام[4]، وهذا ما انعكس على تاريخ الإقليم والمملكة القائمة فيه، حيث تعلَّق أهله بالإسلام وقُدِّر لملوكه أن يُعطوا مملكتهم صبغة إسلامية ظهرت ثمارها في القرنين السابع والثامن الهجريين.

ومن الدلالات المتعلقة بإقليم مالي هي أنّ المصادر العربية لم تتفق على كتابة اسم هذا الإقليم في صيغته العربية على شكل واحد إذ تورده على أوضاع مختلفة بين صوتي حرفي الميم واللام، فالمصادر المبكرة تسميه ملل[5]، في حين يسمى في مصادر أخرى ملّي[6]، ومنذ القرن الثامن الهجري شاع تسمية الإقليم والمملكة التي كانت قائمة بمالي[7]، بيد أن المصادر العربية المحلية قد أسمته ملّ[8]، والملاحظ على كل هذه الصيغ في المصادر العربية أن بعضها يبرز في فترة زمنية في بعض المصادر العربية لكن في فترة زمنية أخرى تختفي منها لتحل بدلاً منها صيغة أخرى؛ وذلك مما يوحي أنه ناشئ عن التنوع اللغوي السوداني الذي تم عن طريقه توصيل تلك الصيغ المختلفة لاسم إقليم مالي للمصادر العربية.

أما الموقع الذي شكَّلَ النواة الأولى لهذا الإقليم فهو يقع في أعالي نهري التكرور وغانة (السنغال والنيجر)، حيث كانت تُقيم فيه بعض القبائل السودانية التي استمدت اسمها من اسم الإقليم نفسه[9].

وبالرجوع للمادة المصدرية لرصد تطور هذا الإقليم والمدن التي حواها، وذلك منذ أن عرفه المؤلفون العرب نجد أن المادة المبكرة المتعلقة به لم تُفصح إلا عن اسم المملكة ملل واسم الملك ميوسى[10]، إلا أن المعطيات المصدرية عن هذه المملكة زادت

([1])NeHemia Levtzion: Ancient Ghana And Mali, p51, London, 1980.

([2])Trimingham: A History of Islam in West Africa, p59

([3]) الإدريسي: نزهة المشتاق، جـ1، ص19 – ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، ص91.

([4]) البكري: كتاب المسالك، جـ2، ص875.

([5]) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، جـ1، ص193.

([6]) الغرناطي: تحفة الألباب، ص42.

([7]) العمري: مسالك الأبصار، ص60.

([8]) كعت: تاريخ الفتاش، ص38.

([9])Trimingham: A Histroy of Islam in West Africa, p60.

([10]) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، جـ1، ص193.

وضوحاً، فأمدتنا بعض المصادر بمعلومات قيّمة في القرن الخامس الهجري عن طريق البكري، الذي أوضح أن هذا الإقليم يقع إلى الجنوب من مملكة غانة على الضفة الأخرى من النهر الذي يبدو أنه نهر النيجر أو أحد فروعه، حيث يوجد في إقليم مالي مملكتان على مساحة كبيرة اسم إحداهما دو والأخرى ملل[1]، وقد استمر في القرن اللاحق وجود مدينتين فقط في هذا الإقليم على الرغم من مساحة الإقليم الواسعة، وهذا يفهم من قول الإدريسي: "ليس في جميع أرض لملم إلا مدينتان صغيرتان"[2]، ثم جاء في مصادر لاحقة إشارات عن القبائل التي تتحكم بهذا الإقليم، وأنها تنتشر على رقعة واسعة من السودان الغربي، حيث أن هذه القبائل تقيم إلى الجنوب من مملكة غانة، أما الحدود الغربية لمالي فتجعلها بعض المصادر تمتد حتى البحر المحيط (الأطلسي) [3]، وقد يكون في هذه المصادر مبالغة في رسم موقع إقليم مالي على هذه الصورة والاتساع، مما يُوحي بأن الإدريسي قد أضاف لإقاليم مالي مناطق لم تكن واقعة فيه؛ وذلك لاهتمامه بالقبائل السودانية، عندما لاحظ وجود بعض الخصائص المشتركة بين القبائل المقيمة في إقليم مالي مع قبائل أخرى تقيم في مناطق خارج هذا الإقليم مما جعله يُضيف الجميع لإقليم مالي.

وخلال الفترة التي توسعت فيها حدود مملكة مالي الإسلامية لتشمل كثيراً من أقاليم السودان الغربي منذ القرن السابع الهجري حصل تطور في هذا الإقليم، فعند مراجعة ما ذكره ابن سعيد المغربي نلاحظ أن إقليم مالي قد اشتمل مدناً جديدة لم تذكر فيه من قبل، وهذا يتوافق تقريباً والزمن الذي بدأت فيه دولة مالي الإسلامية تأخذ شكلاً آخر، بحيث أن مؤلفي المصادر العربية أصبحوا أكثر اهتماماً بهذا الإقليم، فكلما ظهرت فيه مدينة جديدة نجد لها رصداً في هذه المصادر، فبالإضافة للمدن السابقة الموجودة في إقليم مالي تم استحداث مدن درهم ولامي اللتين تقعان على نهرين يحملان اسمي المدينتين نفسيهما، وكذا مدينة تدعى مويّه لها صبغة دينية وثنية؛ لأن معابد الإقليم كانت توجد فيها[4]، وفي الحقيقة إن هذه المدن لا تعدو كونها تجمعات بسيطة سرعان سرعان ما تلاشت في فترة لاحقة؛ ليكون ذلك فرصة لبروز مدينة أو مدن أخرى، وذلك لعدم وجود أي ذكر لتلك المدن في المصادر العربية اللاحقة.

---

(1) كتاب المسالك، جـ2، ص875.

(2) نزهة المشتاق، جـ1، ص19.

(3) نزهة المشتاق، جـ1، 17،19.

(4) كتاب الجغرافيا، ص91-92.

10- العلاقات السياسية.

ارتبطت الدولة الرستمية فى تاهرت بعلاقات دبلوماسية مع بعض الوحدات السياسية التى قامت في بلاد السودان الغربى وخاصة كوكو Kaw Kawآي جاو .Gawومصدرنا في هذا الأمر مؤرخو الإباضية، إذ يذكر الوسياني المتوفي عام471هـ/1078م في أحداث الحاكم الثاني للدولة الرستمية عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (171-208هـ/788-823م) أن ابنه أفلح عزم على السفر إلى بلاد كوكو لكن أباه صرفه عن عزمه[1]، إن تفكير أفلح في السفر كان قبل وفاة أبيه عام208هـ/823م، ومن المحتمل، أن تكون هناك وفود رسمية أوفدها الحاكم الرستمى الثاني إلى مدينة كوكو وهذا ما شجع ابنه أفلح على الطلب من أبيه السفر على رأس وفد من الدولة ، لذلك نعتقد أنّ الصلات الدبلوماسية ترجع إلى الربع الأخير من القرن الثاني الهجري /الثامن الميلادي؛ أي أن الصلات الدبلوماسية كانت متزامنة مع الصلات التجارية عبر الصحراء.

أن تفكير أفلح بن عبد الوهاب فى السفر إلى تلك البلاد بالرغم من أهوال الرحلة ومخاطرها، يؤكد على قوة العلاقة بين الطرفين وأهميتها للطرف الرستمى وقد تكون الأهمية سياسية هدفها تنمية العلاقة بين مدينة كوكو و غيرها من مدن السودان الغربى، أو اقتصادية بالحصول على تسهيلات للقوافل التجارية الإباضية المتجهة إلى تلك البلاد، بالإضافة إلي الحصول علي الذهب الذي يعد السلعة الأهم بين السلع السودانية، أو دينية بأخذ موافقة حكام المدن السودانية ليعمل دعاة المذهب الاباضى على نشر الإسلام وتعاليم المذهب

ويعتقد الباحث أن الإمام عبد الوهاب صرف ابنه أفلح عن السفر إلى مدينة كوكو خوفا عليه من تبعات السفر إلى تلك المدينة في ذلك الوقت، والمتمثلة في مخاطر عبور الصحراء، إذ علمنا أنه كان يعد ابنه لخلافته على عرش الدولة الرستمية.

وحين آل أمر الدولة الرستمية الى أفلح بن عبد الوهاب (208-258هـ/823-871م (سعى الى دعم العلاقة مع بلاد السودان، فأوفد سفارة رسمية إلى تلك البلاد، على رأسها مُحَمَّد بن عرفة الذى تولى مناصب رفيعة فى الدولة الرستمية، محملا بهدية من أفلح إلى ملك السودان، فسر هذا الملك من الوفد وهيئته وهديته[2].

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: ما اسم البلد الذي زاره مُحَمَّد بن عرفه ؟ لقد أورد ابن الصغير العديد من التفاصيل بشأن هذه السفارة لكنه لم يذكر بعض المعلومات التي لو كان ذكرها لكانت إجابة عن السؤال المطروح، لكن لابد من ربط ما أورده الوسياني من عزم أفلح السفر إلي كوكو في عهد أبيه، وبين ما أورده ابن الصغير من أن أفلح أرسل سفارة برئاسة مُحَمَّد بن عرفة إلي بلاد السودان، فالوجهة التي حددها الوسياني وهي مدينة كوكو هي الوجهة التي اتجهت إليها سفارة مُحَمَّد بن عرفة. فبعد

---

[1] الوسياني : سير أبى الربيع الوسياني، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم 9113 ح، ميكروفيلم رقم 8452 ، ص 49 ، الدرجيني : مصدر سابق ، جـ 2 ، ص 319 ، 320.

[2] ابن الصغير : اخبار الائمة الرستميين ، تحقيق مُحَمَّد ناصر ، وإبراهيم بحاز ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1986 ، ص 71 . Couq, j, : Recueil des sources árabes concemant L'Afrique occidental du VIII e au XVl é siecle (Bilad Al Sudán) Traduction et notos, paris , 1975, P56 .

فشل أفلح في إقناع أبيه بالسفر إلي كوكو، جهز بنفسه سفارة مُحَّد بن عرفه بعد أن تولي الإمامة للسفر إلي هذه المدينة.

وعلي أية حال فإن سفارة مُحَّد بن عرفة تعدّ أقدم سفارة معروفه لدينا في تاريخ الدبلوماسية بين المغرب وأفريقيا وجنوب الصحراء[1] ، وقد اهتم بها حاكم الدولة الرستمية بنفسه ولذلك أوفد لهذه المهمة شخصية مرموقة في دولته .وأخيرا كانت السفارة ناجحة مما جعل ملك السودان أي ملك كوكو يعبر عنها بما أضفاه علي الموفد إليه مُحَّد بن عرفة من عبارات الإعجاب والتقدير[2].

كما ارتبطت الدولة الزيرية الصنهاجية (362-543هـ/973-1148م)[3]، التي تولت أمر إفريقية وبلاد الزاب بعد رحيل الفاطميين ألي مصر، بعلاقات دبلوماسية مع بلاد السودان. ويشهد علي ذلك وصول هدية من تلك البلاد عام 382هـ/922م [4] في عهد الحاكم الثاني للدولة الزيرية وهو المنصور بن بلكين (373 -385هـ994-982 /م).

وهناك عدة أسئلة تطرح نفسها مع النقص الحاد في المعلومات التي قدمها ابن عذاري عن علاقة بني زيري مع بلاد السودان. السؤال الأول: من أي مدينة أو أي بلد من بلاد السودان وصلت الهدية؟ السؤال الثاني: متي بدأت العلاقة بين إفريقية وتلك البلاد، وهل بدأت مع قيام الدولة الزيرية عام 362هـ/973م؟ أما أن الزيريين ورثة الفاطميين في حكم إفريقية وبلاد الزاب ورثوا أيضا العلاقة بين الفاطميين وبلاد السودان خاصة أن الفاطميين ارتبطوا بعلاقة تجارية وثيقة مع تلك البلاد[5] أي أن العلاقة ترجع إلي فترة السيطرة الفاطمية علي بلاد المغرب 297-362هـ/909-973م؟ وإذا كان الباحث لا يستطيع الإجابة عن السؤال الأول لصمت المصادر، فإنه يعتقد إجابة عن السؤال الثاني أن العلاقة ترجع إلي فترة السيطرة الفاطمية علي بلاد المغرب. فقد كان للفاطميين نشاط تجاري مع بلاد السودان عبر الصحراء لضمان الحصول علي الذهب السوداني، ويشهد علي هذا النشاط الفاطمي التجاري عبر الصحراء نتائج الحفريات الآثارية في مدينة أودغست[6] .

واستمرت علاقة بلاد السودان مع إفريقية في العهد الزيري، إذ وصلت هدية أخري سنة 423هـ/1032م، أي في عهد دولة المعز بن باديس (406-454هـ/1016-1062م .(ويصف ابن عذاري هذه الهدية بقوله" هدية جليلة فيها رقيق كثير وأنواع من الحيوان "[7] ، والرقيق الذي وصل مع هذه الهدية يعد السلعة الثانية ذات الأهمية بعد الذهب الذى كان يجلب من

---

[1] مُحَّد الطالبي: استقلال المغرب، تاريخ افريقيا العام اليونسكو المجلد 3 ، ص 299.

[2] مُحَّد ناصر : مرجع سابق ، ص 10 ، 11 .

[3] الدولة الزيرية (362 . 543هـ / 973 . 1148م ، تأسست بعد أن عهد المعز لدين الله الفاطمى قبل رحيله إلى مصر لبلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى أن يتولى أمور إفريقية والمغرب تابعاً للفاطميين فى مصر مع المحافظة على المذهب الشيعي مذهباً رسمياً فى إفريقية والمغرب. لكن عند ما تولى المعز بن باديس عام 406هـ / 1048م أعلن الاستقلال والعودة إلى المذهب السنى المالكى . انظر: الهادى روحى ادريس : الدولة الصنهاجية ، تاريخ إفريقية فى عهد بنى زيرى ، ترجمة حمادى الساحلى ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الأولى بيروت 1992 .

[4] ابن عذاري : مصدر سابق ، جـ1 ، ص 246 .

[5] إيسيفو : التجارة والطرق التجارية، تاريخ أفريقيا العام ، اليونسكو ، 1994 ، مجلد 3، ص 437 .

[6] إيسيفو، المرجع السابق ، ص438.

[7] البيان المغرب ، جـ1 ، ص 275 .

بلاد السودان الغربي إلي بلاد المغرب[1].

واستمر التواصل الدبلوماسي بين المغرب وبلاد السودان الغربي بظهور المرابطين كقوة سياسية كبري في المغرب الأقصى والصحراء، فقد سعي المرابطون الي إقامة علاقات ودية مع بعض الممالك التي قامت في السودان الغربي مثل التكرور،[2] وغانة.

وهذا ما يؤكد على عمق الروابط التي جمعت بين إمارة التكرور والمرابطين ما ورد عند البكري من معلومات تذكر تحالف أمير التكرور –ابن ورجابي بن رابيس المتوفي عام 432هـ/1041م أول من أسلم – مع الأمير المرابطي يحيي بن عمر اللمتوني، ضد قبيلة جدالة التي خالفت عبد الله بن ياسين وذلك عام 448هـ/1057م[3]، إن هذه العلاقة تجعلنا لا نستبعد دور المرابطين في إسلام التكرور في الثلث الأول من القرن الخامس الهجري[4] .

كما ارتبط المرابطون بعلاقات سياسة ودية مع دولة غانة، ودليل ذلك ما ذكره صاحب الاستبصار من أنه اطلع علي رسالة أرسلها ملك غانة إلي يوسف بن تاشفين 500-453)هـ/1061-1107م) ولقبه فيها أمير أغمات[5] .

وهذا يعني قدم العلاقات، وأنها ترجع إلي السنوات الأولي من حكم يوسف بن تاشفين وقبل بناء مدينه مراكش[6]، التي تم البدء في بنائها طبقا لصاحب الاستبصار أيضا عام 459هـ/1067م فالمراسلة وقعت بين عامي 453هـ/1061م وعام 459هـ/1067م ،والجدير بالذكر أن علاقة المرابطين بدولة غانة ظلت ودية فلا مجال لتصديق الذين زعموا بالغزو المرابطي لدولة غانة من المؤرخين القدامى أو المحدثين[7].

ويدعم هذا الاتجاه الرافض للغزو المرابطي لغانة، المؤرخ جون هونويك Hunwick الذي ينفي دور حركه الجهاد المرابطي في الصحراء في انتشار الإسلام جنوب الصحراء كما يقول: " إن الدراسة الدقيقة للمصادر قد شككت حتي في غزوهم لغانة القديمة، ذلك الغزو الذي ذكره ابن خلدون. لهذا فإن الاتصالات السلمية، لا الجهاد هي أساس نجاح المرابطين في نشر الإسلام في جنوب الصحراء"[8] ، أما المؤرخ هيسكت Hisketi فيساير سابقه ويقول أيضا ":أصبح هناك اعتقاد وميل متزايد بأن هذا الغزو لم يحدث أبدا، وأن هاتين الدولتين كانتا دائما علي علاقة ودية. وأن المرابطين أقنعوهم بوسائل سلمية باعتناق الإسلام السني دينا لدولتهم[9] .

هكذا ارتبطت الوحدات السياسية التي قامت في السودان الغربي في جاو وتكرور وغانة بعلاقات ودية مع بعض

---

[1] الإدريسي : مصدر سابق ، ص 19 ، الشيخ الأمين عوض الله : تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربى ، مقال ضمن كتاب تجارة القوافل ودورها الحضارى ، معهد البحوث والدراسات العربية ، بغداد 1984 ، ص 88 .

[2] التكرور تقع على الضفة اليسرى لنهر السنغال ، وهي بذلك تقابل على الضفة اليمني مجال انتشار قبيلة جدالة الصنهاجية. اسلم ملكها ورجابي بن رابيس فى اوائل القرن الخامس الهجرى. وإليها تتجه قوافل المغرب الأقصى بينها وبين سجلماسة أربعون يوماً . انظر : البكرى : مصدر سابق ، ص 172، الأدريسي: مصدر سابق، ص18.

[3] المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، ص 172،168،167 ، Adam, Ba, K: op . cit , P 9 .

[4] أحمد الشكرى : المجتمع السوداني ، ص 95 .

[5] مجهول : الاستبصار ، ص 219 ، Adam , Ba, K: op: cit, P10

[6] مدينة مراكش مدينة أختطها يوسف بن تاشفين وأصبحت من أكبر مدن المغرب الأقصى بعد أن أصبحت عاصمة للمرابطين، ومنها إلى مدينة سلا أربع مراحل . انظر الأدريسى : مصدر سابق ، جـ1، ص 233 - 236

[7] الزهرى : كتاب الجغرافية ، تحقيق محمد حاج صادق ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة بدون تاريخ، ص 135 ، إبراهيم طرخان : امبراطورية غانة الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة 1970 ، ص 51 .

[8] Hunwick : op .cit , P12 .

[9] Hiskett, M : The development Of Islam in west Africa , longman , London 1984, P 23

الوحدات السياسية التي قامت في بلاد المغرب مثل الدولة الرستمية في تاهرت، والزيرية في إفريقية وبلاد الزاب، والمرابطية في المغرب الأقصى، وكان لهذه الرابطة أكبر الأثر في تدفق العناصر البشرية من بلاد المغرب إلي تلك الوحدات السياسية التي قامت في السودان الغربي.

وعلى غرار المرابطين، استمرت العلاقات المغربية السودانية على عهد الموحدين، يشهد على ذلك الرسالة التي أرسلها والي سجلماسة (في مطلع القرن 13م) لملك غانة بشأن تيسير ظروف التجارة ما بين المملكتين، ونصها كما احتفظ به المؤرخ التلمساني أحمد المقري:" نحن نتجاور بالإحسان وإن تخالفنا في الأديان، ونتفق على السيرة المرضية، ونتألف على الرفق بالرعية، ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة، والجور لا تعانيه إلاّ النفوس الشريرة الجاهلة. فقد بلغنا احتباس مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده. وتردد الجلاّبة إلى البلد مفيد لسكانها ومعين على التمكّن من استيطانها، ولو شئنا لاحتبسنا من في جهتنا من أهل تلك الناحية، لكن لا نتصوب فعله، ولا ينبغي لنا أن ننهي عن خلق ونأتي مثله والسلام"[1].

ولعل في هذه العلاقات الطيبة التي جمعت المغرب ببلاد السودان وقتئذ، ما حفز البلاط الموحدي على استقطاب أحد أدباء مملكة كانم (الواقعة على الحافة الشمالية لبحيرة التشاد)، الأديب أبي إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي، الذي دخل يوما على الخليفة الموحدي يعقوب المنصور، فأنشده مادحا:

أزَالَ حِجَابَه عنّي وعَيْنِي **** تراه من المهَابَةِ في حِجَابِ

وقَرَّبَنِي تَفَضُّلُه ولكن **** بَعُدْتُ مَهَابَةً عند اقْتِرابي[2].

[1] أحمد المقري، نفح الطيب. بيروت 1968. المجلد الثالث، ص 105

[2] أخذا عن الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. الدرالبيضاء، 1955. ج.5، ص 103

11-العلاقات الاقتصادية

من الواضح أن فهم الحركة الاقتصادية للقرن الرابع الهجري لبلاد المغرب لن يتم دون الإلمام بتطور التجارة الصحراوية وشبكة طرقها، ومهما قيل عن قدم العلاقات التجارية بين بلاد السودان وإفريقيا -جنوب الصحراء-، فإنه يصعب التسليم بوجود تجارة منتظمة بين المنطقتين قبل القرن الثاني الهجري/8م، وقد اعتبر"لمبارد"هذه المسألة "من أعظم أحداث العصر الوسيط العالي ويأسف لضياع المصادر المعاصرة التي تحدثت عنه، و لكنه ينتهي إلى التسليم بأنه منذ أواخر القرن الثاني للهجرة ارتبطت تجارة العالم الإسلامي بهذه الشبكة الجديدة من طرق القوافل والتي تشمل شبكات الشرق و بحر الروم، ففتحت أمام طرق المواصلات العامة أفق العالم السوداني بكامله. أما "موني"Mauny.R" فلا يتردد في اعتبار العرب المسلمين روادا في هذا الميدان، إذ ذكر وهو يتحدث عن الجغرافيين الذين اهتموا بإفريقيا السوداء" إن إعطاء العصر القديم فيما يخص المنطقة التي تهمنا هو صفر على وجه التقريب". ويستبعد أن يكون القدماء قد عرفوا الصحراء جنوب توات أو فزان وينتهي به البحث إلى التسليم بهذه الحقيقة، وهي أن معرفة إفريقيا جنوب الصحراء لم تكن إلاّ على يد العرب المسلمين. كما أن أهم الطرق التجارية كانت حتى تلك الحقبة، تتجه باتجاه شمال – شرق وجنوب – غرب منطلقة من الواحات المصرية ومن جنوب افريقية نحو منحى نهر النيجر مارا عبر صحراء فزان، إلاّ أنه بطل استخدامه قبل القرن الرابع الهجري لأسباب طبيعية وأمنية. وحول هذا ذكر "ابن حوقل" أن شكلت الرياح والعواصف الرملية عائقا مدمرا لغالبية القوافل المارة بهذا الاتجاه، الأمر الذي دفع إلى هجرانه والانتقال عنه إلى سجلماسة. غير أن العودة إلى هذا الطريق استؤنفت في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. وعليه، يجب أن نقف عند أهم شبكة الطرقات والمسالك التجارية التي ربطت بلاد المغرب بإفريقيا السوداء، وبخاصة خلال القرن الرابع الهجري والذي مثل قرن الانتعاش الاقتصادي عموماً من جهة، وبالتنافس والصراع لأجل التحكم في منافذ تجارة الذهب والرقيق والملح من جهة أخرى.

لعبت الصلات التجارية بين بلاد المغرب والسودان الغربي خلال الفترة الزمنية للدراسة دورا بارزا في توسيع شبكة الاتصالات بين المنطقتين، ودعم الروابط بينهما وترجع هذه الصلات إلي ما قبل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، وعلي الرغم من أن طابع وحجم الاتصالات التجارية قبل الإسلام يمثل إشكالية، إلا أن وجود اتصالات متنوعة عبر الصحراء الكبرى هو أمر مثبت من خلال سلسلة من النقوش الصخرية تظهر بها عربات تجرها الخيول. وتتبع هذه النقوش طريقا يبدأ من وادي درعه[1] Dra مرورا بإدرار Adrara) في موريتانيا الحالية لينتهي في الدلتا الداخلية لنهر النيجر. كما نجد طريقا آخر تشير إليه النقوش الصخرية يعبر الصحراء الكبرى من جنوب تونس وخليج سرت ويمر بجبال الأحجار – في الجزائر حاليا –ليصل إلي نهر النيجر نحو مدينة جاو(Gao) [2]التي تعد أقدم حواضر السودان[1].

[1] درعة مدينة قاعدتها تيومتين، يجرى بها وادى درعة ويوفر جبل درن للمدينة الحصانة ،والمدينة عامرة بها أسواق جامعة. ويقدم البكرى وصفاً للطريق الممتد من وادى درعة إلى الصحراء ثم إلى بلاد السودان. انظر : البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة بدون تاريخ ، ص 155 ، ص 163 ، 164 .

[2] مدينة جاو تقع عند بداية الثنية الثانية لنهر النيجر ، مدينة قديمة تتكون من مدينتين ، ما تزال آثارها قائمة حتى الآن . وقد أصبحت المدينة منذ القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى عاصمة صنغي ارتبطت المدينة مع إفريقية عبر طريق يمر بتادمكة. انظر : البكرى : مصدر سابق ، ص 181 ، احمد الشكرى : الإسلام والمجتمع السودانى امبراطورية مالى، المجمع الثقافى أبو ظبى، الامارات العربية 1999م ، ص 102 .

ويلاحظ انه علي تلك المحاور ذاتها كان التجار المسلمون الأوائل يتوجهون لعرض تجارتهم في بلاد السودان، كما يلاحظ انه بالقرب من نهاية تلك الطرق توجد مراكز الدول السودانية الأولي ''غانة، و جاو، و تكرور، و مالي''، مما جذب تجار بلاد المغرب إلي تلك المراكز[2].

ومن المؤكد أن ما نعرفه عن الأنشطة المغربية في السودان الغربي لا يمثل سوي اقل القليل مما جري في الواقع، فما توفره مصادرنا من معلومات لا يشبع احتياجاتنا كباحثين. لذلك فان مصادر أخري برزت أهميتها بشكل كبير تعين في رصد الصلات المبكرة بين المنطقتين تتمثل في كتب النوازل، وكتب الطبقات والتراجم، بالإضافة إلي نتائج الكشوف الآثارية.

وإذا كان الأساس المباشر للاتصال بين المنطقتين هو التجارة وتبادل السلع عبر الصحراء الكبرى التي لم تكن عائقا تحول دون الاتصال المستمر، فان القوافل التجارية المغربية كانت تقطع تلك الصحراء متجهة إلي مدن السودان الغربي ومراكزه التجارية. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: متي بدأت القوافل تعبر الصحراء؟ وبالرجوع إلي أقدم المصادر الجغرافية التي تطرقت إلي هذا الموضوع نجدها ترجع إلي أواخر القرن الثالث الهجري؛ أي التاسع الميلادي، وأول من كتب في هذا الشأن اليعقوبي المتوفى حوالي 284هـ/897م فيصف طريق القوافل من سجلماسة[3] إلي السودان ويقدر المسافة بخمسين يوما[4] ثم نجد مؤلفا آخر عاش في بلاط الفاطميين هو المهلبي الذى ألّف فيما بين سنتي366و385هـ/975 و 995م كتابا في الجغرافية وقد فقد هذا الكتاب، ولكن ياقوت المتوفى عام626هـ/1226م قد نقل عنه فقره تتعلق بمدينة أودغست Awdghast يقول: قال المهلبي ''أودغست مدينه بين جبلين في قلب البر الجنوبي بينها وبين مدينة سجلماسة، نيف وأربعون مرحلة في رمال ومفاوز علي مياه معروفة، وبها أسواق جليلة، وهي مصر من الأمصار جليل، والسفر إليها متصل من كل بلد. وأهلها مسلمون يقرأون القرآن ويتفقهون، ولهم مساجد وجماعات ''[5] .

فهل هذا يعني أن بداية الصلات التجارية بين بلاد المغرب والسودان الغربي ترجع إلي القرن الثالث الهجري، وأنها نشطت فى القرن الرابع الهجرى مما أعان على انتشار الإسلام فى أودغست؟.منطقيا ليس هناك ما يربط بين ما جاء عند اليعقوبي وبين بداية الصلات التجارية، فقد يكون اليعقوبي لم يبدأ بالحديث عن طريق القوافل بين سجلماسة وبلاد السودان إلا بعد أن اشتهر، أي بعد أن مرت عليه مده من الزمن ليست بالقصيرة[6] .

---

[1] Hunwick j,o : Les rapports intellectuals entre le Maroc et L; Afrique sub – saharienne a travers les ages, Publications de l' institut des Etudes Africaines, Rabat 1990 , P 8

[2] I bid, P 8 .

[3] سجلماسة مدينة بنيت سنة140هـ / 757م مدينة سهلية ،حولها أرياض كثيرة ،لها سور كبير له اثنا عشر بابا ، لها نمر وهي أول الصحراء ومنها يدخل إلى بلاد السودان إلى غانة. كانت عاصمة دولة بنى مدرار (140 – 297هـ / 757 – 909م) . انظر : البكرى : مصدر سابق، ص148 ، 149.

[4] كتاب البلدان ، تحقيق دي خوي،ليدن 1892 ، ص 360 .

[5] ياقوت : معجم البلدان، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت ، 1957، المجلد الأول، ص 277، 278 .

[6] حمد زنيبر: تجارة القوافل فى المغرب، بحث منشور فى كتاب تجارة القوافل ودورها الحضارى ، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد 1984 ، ص 169 .

ويدعم ما وصلنا إليه من قدم الصلات التجارية بين المنطقتين بعض الإشارات المصدرية التي تبين أنها ترجع ألي أوائل القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي. فالبكرى المتوفي 487هـ/1094م يذكر أن عبد الرحمن بن حبيب والي المغرب(130-138هـ / 747-755م) اهتم بطريق القوافل لأهميته، فأمر بحفر ثلاثة آبار علي طريق القوافل الذي يربط بين مدينة تامدلت- جنوب المغرب الاقصي- ومدينة أودغست[1] .

وتجدر الإشارة أن ما قام به هذا الوالي في بداية الثلث الثاني من القرن الثاني الهجري بإدخال تحسينات علي طريق القوافل لا يعني بدايات التبادل التجاري بين المنطقتين، بل يعني أن طريق القوافل كان معروفا قبل تولي هذا الوالي الحكم، وكانت القوافل ترتاده، وكانت تعاني مصاعب قلة المياه، لذلك حفر عبد الرحمن بن حبيب تلك الآبار الثلاثة لتسهيل تسويق منتجات المغرب في بلاد السودان مقابل استيراد الذهب والرقيق من تلك البلاد.

يضاف إلي ما سبق ما أورده المالكي المتوفى عام 438هـ/1046 م في ترجمته لسكن بن سعيد الصائغ، إذ يذكر أنه كان يقوم بعمل السلاسل النحاسية، ويقوم بطلائها بماء الذهب لتباع في بلاد السودان[2]

ولم يمدنا المالكي بأية إشارة زمنية تعين في تحديد ميلاد أو وفاة صاحب هذه الترجمة أو القرن الذي عاش فيه. وبالرجوع إلي أبي العرب تميم المتوفى 337هـ/944م والذي ترجم أيضا لهذا الصائغ يتعذر معرفة تاريخ الميلاد أو تاريخ الوفاة. لكن أبا العرب تميم يذكر أن سكنا بن سعيد الصائغ قد سمع من البهلول بن راشد[3] المتوفى عام 183هـ/799 م[4] ، وبناء علي هذا يمكن القول أن سكنا كان حيا خلال النصف الثاني من القرن الثاني الهجري تقريبا، وان الصلات بين إفريقية وبلاد السودان الغربى تعود إلي تلك الفترة الزمنية، وتؤكد هذه القرائن أن بدايات التبادل التجاري بين المنطقتين تعود إلي أوائل القرن الثاني الهجري، آي قبل أن يكتب اليعقوبي في القرن الثالث الهجري واصفا الطريق بين سجلماسة وبلاد السودان.

هكذا بدأت القوافل التجارية تجتاز الصحراء في غضون القرن الثاني الهجري. لكن نستطيع أن نستنتج من القرائن التي ذكرناها أن التجار المغاربة الذين كان لهم نشاط تجاري عبر الصحراء، كانوا علي المذهب السني. وهذا يجعلنا لا نتفق مع ما وصل إليه بعض الباحثين الذين أشاروا إلي ''أن التجار الاباضيين دخلوا إلي السودان قبل السنيين بزمن طويل، وان أوائل من اسلموا من السودانيين لم يعتنقوا الإسلام إلا بفضل جهود الدعوة التي قام بها الاباضيون''[5] والرأي الأقرب إلي الصواب هو أن التجار السنيين، والتجار الاباضيين ساهموا في التجارة عبر الصحراء خلال هذا القرن.

---

[1] المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص 156 ، 157 .

[2] رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية ، تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، الطبعة الثانية 1994 ، ص182

[3] البهلول بن راشد هو أبو عمرو كان ثقة، مجتهدا ورعا، سمع من مالك بن أنس ومن سفيان الثورى والليث بن سعد وغيرهم ، وسمع منه وحوه مشايخ إفريقية منهم سحنون وعون بن يوسف الخزاعى ويحيي بن سلام ،توفى عام 183هـ / 799م انظر : أبو العرب تميم: مصدر سابق ، ص126 . 138

[4] طبقات علماء إفريقية وتونس، تقديم وتحقيق على الشابي، ونعيم حسن، الدار التونسية للنشر ، الطبعة الثانية 1985م ، ص 198 .

[5] محمد الفاسي ، وايفان هربك: مراحل تطور الإسلام وانتشاره فى أفريقيا، تاريخ افريقيا العام ، اليونسكو 1994 ، المجلد الثالث ، ص 90

فقد أدي استقرار الاباضية علي أطراف الصحراء في واحات فزان وجبل نفوسة وغدامس ووارجلان منذ القرن الثاني الهجري إلي ارتباطهم القوي بتجارة الصحراء[1] ، ثم توسعت تجارتهم عبر الصحراء بقيام الدولة الرستمية في تاهرت[2] عام 160هـ/766م, فقد أشرفت هذه الدولة علي التجارة الصحراوية، واهتمت بها وحفرت الآبار للقوافل في الصحراء وأرسلت الجنود صحبة التجار لتأمينهم[3] ، لذلك تكون تاهرت واحدة من الأدلة الرئيسة علي قدم الاتصالات وانتظامها بين المنطقتين، وان كانت تلك الاتصالات مع مدينة جاو وليس مع غانة، فأكثر المسافرين لتجارة السودان في عهد الدولة الرستمية يتجهون الي مدينه كوكو "جاو"[4] .

وبالإضافة إلي جهود الدولة الرستمية الاباضية في التجارة عبر الصحراء، فقد ساهم الخوارج الصفرية الذين أسسوا الدولة المدرارية[5] في سجلماسة بالمغرب الأقصى عام140هـ/757م بدور هام في هذه التجارة. فهذه المدينة كانت تتجمع فيها القوافل التجارية القادمة من المشرق بالإضافة إلي أمصار المغرب، لأنها كانت مركزا تجاريا نشطا مع بلاد السودان، فكانت بمثابة ميناء صحراوي تتجمع فيه سلعتان ثمينتان مع سلع بلاد السودان هما الذهب والرقيق[6] ، وقد أفاض جغرافيو القرن الثالث والرابع والخامس للهجرة في وصف طريق القوافل الذي يربط سجلماسة ببلاد السودان[7] وان كانت التجارة التي ربطت سجلماسة ببلاد السودان ترجع إلي القرن الثاني الهجري.

علي أية حال يعد القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي بداية الصلات التجارية التي جمعت بين بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي وقد تدعمت تلك الصلات بين المنطقتين خلال القرون التالية ويشهد علي ذلك الشهادات المصدرية بالإضافة إلي نتائج الكشوف الآثارية.

تدعمت الصلات التجارية بين بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي فقد كانت القوافل المغربية تتجمع في مدينة سجلماسة نحو إدرار، وصولا إلي مدينة اودغست ثم تنطلق من المدينة الأخيرة إلي عاصمة غانة القديمة الواقعة علي ستة أيام من الجنوب الشرقي، أو تنطلق نحو المناطق الخصبة والعامرة بالسكان في وادي نهر السنغال. وقد كتب الجغرافي

---

[1] حمد ناصر: دور الإباضية فى نشر الإسلام بغرب أفريقيا ، مكتبة الضامرى للنشر والتوزيع، سلطنة عمان بدون تاريخ، ص 8 .

[2] الدول الرستمية (160 – 297هـ / 777 – 909م) ارتبط قيام هذه الدولة بمؤسسها عبد الرحمن بن رستم الفارسي الاباضى وكان حكمها فى أسرته من بعده. عاصمتها مدينة تاهرت بالمغرب الأوسط وقد أولى حكام تلك الدول النواحي الاقتصادية والعمرانية اهتماماً كبيراً ، بالرغم من القلاقل والاضطرابات الداخلية التى مرت بها الدولة . وأخيراً وضع الغزو الفاطمي الشيعي سنة 297هـ/ 909م حداً لهذه الدولة. انظر : مُحَمَّد عيسي الحريرى: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، دار القلم، الكويت ، ط3 ، 1987.

[3] مُحَمَّد ناصر : مرجع سابق ، ص 8 .

[4] الدرجيني : طبقات المشائخ بالمغرب ،تحقيق ابراهيم طلاي ،الجزائر 1974 ،ص320،319 ، حان دُفيس: التجارة والطرق التجارية فى غرب أفريقيا، تاريخ أفريقيا العام ، اليونسكو 1994 ، م3 ، ص 418 ، 419 .

[5] الدولة المدرارية فى المغرب الأقصى (140 –297هـ / 757 . 909م) اسسها الخوارج الصفوبة فى سجلماسة ، الحاكم الأول عيسي بن يزيد الأسود ثم انتقل الحكم إلى بيت أبي القاسم سمكوا، وظل وراثياً فى هذا البيت حتى سقطت على يد الفاطميين . انظر: محمود اسماعيل : الخوارج فى بلاد المغرب، دار الثقافة، الدار البيضاء ط 1 ، 1976 ، ص 112 . 148

[6] ابن حوقل : صورة الأرض ، دار صادر ، بيروت ، طبعة ليدن 1938، ص99، صالح إبراهيم الشيخلى : النشاطات التجارية العربية عبر الطريق الصحراوى الغربي حتى نهاية القرن الخامس الهجرى ، مقال فى كتاب تجارة القوافل ودورها الحضارى ، بغداد 1984 ، ص32 .

[7] انظر اليعقوبي : كتاب البلدان ، ص 360 ، ابن حوقل: مصدر سابق ، ص99 ، البكرى : مصدر سابق ، ص 148 ، 149 .

اليعقوبي يقول: ‘‘من سجلماسة لمن سلك متوجها إلي القبلة يريد ارض السودان يسير في مفازة وصحراء مقدار خمسين مرحلة ثم يصير إلي بلد يقال له غسط- يقصد اودغست- وهو وادي عامر فيه منازل، وفيه ملك لا دين له ولا شريعة، وبلاد السودان ممالكهم كثيرة’’[1].

ويتفق ما أورده اليعقوبي من معلومات عن مدينه اودغست مع نتائج الحفريات الآثارية في تلك المدينة [2] فقد أعطي تحليل بعض البقايا الفحمية بطريقة الكربون 14، أن المدينة كانت عامرة وأن تنظيم القطاع الحرفي قد تم في النصف الثاني من القرن3هـ/ النصف الثاني من القرن 9م، كما أكدت نتائج الحفريات الصلات التجارية لتلك المدينة مع إفريقية، وقد عثر علي عدد من الأقداح الزجاجية في قاع أحد الصهاريج بين شظايا الخزف قد تكون جلبت من افريقية في العهد الاغلبي في نهاية القرن 3هـ/ 9م [3].

كما وجد قدح مزخرف في إفريقية في موقع رقادة،[4] الأغلبية يشبه شكل وأبعاد الأقداح المكتشفة في تل تيغداوست المعروفة بأودغست قديما وقد ظل هذا النوع من الأقداح المزخرفة منتشرا طيلة العصر الفاطمي[5] .

وتقف هذه المكتشفات الآثارية شاهدا علي حدوث تجارة عبر الصحراء، وبالتالي قدم الصلات التجارية بين شمال الصحراء وجنوبها فهذه المكتشفات بكل تأكيد نتجت عن عملية شراء، أو بالأحرى عن عملية تبادل تجارى[6]، وتدعم المصادر المكتوبة ما انتهت إليه المصادر المادية من نتائج، إذ نعثر عند المالكي علي خبر يرجع إلي أواخر القرن الثالث الهجري يوضح حجم القوافل التجارية التي كانت تخرج من إفريقية إلي بلاد السودان الغربي وضخامتها وقد جاء فيها أن قافلة تجارية اتجهت إلي بلاد السودان تتكون من مائة جمل بأحمالها وأعوانها[7].

وتستمر الصلات التجارية بين المغرب وبلاد السودان الغربي خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وتعتمد معلوماتنا عن التجارة عبر الصحراء في هذا القرن علي ما جاء عند الونشريسي من نازلة أفتى فيها فقيه القيروان القابسي (324-403هـ/ 935-1012م)[8] ، وترجع أهمية تلك النازلة إلي أمرين: أولا: دلالتها الواقعية علي بعض أسماء الأماكن والقبائل والأنشطة البشرية

---

[1] انظر كتاب البلدان ، ص 360 Hunwick, J, O: op .cit, P9 .

[2] أجريت فى الموقع المحتمل لمدينة أودغست وهو تل تغداوست Tagdaoust الجمهورية الإسلامية الموريتانية أربع حفريات أجريت على التوالى فى السنوات 69 ، 70 ، 71 ، 1973م . وكان هذا الموقع مركزا هاماً للتبادل التجارى بين افريقيا جنوب الصحراء من جهة وبلدان المغرب والأندلس من جهة أخرى انظر : كلوديت فاتاكير: نتائج التنقيب فى حى صناعي عن مدينة أودغست ، ضمن أعمال وقائع المؤتمر التاسع للآثار الإسلامية فى الوطن الغربى والذى عقد من صنعاء عام 1980، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس ، 198 ، ص 107 . 128 .

[3] كلوديت فاتاكير: مرجع سابق ، ص 110 .

[4] مدينة رقادة تقع على بعد أربعة أميال من مدينة القيروان ،كثيرة البساتين بناها إبراهيم بن أحمد الأغلبي عام 263هـ / 878م انظر : البكرى : مصدر سابق ، ص 27 .

[5] كلوديت فاتاكير: مرجع سابق ، ص 125 .

[6] إيسيفو : التجارة والطرق التجارية، تاريخ أفريقيا العام ، اليونسكو ، 1994 ، مجلد 3، ص 429 ، 430 .

[7] رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية، جـ2، ص 102 .

[8] القابسى هو أبو الحسن على بن مُحَّد بن خلف المعافرى المعروف بأبى الحسن (324 – 403 هـ / 935 . 1012م)، الفقيه الأصولي المتكلم،الإمام فى علم الحديث وعلومه . وهو أول من أدخل رواية البخارى إلى إفريقية ، له مؤلفات منها ‘‘الممهد في الفقه’’ ، ‘‘وأحكام الديانة’’ ‘‘والملخص فى الموطأ’’ توفى بالقيروان انظر : مُحَّد بن مخلوف : شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية ، دار الفكر ، القاهرة بدون تاريخ ، ص 97 .

وخاصة التجارة، ثانيا: دلالتها علي الطريقة التي كانت تتم بها هذه الأنشطة[1]، ونص الفتوى كما يلي: ''سئل القابسي عمن دفع إلي رجل قراضا [2]، ليمضي به إلي ناحية تادمكة[3] ، وهي بلاد السودان وشهد الشهود. فسافر إلي تادمكة ومنها إلي غانة وأودغست، وتأهل هناك وولد له، وأقام أحدى عشرة سنة من يوم خروجه من البلد الذي أخذ فيه المال، وعلي هذا العامل ديون باع القاضي فيها ماله ليقسمه بين الغرماء فقام من له القيام بهذا القراض هل يضرب له مع الغرماء[4] '' .

أن عقد القراض عقد بطريقة قانونية متفق عليها وبشهادة الشهود، ولا مجال للشك في أن الوكيل كان غائبا لمدة أحد عشر عاما في بلاد السودان، وقد وافق القابسى في إجابته علي تحويل المال الذي أستلمه الوكيل وفق عقد القراض إلي دين مما يعطي صاحب القراض الحق في اقتسام العائد من بيع أملاك الوكيل مع بقية الدائنين[5].

تتناول هذه النازلة التى جرت في القرن الرابع الهجري التجارة بين بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي عبر الصحراء الكبرى، وتذكر بعض المراكز التجارية مثل تادمكة، وأودغست، وغانة. فقد كانت هذه المراكز ذات ارتباط وثيق بالتجارة عبر الصحراء، وقد ذكر البكري هذه المراكز في وصفه للطريق من سجلماسة إلي غانة[6].

كما ارتبط بالنشاط التجاري بين المنطقتين استقرار بعض المسلمين لمدة طويلة في بلاد السودان ومصاهرة أهلها، وبالتالي انتشار الإسلام بين السكان المحليين. هكذا أسهمت هذه الاتصالات المبكرة في انتشار الإسلام في غانة بفضل التأثير الطويل والسلمي للتجار المسلمين المغاربة[7] .

وفي هذا القرن أيضا نجح الفاطميون في السيطرة علي بلاد المغرب، بعد أن قضوا علي الدول المستقلة كالأغالبة، والرستميين والأدارسة، وأخيرا بنى مدرار في سجلماسة والتي كانت تعد مركزا هاما للتجارة عبر الصحراء. لذلك سيطر عليها الفاطميون نظراً لأهميتها في التحكم في التجارة الصحراوية وخاصة تجارة الذهب، ويبدو أن السيطرة علي طريق تجارة الذهب كانت – وليس الاستيلاء علي المغرب بأكمله- الهدف الرئيس لسياستهم في شمال أفريقيا[8] .

---

[1] ميشيل برت : فتويان من أواخر القرن الرابع الهجرى ، تتعلقان بالتجارة عبر الصحراء ، مقال فى مجلة البحوث التاريخية ، مركز جهاد الليبيين ، العدد الأول ، السنة الثالثة ، يناير ، 1981 ، ص 62 .

[2] القراض عقد بموجبه يدفع شخص إلى غيره نقداً ليتاجر له به على أن يكون الربح بينهما على ما يتفقان عليه وتكون الخسارة أن وقعت على صاحب المال ويسمى القراض أيضاً مضاربة انظر : معجم المصطلحات الاقتصادية فى لغة الفقهاء ، ص 223 .

[3] تادمكة أشبه بمدينة مكة ومعني الاسم هبة مكة وهى مدينة كبيرة بين جبال وشعاب وهي أحسن بناء من مدينة غانة وجاو، أهلها بربر مسلمون، والمسافة بينها وبين القيروان خمسين يوماً . انظر : البكرى: مصدر سابق ، ص 181 ، 182 .

[4] المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، حقق بأشراف محمد حجى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت بدون تاريخ ، جـ9 ص116.

[5] المصدر السابق والجزء ، ص 116 ، 117

[6] المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص149 ، 159 ، 181 ، 182 .

[7] Levizion, N : Western Maghrib and sudan, in the Cambridge History of Africe, Vol 3, Cambridge , London , 1977 , P 389 .

[8] ايفان هربك : بروز الدولة الفاطمية ، تاريخ أفريقيا العام ، اليونسكو ، م3، ص 358 .

لذلك تصدي الفاطميون للثورات التي اندلعت في مدينة سجلماسة ضد الوجود الفاطمي الشيعي، منذ الاستيلاء علي المدينة عام 297هـ/ 909م حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلي القاهرة عام 362هـ/973م[1]، ويعد العامل الاقتصادي العامل الرئيس لاشتعال تلك الثورات ضد الفاطميين، فقد احتكروا تجارة الصادر والوارد مع بلاد السودان الغربي، لذلك قاد تلك الثورات قدماء المنتفعين بتجارة القوافل الكبرى التي غدت تحت سيطرة الفاطميين [2].

وليس أدل علي كبر حجم التجارة بين مدينة سجلماسة، ومدينة أودغست في العهد الفاطمي مما شاهده ابن حوقل المتوفي 367هـ/977م حين زار مدينة أودغست وقال: لقد رأيت بأودغست صكّا فيه ذكر حقّ لأحد تجار سجلماسة علي رجل من تجار أودغست يدعى مُحَّد بن أبي سعدون باثنين وأربعين ألف دينار، وشهد عليه اثنان من الشهود[3]، وإذا كان الصك يبين حجم التجارة بين سجلماسة وبلاد السودان فإنه يوضح أيضا وسائل التعامل المالي التي استمرت هناك لفترة طويلة.

على أية حال لقد سعى الفاطميون إلي توفير إمدادات كبيرة من النقود الذهبية، لذلك يجب ألا نندهش لما بذله الفاطميون من جهود لتنظيم تجارة الذهب عبر الصحراء. ومما يؤكد ما ذهبنا إليه نتائج الحفائر التي تمت في تغدأوست أي أودغست القديمة، فقد عثر علي أوزان زجاجية تعود كلها إلي الفاطميين. وكان تاريخ وصولها إلي تغداوست متفقا مع تاريخ بلوغ مدينة أودغست أوج نشاطها التجاري وذروة نموها الحضري خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي[4]، اعتمادا علي ما كتبه المهلبي في هذا القرن عن المدينة وازدهار نموها الحضري والاقتصادي[5] .

ثم شهد القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ازدهار التجارة عبر الصحراء، اثر قيام قوة سياسية جديدة نجحت في توحيد المغرب لأقصي ومد نفوذها إلي بلاد الأندلس هي قوة المرابطين[6] ، التي وفرت ظروفا آمنة للتجارة بفضل توحيدهم لقبائل الصحراء التي سكنت في المنطقة الممتدة بين جنوب بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي، وأهم تلك القبائل لمتونة، وجدالة ومسوفة، ولمطة[7]، لقد اتحد بربر صنهاجة برغم الخلافات الداخلية من أجل التخلص والقضاء علي قبيلة مغراوة الزناتية التي كانت تسيطر علي مدن هامة علي طريق التجارة الصحراوية وهي درعة، و سجلماسة، وخلال خمس سنوات عمل المرابطون علي القضاء علي مغراوة في جنوب المغرب الأقصى من عام 446هـ/ 1054م إلي عام 451هـ/1059م[8]، فسيطر المرابطون علي سجلماسة ودرعة

---

[1] عن تورات السجلماسين ضد الحكم الفاطمي الأسباب والنتائج انظر : محمود اسماعيل : مرجع سابق ، ص 210 . 228

[2] من الدلائل الهامة على أهمية مدينة سجلماسة للفاطميين أن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله قد أرسل الكتب إلى عماله ودعائه بالمغرب والمشرق بعد أن أعاد فتحها عام 347هـ / 958م انظر : ابن حيون: المجالس والمسايرات ، ض296

[3] صورة الأرض ، ص 99 .

[4] ايسيفو : مرجع سابق ، مجلد 3 ، ص 437 .

[5] ياقوت الحموى : مصدر سابق ، ج 1 ، ص 277 ، 287 .

[6] عن المرابطين ودولتهم انظر : حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، النهضة المصرية ، القاهرة 1957، إيفان هربك وجان دفيس: المرابطون: تاريخ أفريقيا العام ، اليونسكو ، المجلد 3 ، 371 . 402

[7] ابن عذارى: البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب ودار الثقافة بيروت ، الطبعة الثالثة 1983، جـ4، ص 7 – 10.

[8] إيقان هربك وجان دفيس : مرجع سابق ، ص 383 .

عام 446هـ/1054م[1](46)، وأدت السيطرة علي سجلماسة الي سيطرة المرابطين علي المحطة النهائية الشمالية لطريق القوافل. ثم عاد المرابطون لتوجيه حملة ضد مدينة أودغست عام 446هـ/1054م[2]، فاستولوا عليها، وبذلك تحكموا في المنفذ الثاني لطرق التجارة عبر الصحراء مما كفل لهم السيطرة علي التجارة بين شمال الصحراء وجنوبها[3].

ومن خلال وصف البكري الذي كتبه في منتصف القرن الخامس الهجري يتضح أن الطريق الذي كان يربط المغرب الأقصى بالسودان الغربي يبدأ عادة من سجلماسة مارا بأودغست في الجنوب ومنتهيا بغانة [4]، والجدير بالإشارة أن هذا الطريق ارتفع شأنه بشكل كبير في هذا القرن، ويرجع السبب في ذلك الي أن الطريق الشرقي المرتبط بالمغرب الأدنى، والطريق الأوسط لهذه التجارة أيضا والمرتبط بالمغرب الأوسط، قد تعطلا بسبب هجرة القبائل الهلالية[5]، وما رافقها من اضطراب سياسي واقتصادي في المغربين الأدنى والأوسط، وقد أدى هذا إلي تعطل نشاط تجارة القوافل الصحراوية المستخدمة للطريقين الشرقي والأوسط[6].

وإذا كانت النشاطات التجارية قد توقفت في الطريقين الشرقي والأوسط بسبب تأثير الهجرة الهلالية، فإن الطريق الغربي قد ظل بعيدا عن تأثير تلك الهجرة لذلك أصبح هذا الطريق الذي يربط المغرب الأقصى بالسودان الغربي هو الطريق الرئيس للتجارة عبر الصحراء في هذا القرن.

ويمكن القول إن ظهور المرابطين كقوة جديدة في المغرب الأقصى قد ساعد علي توفير جو تجاري خال من الفوضى والاضطراب، أدي الي تنشيط الأعمال التجارية عبر طريق (سجلماسة – غانة).كما أن مرور هذا الطريق بمناجم الملح قد أعطاه أهمية تجارية كبيرة، لكون الملح أهم سلعة كانت تحمل إلي بلاد السودان لندرته هناك، ولحاجتهم إليه بحيث انه استبدل بالذهب[7]، وقد وجد في الصحراء الواقعة جنوب المغرب الأقصى منجمان للملح؛ الأول: يبعد عن سجلماسة مسيرة عشرين يوما يسمي تانتنال ومنه يتجهز بالملح إلي سجلماسة وسائر السودان[8] (53)، أما المنجم الثاني فيقع علي شاطئ البحر ''المحيط الأطلسي'' مسيرة ثلاثين يوما من أودغست ويطلق عليه أوليل ويحمل منه الملح إلي بلاد السودان أيضا [9].

وأخيرا لابد من الإشارة إلي أن التسهيلات التي قدمها الصنهاجيون المستقرون في الصحراء للقوافل التجارية المارة علي طول هذا الطريق قد ذللت بعض صعوبات الطريق، فقد تطلبت التجارة عبر الصحراء خبرة خاصة وطويلة توفرت لدي القبائل الصنهاجية

---

[1] ابن عذارى : مصدر سابق ، جـ4 ، ص 12 ، 13 .

[2] البكرى : مصدر سابق ، ص 168

[3] إيفان هربك وجان دفيس: مرجع سابق ، ص 383

[4] المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص 149 .

[5] عن الهجرة الهلالية وآثارها السياسية والاقتصادية على المغرب انظر : ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت 1968 ، المجلد السادس ، ص 27 – 48 .

[6] إيفان هربك : بروز الدولة الفاطمية ، ص 367 . 370 .

[7] البكرى : مصدر سابق ،ص 171 ، صالح إبراهيم الشيخلى : مرجع سابق، ص 36 .

[8] البكرى : مصدر سابق ، ص 171 .

[9] المصدر السابق والصفحة .

فقد عمل أفرادها كأدلاء وحماة للقوافل التجارية المارة في الصحراء، كما أن تلك القبائل الصنهاجية قد اعتادت على تزويد الرحّالة و التجار بالطعام والماء[1] .

كما تجمعت لدينا بعض المعطيات التي تؤكد استمرار الصلات التجارية بين بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. فقد اتسمت حركة التبادل بين المنطقتين بالنشاط، كما استخدمت القوافل التجارية نفس الطريق الذى استخدم في القرن الماضي؛ ذلك الطريق الذى ربط سجلماسة بغانة[2] ، كما كان هناك فرعان لهذا الطريق؛ الأول: يبدأ في الجنوب المغربى بمدينة أغمات[3] التى كان ينزل بها أعيان التجار للتجهز منها لاجتياز الصحراء الى غانة[4]، أما الثانى: فيبدأ من وادى درعة الى بلاد السودان وغانة[5]، وهذا ما دفع الادريسى إلى القول في القرن السادس الهجري "إن غانة يقصدها التجار المياسير من سائر بلاد المغرب الأقصى"[6] .

وجاء في كتاب التشوف ترجمة تبين ارتباط مدينة فاس وسائر مدن المغرب الأقصى بالتجارة مع بلاد السودان ،وصاحب الترجمة هو أبو الربيع سليمان بن عبد الرحمن الصنهاجى التلمسانى الذى استقر فى مدينة فاس وبها توفى عام 579 هـ /1179م، والذى أعطى أحد التجار المتجهين إلي بلاد السودان عددا من الأردية ليبيعها له في تلك البلاد، لكن التاجر توفى هناك، فوصلت تركته إلى مدينة فاس وبها صرة تبر قد كتب عليها للفقيه أبي الربيع[7]، كانت ثمنا للأردية التى يبدو إنة باعها في بلاد السودان

وجدير بالذكر أن القوافل التجارية المتجهة إلى بلاد السودان الغربى كانت تسافر في فصل الخريف، و تبدأ السفر في السحر الأخير ويمشون الى أن تطلع الشمس ويكثر نورها في الجو ويشتد الحر على الأرض، فيحطون أحمالهم، ويقيدون جمالهم، و ينصبون خياما تقيهم من حر الهجير وسموم القائلة، ويقيمون كذلك إلى أول وقت العصر، وحين تأخذ الشمس في الميل ناحية الغروب يرحلون ويمشون بقية يومهم إلى وقت العتمة، ويغرسون أينما وصلوا ويبيتون بقية ليلهم إلى أول الفجر الأخير، ثم يرحلون هكذا سفر التجار الداخلين إلى بلاد السودان على هذا الترتيب حتى يصلوا إلى محطتهم الأخيرة[8] .

وإذا كانت الشواهد المصدرية قد أكدت بما لا يدع مجالا للشك أن الصلات التجارية بين بلاد المغرب و بلاد السودان الغربى ترجع الى القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، فإن تلك الشواهد قد بينت أيضا أن طرق القوافل التجارية عبر الصحراء لم تبق

---

[1] البكرى ، مصدر سابق، ص 163 ، 164، صالح الشيخلى ، مرجع سابق ، 37 .

[2] الأدريسي : مصدر سابق ، ج 1 ، ص 18 .

[3] Adam , Ba, K : Les relations politiques et Culturelles entre le Maroc et le Mali a travers les ages, institut des Etudes Africaines, Rabat, 1991 , P8 .

[4] مدينة أغمات مدينتان سهليتان، احدهما تسمي أغمات ايلان والأخرى أغمات وريكة، بينهما ثمانية أميال . وساحل أغمات رباط فوز على المحيط وفيه تنزل السفن من جميع البلاد يسكن المدينة تجار مياسر يدخلون إلى بلاد السودان .انظر : البكرى : مصدر سابق ، ص 153 ، الادريسي : مصدر سابق، ج1 ، ص 232 .

[5] مجهول : الاستبصار فى عجائب الأمصار ، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشئون الثقافية العامة ، بغداد بدون تاريخ ، ص 207 ، الأدريسي : مصدر سابق ، ص 232 .

[6] مجهول : مصدر سابق ، ص 213

[7] نزهة المشتاق ، ج 1 ، ص 23 .

[8] لتادلى : التشوف إلى رجال التصوف ، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب . جامعة محمّد الخامس ، الرباط ، الطبعة الأولى 1984 ، ص 281 ، 282 .

ثابتة خلال الفترة الزمنية للدراسة و الممتدة من القرن الثاني إلى القرن السادس الهجريين، فقد كانت هناك دواعي سياسية أدت إلى تغيير القوافل لمسالكها، لكن اتجاهات القوافل بقيت ثابتة، لان المراكز التجارية السودانية مثل أودغست وغانة وتكرور وجاو ومالي لم تفقد أهميتها وإذا كانت الصلات التجارية قد ربطت بين المنطقتين فإن العلاقات الدبلوماسية قد دعمت تلك الصلات.

12- العلاقات الثقافية.

إذا كان موضوع العلاقات التجارية بين المغرب و السودان الغربي، قد أخذ حقه كاملا عند الباحثين و الدارسين و المهتمين بالعلاقات بين هذين القطرين، بفعل الهوامش الكبيرة التي يتيحها، فإن موضوع العلاقات الفكرية قد يمكن لنا أن نجزم بأنه لا يزال بكرا، و فاتحا أحضانه لكل مهتم أو باحث، و هذا بالرغم من إقرارنا أن هناك مجهودات جادة قد بذلت، من طرف مجموعة من الدارسين، خاصة من المغرب، للتعريف بهذه العلاقات المتميزة في المجال الثقافي و الفكري، مما يجعلنا نقف على الكثير من المواد المصدرية المخطوطة ذات الصلة، و نخص بالذكر الأساتذة : مُحَمَّد إبراهيم الكتاني، مُحَمَّد المنوني و مُحَمَّد حجي، فقد كان لهذه النخبة فضل لا يمكن إنكاره في توجيه عناية مختلف الباحثين بالذخائر المصدرية المتعلقة بتاريخ هذه العلاقات.

تاريخ العلاقات الفكرية بين البلدين:

إن الحديث عن تاريخ التواصل الفكري أو الثقافي بين المغرب و بلاد السودان الغربي، لا يمكن فصله عن شبكة العلاقات التي كانت قائمة بين هذين القطرين على امتداد المستويات و العصور، كما يدخل ضمن شبكة أخرى من العلاقات بين المغرب و دول جنوب الصحراء عموما، لدرجة قد تمتد جذوره في أعماق التاريخ، حتى مع عدم إنكارنا لتطورها بعد انتشار الإسلام، ففي القرن الثالث الهجري كانت بلاد السودان معبرا للقوافل التجارية المغربية نحو بعض دول شبه الجزيرة العربية، حسب ما يؤكده الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله:

"و ترجع هذه الصلة إلى القرن الثالث الهجري حيث كانت القوافل التجارية المغربية تمر بسجلماسة خلال بلاد التشاد، و السودان للتوجه إلى اليمن و الخليج العربي، و خاصة مدينة البصرة الشرقية التي سميت بها بصرة المغرب قرب القصر الكبير"[1].

وقد استمر هذا التواصل في العصر الموحدي، بشكل أصبحت معه هذه العلاقات محددة بدقة غير معهودة في العصور السابقة، من خلال فرز كل مجال من مجالات التلاقح، مع استمرار الترابط فيما بينهم، فالتجاري مؤثر بالضرورة في الديني الذي لا يمكن فصله بشكل كامل عن الفكري و الثقافي، و بدون إغفال الجانب السياسي بشكل كامل. و لعل الصورة قد تكون واضحة فيما ورد في كتاب الاستقصا من أن الأديب السوداني أبا إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي، قد دخل على يعقوب المنصور الموحدي فأنشده:

أزال حجابه عني وعيني تراه من المهابة في حجاب
وقر بني تفضله ولكن بعدت مهابة عند اقترابي[2]

وهو ما يدل على أن هناك تمازجا ثقافيا كان قائما بين البلدين في هذه الحقبة، متمثلا في تواجد بعض الشعراء و الأدباء السودانيين في المغرب، و لا شك أن هذا يحيلنا على المكانة التي كان يحظى بها هؤلاء في المغرب، خلال هذه الفترة و تأثيرهم، و تأثرهم كذلك بالإبداع المغربي، إلى درجة أن يزيل –كما جاء في البيتين الشعريين السالفين- فيها يعقوب المنصور حجابه عن الشاعر أبا إسحاق، و هو ما لا يمكن القيام به من طرف السلطان إلا للخاصة المقربة. ثم هناك أثر آخر عن عالم و شاعر سوداني من أهل كانم كذلك، هو إبراهيم بن مُحَمَّد بن فارس شاكلة الذكواني الذي هو أيضا "قدم المغرب قبل الستمائة بيسير، وسكن مراكش ...وكان عالما بالأدب شاعرا..."[3]

---

[1] المغرب في عهد الدولة السعدية، ص 147.

[2] الموسوعة المغربية، معلمة الصحراء،ملحق1، ص 127

[3] الاستقصاء، ج 5، ص 103.

ونجد هذا التواصل الثقافي قد ازداد توهجا بعد ذلك في العصر المريني، خاصة أن التجارة في هذا العصر قد ازدهرت بشكل كبير، بحيث كان المغرب يصدر المواد الغذائية و الخيول و المنسوجات و بعض المعادن، و يستورد الذهب و الرقيق و الجلود و العاج و غيرها...[1] و طبيعي، و العلاقات التجارية قوية بهذا الشكل، أن تنموا بالموازاة معها علاقات ثقافية، فكرية، و أن يستمر المغاربة في دعم هذا التواصل و التلاقح . و ندرج هنا على سبيل المثال ما أكده العالم المغربي : عبد الله بن أحمد بن سعيد الزموري : ''الذي وصل إلى بلاد ''ولاتن'' المتصلة ببلاد السودان و اقرأ أهلها و لقي هناك فقهاءها فاثني عليهم في العلم، ثم رجع''.[2]

وقد ورد في ''الإعلام'' عن الأديب الشاعر إبراهيم بن مُحَّد الساحلي الغرناطي، نقلا عن العز بن جماعة قوله: ''قدم علينا من المغرب سنة أربع وعشرين وسبعمائة، ثم رجع إلى المغرب في هذه السنة''.[3]7

وورد في الكتيبة الكامنة أنه: '' لما آنس بكساد سوقه، من بعد بسوقه ...ارتحل ، وبإثمد ملك السودان اكتحل..''[4]

ولعل احتضان مدينة فاس لجامع القرويين و الإشعاع الذي عرفته هذه المدينة بفضله، في عصر المرينيين ، جعل الثقافة المغربية تحتل مكانة هامة في نفوس السودانيين حكاما و شعبا، مما أصبحت معه قبلة للطلبة و العلماء على حد السواء.

واستمرت هذه العلاقات الفكرية الثقافية بين المغرب و السودان الغربي في توهجها، و قوتها مع وصول السعديين إلى الحكم في المغرب، بحيث تواصلت فيها رحلات علماء المغرب إلى السودان، من فجيج و فاس و سوس، فيستوطنها البعض نهائيا، و يقيم فيها آخرون سنوات فبل أن يرجعوا إلى مساقط رؤوسهم''[5].

ولا يسعنا في هذا العرض أن نلم بتاريخ العلاقات المغربية السودانية، او أن نحيط بها من مختلف جوانبها، سواء تلك الممتدة عبر التاريخ، أو المختلفة في الاتجاهات و المستويات نظرا لضيق مساحة هذا المجهود البحثي، و قد اكتفينا بإعطاء أمثلة فقط من تاريخ هذا التواصل، في عصر المرينيين و السعديين.

مظاهر العلاقات الفكرية بين المغرب و السودان الغربي:

مظاهر العلاقات الفكرية و الثقافية بين المغرب و السودان الغربي، لا يمكن الحديث عنها بدون إجلاء و توضيح جوانبها المتعددة و المختلفة، فهناك ظاهرة الرحلة المزدوجة، من المغرب إلى السودان و من السودان نحو المغرب،و ظاهرة التدريس المتبادل لعلماء البلدين، و ظاهرة تتويج الممارسة العلمية، و اعتماد بعض المصنفات المغربية بشكل مكثف في السودان، و اعتماد بعض الكتب السودانية في المغرب الخ....

ظاهرة الرحلة من المغرب نحو السودان:

طيلة تاريخ العلاقات المغربية السودانية، كان هناك دائما علماء مغاربة، لهم رغبة في السفر إلى السودان ليستقرون به، و يمارسون فيه نشاطهم العلمي و الإبداعي، سواء أقاموا فيه إلى حين وفاتهم أو استوطنوه مدة ثم عادوا إلى المغرب، و سنذكر على سبيل المثال:

-العالم مُحَّد بن يوسف الزياتي[6] الذي انتقل إلى السودان، و بقي هناك إلى أن أدركه الموت.

---

[1] ملامح من التواصل الثقافي بين المغرب و السودان في العصر السعدي، العدد269 ماي-أبريل 1988 عبد الجواد السقاط.

[2] العلاقة التجارية بين المغرب و السودان في العصر المريني،

[3] نيل الابتهاج، ص 161

[4] الإعلام، ج1، ص 174

[5] المغرب في عهد الدولة السعدية

[6] أزهار البستان في مناقب الشيخ أبي مُحَّد عبد الرحمان، ص 8.

-العالم مُحَمَّد بن عبد الكريم المغيلي[1] الذي تنقل في جميع مراكز السودان قبل أن يسلم الروح بتوات سنة 909هـ.

-العالم عبد الرحمان بن علي سقين السفياني[2] الذي عاد إلى فاس و توفي بها بعد قضائه سنوات طويلة بالسودان.

ظاهرة الرحلة من السودان نحو المغرب:

وفي مقابل الرحلات من المغرب إلى السودان كانت هناك رحلات وافدة على المغرب من السودان تتلخص في استقرار مجموعة من العلماء السودانيين في المغرب، في مختلف المراكز العلمية آنذاك كسوس و مراكش، فاس و غيرها و سنذكر على المثال لا الحصر :

-العالم أحمد بابا السوداني[3] صاحب " نيل لابتهاج بتطريز الديباج" و الذي بلغ مقامه في المغرب سنوات عديدة و أخذ منه الشوق إلى بلاده كل مأخذ، حيث نجده ينشد:

أيا قاصدا كاغو فعج نحو بلدتي و زمزم لهم باسمي و بلغ أحبتي

سلاما عطيرا من غريب و ثائق إلى وطن الأحباب رهطي و جيري

أبي زيدهم شيخ الفضائل و الهدى و صنو بني عمي و أقرب أسوتي

-العالم الشاعر عبد الحكيم الجواري، قاضي تيكورارين، الذي أكد المؤرخ المغربي أحمد بن القاضي أنه اجتمع به في مراكش سنة 998هـ[4].

-العالم عمر أبو حفص بن الحاج أحمد بن عمر أقيت المتوفى شهيدا بمدينة مراكش..

و غيرهم كثير، و سنكتفي بهذا القدر للاعتبارات التي ذكرنا سالفا.

تدريس علماء البلدين بأهم المساجد المتواجدة بمختلف مراكز القطرين:

جاء في كتاب "الفوائد الجمة في أسانيد علوم الأمة" لصاحبه أبا زيد عبد الرحمان التمنارتي، أن أحمد بابا السوداني قد تصدى للتدريس في مسجد الشرفاء بمراكش، و تتلمذ على يديه الكثير من أعلام المغرب آنذاك : " و من العجب أنه لما تصدر للإقراء بجامع الشرفاء بمراكش ورد مجلسه لسماع الحديث

و أخذ الرواية عنه أكابر فضلاء مراكش و صدور العلماء كالمفتي الإمام المتفنن عبد الله الرجراجي[5] و

قاضي فاس العالم أبي القاسم بن أبي النعيم الغاني[6]،16 و قاضي مكناسة الفقيه الرحالة أبي العباس بن القاضي المكناسي[7]17 و آخرين مما لا يأخذهم الحصر."

تتويج الممارسة العلمية بتأليف الكتب ووضع التصانيف:

إذا أردنا أن نعطي مثالا حيا في هذا المجال، فلن نجد أفضل من كتاب "نيل المجال" للعالم السوداني أحمد بابا التمبكتي، و هو الكتاب الذي استدرك به ما غفل عنه ابن فرحون قي "الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب" و قال عنه مؤلفه :" بوصولي

---

[1] نيل الابتهاج، ص 176-177،

[2] المصدر نفسه

[3] نيل الابتهاج، ص 344

[4] المصدر نفسه

[5] الحركة الفكرية بالمغرب، ج2 ص 458

6 نشر المثاني، ج 1 ص 254

[7] التقاط الدرر، صص 69،71

إلى منبع العلم في الديار المغربية حضرة الإمام العلية و المولوية الهاشمية الأحمدية المنصورية...بادرت إلى كتب ذلك الذيل...و أردت أن أخدم خزانته المشتملة على الطم و الدم من كتب العلم، أهديته و إن كنت في صنعي كجالب تمر إلى هجر أو قارض شعر لدى أهل حضر"[1]18، و ذلك بالرغم من دسامة مادته و كثرة تراجمه،حتى جاء حسب قول مؤلفه : " بحمد الله تعالى فوق ما أردت و زائدا على ما نويت و قصدت"[2]19.

وتنبغي الإشارة هنا إلى أن هناك سنة كان معمولا بها عند علماء السودان، و هي إهداؤهم لمؤلفاتهم و تصنيفاتهم إلى الخزانة المغربية، و هو ما قام به هنا أحمد بابا التمبكتي، و علماء سودانيين آخرين كأحمد المقري التلمساني، الذي ألف كتابه "روضة الآس" و أهداه بدوره إلى الخزانة الأحمدية المنصورية .و لعلهما فعلا ذلك اقتداء بعلماء المغرب و أدبائه، "الذين كانوا يتبارون في تأليف الكتب برسم تلك الخزانة"[3]20

اعتماد بعض المصنفات المغربية في التدريس في السودان:

قد نلاحظ في هذا الإطار اهتمام طلبة السودان و علمائه بالفكر المغربي، من خلال ما ألفه المغاربة في موضوعات شتى، و خاصة كتاب "الشفا" للقاضي عياض، الذي احتل مكان الصدارة من بين المؤلفات المغربية، و لعله يبدو هذا جليا من خلال اطلاعنا على كتاب "تاريخ السودان" لعبد الرحمان بن عبد الله السعيدي، حيث نقف على عدد من علماء السودان الذين كانوا يسردون هذا الكتاب في حلقات دروسهم من مثل:

- أبي عبد الله مُحَمَّد بن الفقيه المختار النحوي الذي كان يقوم بسرد "كتاب الشفا للقاضي عياض في رمضان في مسجد سنكرى"
- عمر بن مُحَمَّد بن عمر الذي "كان يقرأ كتاب الشفا للقاضي عياض على العلامة الحافظ الفقيه أحمد بن عمر بن مُحَمَّد أقيت"

اعتماد بعض الكتب السودانية في الدرس المغربي:

ندرج هنا كمثال على ذلك، كتاب "نيل الابتهاج بتطريز الديباج " لصاحبه العالم أحمد بابا السوداني، هذا الكتاب يعتبر في المغرب من أهم مصادر تراجم علماء المذهب المالكي و فقهائه، سواء كانو مغاربة أو غيرهم.

ثم هناك أيضا العالم أحمد بن أند غمحمد الذي وضع شرحا على الجرومية ، قال عنه ابن الطيب القادري: " و شرحه على الجرومية متداول بفاس"

تجسدت المؤثرات الثقافية في العالم والتاجر، حيث كانا يمثلاني أحيانا شخصا واحدا يصعب التفريق بينهما، أي أن دورهما أرتبط بالتجارة ولأنه يمسك السجل التجاري،ولأنه عالم دين فإنه يضفي جوا روحيا وسط القافلة، بدعواته ومواعظه وحكمه حتى تقوى النفوس على مخاطر الطريق، وعن طريق هؤلاء العلماء انتشر الإسلام في وقت مبكر بسبب حسن معاملات هؤلاء مع الزنوج كان التجار عند قيامهم بالمعاملات التجارية واستقرارهم في المراكز التجارية يعرفون الإسلام للسودانيين بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، مما جعل الإسلام ينتشر طول الطريق التجاري[4].

---

[1] نيل الابتهاج، النسخة المخطوطة بالخزانة العامة بالرباط، رقم 766، ص 1

[2] المصدر نفسه، ص 21

[3] روضة الآس، المقدمة، ص 7

[4]. بان حسين السنجري، المرجع السابق، ص273.

وأن تعلم اللغة العربية وعلومها المختلفة من صرف ونحو والعروض البلاغة والتفسير أخذ وقتا لدى السودانيين حتى يتمكنوا منها وانتقلت إليهم بواسطة العرب منذ الفتح وكذلك التجار المصريين والمغاربة[1]

وبسبب تشجيع الحكام للعلماء أصبح طلبة السودان الغربي يتوافدون على علماء الدين في جموع كبيرة مدفوعين مما كانوا يلاقونه من تشجيع وكان لهم حماسة في أداء العبادة و دراسة القرآن[2].

كما أن حركة التعليم في مملكة غانا كانت في بداية انتشار الإسلام في المناطق التي استقر فيها المسلمون فالتعليم ارتبط بقيام المساجد وقد شيدوا المسلمون المساجد بينما كان وجود المعلمون في البداية، غير أنهم ليسوا متبحرين في العلم[3].

وأن تأثر أهل السودان الغربي بوجود العلماء و الفقهاء المغاربة كان له الدور الكبير في محاربة البدع ،وذلك من خلال استشارة كبار العلماء والاستعانة بهم في محاربة عادات وتقاليد وثنية[4].

وهناك تأثيرات أخرى قد تأثر بها أهل السودان والمغاربة والأندلسيين بعد اعتناقهم الإسلام، والأخذ بتعاليمه وثقافته، وخير دليل على ذلك تأثير ملوك السودان الغربية بالحضارة والثقافة العربية الإسلامية، حيث انتسب بعض الأسر الحاكمة في بلاد السودان إلى الأصول العربية، والبيت العلوي على وجه الخصوص، فملك غانا كان ينسب نفسه إلى ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب[5]

كما ساهم البيضان[6]ومن بينهم علماء الإباضية[7] في نشر أفكارهم من خلال الحركة التجارية، ونقلوا معهم الدين الإسلامي ليكونوا بذلك قد شاركوا في أسلمت السودان وذلك في بداية القرن الثاني هجري[8].

هذا و انتشر الإسلام في مملكة غانا إلى جانب دخول مؤلفات وكتب مالكية، حيث أصبحت الكتب المتداولة في بلاد السودان[1]، وجزء من البيضان هم السنيون المالكيون ويسمون عندهم في السودان الغربي"توري" بضم التاء المثناة و واو و راء مكسورة[2].

---

[1]. مُحَّد أحمد إسماعيل، **أثر الوسطية في نشر الطوارق للإسلام في غرب إفريقيا**، ملتقى الدولي، جامعة المالديف الإسلامية، ربيع الأول 1439هـ/ ديسمبر2017، ص350.

[2]. سيرتوماسوأونولد، **الدعوة إلى الإسلام بحث في تاريخ نشر الإسلام**، تر حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، د.ط، القاهرة، 1971م،ص356.

[3]. مدثر عبد الرحمان،**الإسلام والسياسة في الإسلام**، دراسات إفريقيا، عدد4، الخرطوم، مارس1989م،ص69.

[4]. السعدي، تاريخ السودان، ص76.

[5] – الشريف الادريسي، المغرب و ارض السودان والاندلس ومصر، ص 6.

[6]. **البيضان**:وهم أصحاب البشرة البيضاء من السكان المغاربة عاشوا في السودان الغربي في قرية خاصة بهم وكان لهم مسجدا يسمى مسجد البيضان بكوكو وهم منقسمين إلى الاباضيين وسنيين(ينظر: ابن بطوطة، المصدر السابق،ص336).

[7]**.الاباضية**: وهم من الخوارج ينسبون إلى عبد الله بن غباض، وهم أكثر الخوارج إعتدالا وأقربهم إلى الجماعة **الإسلامية**، أقاموا دولهم في المغرب الاوسط وعاصمتها تاهرت،(ينظر: مُحَّد أبو الزهرة ، **تاريخ المذاهب** الإسلامية، دار الفكر العربي، د.ط، القاهرة، د.س.ن، ص74).

[8] . صفي الدين ومحي الدين، **العلاقات التجارية بين الدولة الرستمية والسودان الغربي160–296هـ/777–909م**،مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشط، العدد7،موريتانيا،2016م،ص55.

ومن الجدير ذكره أن اللغة العربية قد انتشرت على السواحل الأفريقية الشرقية التي تعد من الثقافات التي تأثر بها أهل السواحل التي هي كانت لغة العبادة ولغة التجارة بنفس الوقت, ولذلك أصبح للدعاة الدور الكبير في الدعوة الإسلامية التي تمثلت بالشيخ عبد الله بن ياسين, الذي عمل على أقامة الزوايا لتعليم الشريعة ويقرئ الكتاب والسنة حتى يخرج من تحت يد الفقهاء, والذين كان لهم الفضل الكبير على نشر الإسلام بين قبائل أفريقيا على أسسه السليمة [3].

ومن خلال هذا التواجد المغاربي ببلاد السودان الغربي حدث تأثير وتأثر واضحين في النواحي الحضارية كافة؛ ويكفي دلالة على ذلك وجود أسر عربية وبربرية مغاربية أسهمت في حركة التعليم والثقافة بالسودان الغربي في العصر الإسلامي مثل أسرة أقيت وغيرها من الأسر،

أن جل عناصر الجالية المغربية، ممن استقروا ببلاد السودان (من تجار وفقهاء ودعاة) غير معلومين لدينا، إذ نجهل الكثير عنهم. وغني عن التذكير، أن الفضل يرجع لهم في إخصاب الحياة الدينية وتنمية حال الثقافة العربية الإسلامية بالمراكز الحضرية السودانية منذ استقرارهم بها. وأكثر من ذلك يمكننا تأكيد أن المدن التي قامت عند نهاية الضفة الجنوبية للصحراء خلال القرنين 10 و11 للميلاد، مثل أودغشت وسَني القريبة من گاو، إنما شيّدها رجال من أصل مغربي.

وما تطرحه المواد المصدرية من إشارات فقيرة وضحلة بخصوص دور هؤلاء الأعلام، لا يفصح سوى عن نسبة ضئيلة من مجموع الأعمال الجليلة التي قاموا بها في بلاد السودان. غير أن ذلك لن يمنعنا من تتبع آثارهم وهم يجتازون الصحراء، ويقاومون عدوانيتها البالغة في سبيل الاستقرار بين ظهراني السودان بغاية تحقيق الأهداف التي طوقوا بها أنفسهم.

وقد كان علينا أن ننتظر إلى غاية القرن 14م، لنقع على آثار مصدرية دالة على الأدوار الإيجابية التي قامت بها عناصر الجالية المغربية المقيمة في حواضر إفريقيا الغربية. ولا ريب أن أهمها، يتمثل في الشهادات التي خلفها الرحالة المغربي ابن بطوطة عن المنطقة، وذلك على إثر زيارته لبلاد السودان عام 1352م. وللتذكير فقد كانت الرحلة السودانية البطوطية، خاتمة سياحته خارج حدود المغرب المريني.

ومن القبائل السودانية الأولى التي اعتنقت الإسلام على المذهب المالكي، قبيل الديولا، أحد فروع السونَنْكي أو الساراكولي، ومعنى اسم الديولا في اللهجة المحلية: التّجار. وبالفعل، فقد كان الديولا يتمتعون بحيوية ونشاط بالغ في مجال التجارة ببلاد السودان، ونتيجة لذلك كانت لهم علاقات مع تجار المغرب، حيث كانوا يحملون إليهم الذهب، ويقايضونه بمعدن ممالح الصحراء.

---

[1] لمحميسي رانيا وتوجاري نادية، **دور علماء المغرب الأوسط والأقصى الثقافي في السودان الغربي من القرنالثاني إلى الثالث عشر الهجريين 18–19 ميلادي**،مذكرة لنيل شهادة الماستر في التاريخ(تخصص دراسات أفريقيا)، تحت إشراف نور الدين شعباني، قسم علوم إنسانية، جامعة الجلالي،بو النعامة خميس مليانة، نوقشت2016-2017م،ص59.

[2] ابن بطوطة، المصدر السابق،ص 236.

[3] . السعدي ، المصدر السابق،ص73.

ونتيجة لهذه الاحتكاكات الاجتماعية والاقتصادية، أصبحت بعض فئات الديولا مختصة في التعليم الإسلامي، كما أخذته عن المرابطين المالكيين. وبالنظر لطبيعة وظيفتهم التجارية، فقد كانوا يتنقلون ويتجولون في أعماق بلاد السودان، وهذا ما يفسر قِدم الإسلام في العديد من حواضر دلتا النيجر مثل جني وكَابرة، أو زاغة التي زارها ابن بطوطة، ووصف أهلها بأنهم " قدماء في الإسلام، لهم ديانة وطلب للعلم"[1].

وفي نفس السياق، يحتفظ مؤرخ تنبكت عبد الرحمن السعدي بذكرى طيبة عن أهل كابرة في باب العلم والصلاح. ومما ذكره أثناء ترجمته للقاضي مودب مُحَمَّد الكابري (من أهل القرن 9هـ/15م)، عند انتقاله من كابرة إلى تنبكت: " وتنبكت حافلة يومئذ بالطلبة السودانيين أهل المغرب [= يقصد الغرب] المجتهدين في العلم والصلاح حتى قيل إن معه [أي مودب مُحَمَّد] في روضته ثلاثون كابريا مدفونون، كلهم عالمون صالحون"[2].

ولم تكن مكانة مدينة جنّي في هذا الباب بأقل مما كانت عليه الحال في زاغة، بل ربما فاقتها وتفوقت عليها إن على المستوى الديني أو التجاري، يقول عنها عبد الرحمن السعدي:" [وجني] مدينة عظيمة ميمونة مباركة ذات سعة وبركة [...] وهي سوق عظيمة من أسواق المسلمين وفيها يلتقي أرباب الملح من معدن تغازة وأرباب الذهب من معدن بيط [...] ومن أجل هذه المدينة المباركة تأتي الرفاق من جميع الآفاق إلى تنبكت[...] وقد ساق الله تعالى لهذه المدينة المباركة سكانا من العلماء والصالحين من غير أهلها من قبائل شتى وبلاد شتى"[3].

وكما يفصح نص السعدي، فقد كانت العلاقات التجارية والثقافية وثيقة وقوية فيما بين تنبكت وجني، وكان علماء وفقهاء المدينتين في حركة دؤوبة بينهما. ومن أشهر العائلات العلمية التي توطنت تنبكت، وأنجبت لها قضاتها وأئمتها خلال القرن 16م، عائلة أقيت التي يرجع نسبها القبلي لمسوفة، وتعود أصولها للأمير المرابطي أبي بكر بن عمر (ت.1087م). والعائلة الثانية تنحدر من أحد علماء جني المنتسبين للديولا، عُرف ببغيع، دخل تنبكت خلال القرن 16م، وهنالك اشتهر ولديه أحمد ومُحَمَّد بالعلم والصلاح.

ومُحَمَّد بغيع هو الذي أصبح فيما بعد شيخ وأستاذ أحمد باب(1556-1627)، الفقيه العلامة الذي فاقت شهرته بلاد السودان، وبلغت بلاد المغرب والمشرق. وقد أخذ عنه أحمد باب الفقه المالكي، والتفسير والنحو وغيرها من العلوم الإسلامية السائدة وقتئذ[4]. (10) وبناء على سلسلة الأخذ، نلاحظ أن المعرفة المغربية انتقلت إلى صنهاجة الصحراء الرّحل، ومنهم انتقلت إلى علماء وفقهاء بلاد السودان، ثم عادت لتستقر في تنبكت لدى صنهاجة الحضر أو الحضريين.

---

[1] ابن بطوطة، تحفة النظار، ص 779. مدونة كيوك، ص 300.

[2] عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، ص 47-48. والترجمة الفرنسية ص 78

[3] نفس المصدر، ص 11-12. وص 22 من الترجمة الفرنسية.

[4] يقدم لنا أحمد باب في "النيل" ترجمة وافية لشيخه مُحَمَّد بغيع، انظرها في ص341-342. وبالنسبة لترجمة أحمد باب، ينظر: . ابن بنان البرتلي، فتح الشكور فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور. بيروت: دار الغرب الإسلامي1981. تحقيق: إبراهيم الكتاني ومُحَمَّد حجي. صص31-37. كما ينظر كذلك:

J. O. Hunwick, A new source for the biography of Ahmed B âbâ al-Tinbukti (1556-1627), Bull. School of . Oriental& African Studies, XVII (1964), 568-593

ولم تخمد القصة عند هذا الحد، ذلك أنه في سياق الأحداث المترتبة عن الحملة التي قادها جودر باشا عام 1591م، (11) تمّ ترحيل العلامة أحمد باب إلى مراكش عام 1593، ودامت مدة إقامته الجبرية بها زهاء ثلاث عشرة سنة. وإذا كانت الاعتبارات السياسية قد أملت على السلطة السعدية اتخاذ مثل هذا التدبير، فإنها في المقابل لم تقلل من شأنه العلمي، بل على العكس من ذلك فتحت له من الأبواب ـ ما لم يكن متاحا له ببلده الأصلي ـ، فتفرغ للتأليف وتصدّر للتدريس والفتوى. وبموازاة ذلك كان يلح على زيارة عدد من أضرحة الأولياء بمراكش وفاس وأغمات. وممن أخذ عنه واستفاد من علمه بالمغرب، قاضي فاس أبو القاسم بن أبي نعيم الغساني، وقاضي مكناسة أبو العباس أحمد بن القاضي، ومفتي مراكش عبد الواحد بن أحمد الرگراگي، ومؤرخ تلمسان أحمد المقري.

والكثير من المعلومات الأصيلة عن مملكة مالي وأحوالها في منتصف القرن 14م، الواردة في الموسوعة الضخمة للعمري "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، أسندها المؤلف لرجل من جهة دكالة بالمغرب: الشيخ الثقة أبو عثمان سعيد الدكالي، الذي أقام ببلاد السودان مدة 35 سنة. ونفس الأمر نلاحظه مع ابن خلدون أثناء استعراضه لتاريخ مملكة مالي، حيث اعتمد هو الآخر على رواية رجل من أهل سجلماسة: القاضي الثقة أبو عبد الله مُحَمَّد بن وانسول، الذي استعمله أهل گاو في خطة القضاء بالمدينة. فليس غريبا والحالة هذه، أن يتقلّد منصب الكتابة في بلاط الدولة السنغائية خلال القرنيين 15 و16م، كتّاب جلهم من أصل مغربي.

علماء مغاربة أثروا في الحياة الثقافية لبلاد السودان الغربي:

وانطلاقا من القرن 15 وإلى غاية القرن 19م، ستتصاعد أهمية معلوماتنا عن هؤلاء الأعلام من الرجال المغاربة الذين كان لهم دور بالغ التأثير في الحياة الدينية والثقافية ببلاد السودان منذ القرن 11م، نذكر منهم:

*- العالم المغربي القَوْري، الذي انتقل الكثير من تلامذته لبلاد السودان بغرض التدريس. ومُحَمَّد بن القاسم بن مُحَمَّد القوري المتوفى عام 872هـ/ 1467م، من أصل أندلسي، هاجرت عائلته إلى المغرب واستقرت بمكناس، وبها ولد وتابع دراسته الأولى. وبعد ذلك استقر بفاس، وبها اشتهر علمه وذاع صيته كعالم في الفقه والتفسير والطب، بل إنه تقلد خطة الإفتاء بفاس، وكان "آخر أئمة الصوفية المحققين الجامعين لعلمي الحقيقة والشريعة" على قول العلامة أحمد باب. ويعدّ القوري من تلامذة الشيخ أحمد زروق (ت. 899م).

*- الشيخ ابن غازي، خطيب مسجد مكناس ثم مسجد القرويين بفاس، وهو شيخ مخلوف البلبالي الذي سنتحدث عنه بعد قليل.

*- القاضي عبد الله بن أحمد الزموري، المؤرخ وشارح "كتاب الشفا" للقاضي عياض. قام برحلة لولاتة، ودرّس هنالك، وممن تتلمذ على يديه الشيخ النحوي، ابن قاضي تنبكت أندغ مُحَمَّد، وهذا الأخير تتلمذ على يديه بدوره عدد كبير من علماء تنبكت، وتوفي الزموري بعد 888 هـ.[1]

*- الفقيه الحافظ مخلوف البلبالي، نسبة لواحة تابلبالت على الضفة الشمالية للصحراء، أخذ عنه الكثير من الطلبة بولاته وفاس، ثم رحل برسم التدريس في أكبر مدن شمال نيجيريا: كنو وكاتسينا (= كشن)، فضلا عن تنبكت. وفي آخر حياته عاد إلى المغرب واشتغل بالتدريس في مراكش، قبل أن يقتل مسموما بعد عام 1534.

*- عبد الرحمن القصري، اشتهر بسقّين، تتلمذ على يدي كل من الشيخين مخلوف البلبالي وأحمد زروق. أمضى معظم شبابه بالمغرب، ثم رحل إلى المشرق في طلب العلم. وبعد أداء فريضة الحج، توقف بمصر لاستكمال دراسته، ومنها توجه إلى إفريقيا الغربية، فدخل مدينة كنو. ومما جاء في ترجمته عند مُحَمَّد ابن جعفر الكتاني:" دخل [عبد الرحمن سقين] كنو وغيرها وحدّث بمحضر ملوكهم وأجلوه للتحدث على الفرشُ الرفيعة ووصلوه الصلات الجزيلة من جوار وغيرها[...] فمما أهدي إليه وأعطاه سلطانهم يوم لقيه، خمسون صرة من التبر في كل واحدة خمسمائة مثقال. ولد له هناك بعض الأولاد لسنين كثيرة"،وبعد جولاته العلمية بمدن بلاد حوس عاد لفاس، حيث عمل خطيبا بمسجد الأندلسيين، ثم سرعان ما تقلد خطة الإفتاء بالمدينة، وبها توفي عام 956هـ.

وهناك جانب ثان أكثر تعقيدا، نود التوقف عنده بهذا الشأن، لأنه يعبر عن حالة مخصوصة، ويبرهن في ذات الوقت على أن الدور الديني والعلمي الذي قام به هؤلاء الفقهاء والتجار والدعاة المغاربة، لم يقتصر نجاحه على الساحة الصحراوية وما وراءها من البلدان السودانية، وإنما عادت ثمرات هذا النجاح بالفائدة على أهل المغرب أنفسهم.6-3- الحركة المرابطية ودورها في نشر المذهب المالكي في إفريقيا

وليس أحسن من نموذج الحركة المرابطية للتّدليل على ما نرومه من قصد. فقد قامت هذه الحركة ببلاد الصحراء في منتصف الطريق بين المغرب وبلاد السودان خلال القرن 11م. ونحن نعلم أن أصل الحركة قام في إطار كنفدرالية صنهاجة التي تشكلت أساسا من لمتونة وجدالة ومسوفة. ويظهر أن الإسلام انتشر بين القبائل الصنهاجية خلال القرنيين 9 و10 للميلاد، غير أن إسلامهم كان وقتئذ سطحيا، إذ لم تكن لهم معرفة عميقة بحدود الدين.[2]

وربما كانت هذه الحالة الدينية المتواضعة لصنهاجة، أحد العوامل الأساسية التي حفزت زعيم الحلف، الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي للتوقف بالقيروان أثناء عودته من رحلته الحجية، بهدف لقاء شيخ المالكية بها أبي عمران الفاسي(ت. 1039م).

[1] أعمال الندوة الدولية المنعقدة بتمبكتو حول: الثقافة العربية الإسلامية بأفريقيا جنوب الصحراء، غرب أفريقيا نموذجًا، تقديم: عبد الجليل التميمي، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس، 1997، ص 49.

[2] أعمال الندوة الدولية المنعقدة بتمبكتو حول: الثقافة العربية الإسلامية بأفريقيا جنوب الصحراء، غرب أفريقيا نموذجًا، تقديم: عبد الجليل التميمي، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس، 1997، ص 50.

وأثناء لقاء الرجلين، طلب الأمير من الشيخ المالكي أن ينفذ معه إلى صحراء صنهاجة أحد تلامذته بغاية تعميق فهم قومه لقواعد الشريعة. وشاءت الظروف أن يُنتخب عبد الله بن ياسين الجزولي المالكي للقيام بالمهمة، فوجدها فرصة سانحة، لترسيخ المذهب المالكي بالصحراء، والقضاء على المذاهب والنحل المنافسة، مثل المذهب الشيعي أو الخارجي.

وحينما بسطت الدولة المرابطية نفوذها على الصحراء والمغرب والأندلس، ازدادت قوة ونفوذ المذهب المالكي، باعتباره المذهب الرسمي للدولة، وترسخ وجوده على امتداد الرقعة الجغرافية الواقعة في ظل نفوذهم.

هذا فضلاً عن بعض الجهود الفردية لعلماء مغاربة مثل مُحَمَّد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، الذي لم يكن دوره ثقافيا فقط وإنما كان له دور إصلاحي مهم واستعان به حكام السودان الغربي في الاستفادة من نصائحه ومشورته مثل الأسكيا مُحَمَّد حاكم صنغي، ومُحَمَّد ريمفا حاكم كانو، وكانت هذه المشاورات خير معبرٍ عن أهداف المغيلي الإصلاحية وعن تطلع حكام السودان الغربي لاستبيان رأي الدين الصحيح فيما يخص هذه الممارسات الدينية المختلفة. وقد كان لأفكار ومفاهيم التجديد عند الكثير من فقهاء بلاد المغرب من أمثال المغيلي، ونظرتهم إلى علماء السودان، وحماستهم الدينية أكبر الأثر في نشر المفاهيم الصحيحة للإسلام في بلاد السودان الغربي، ودعم الإسلام لدى هذه المجتمعات[1]. وقد انتشرت هذه المفاهيم وترعرعت في ظل الثقافة الإسلامية المتميزة التي ألقت بظلالها على المنطقة وانسابت مؤثراتها من خلال مظاهر عدة كانت رحلات الحج من أهمها حيث تواصلت وفود الحجيج الأفريقية مارة ببلدان المغرب ومحدثة لحالة عظيمة من الحراك الاجتماعي والثقافي والديني والاقتصادي، ومؤصلة لروح الأخوة والتسامح ومعبرة عن أمن وسلام متلازمين بين شعوب ضفتي الصحراء[2].

المخطوطات:

اهتم سكان مملكة مالي بالكتب العربية المخطوطة، وقد كانوا شديدي الطلب عليها، إذ كانت تجارة الكتب تدر أرباحا طائلة[3]، بحيث فاقت الأربح الناتجة عن العمل في أي مجال تجاري أخر وهذا دليل على عظم الإقبال والتلهف على اقتناء، مما يدل على كثرة العلماء والمتعلمين في مالي[4].

كما اهتم الملوك باقتناء الكتب النادرة وغيرها، وكانوا يدرون عليها الأموال دون بخل، و هذا ما فعله النسا موسى عندما استغل فترة وجوده في مصر واشترى من الكتب الدينية ليوفر لأهل مملكته موروثا من مناهل الثقافة المصرية[5].

---

[1] Bugaje, Usman Muhammad: The Tradition Of Tajdid In Western Bilad Al-Sudan A Study Of The Genesis , Development And Patterns Of Islamic Revivalism In The Region 900- 1900 AD ,Doctor Of Philosophy , Department Of Afro-Asian Studies, Institute Of African And Asian Studies, University Of Khartoum, Sudan 1991, p. 87 .؛ بهيجة الشاذلي: الأوضاع الاجتماعية في السودان الغربي في النصف الأخير من القرن الخامس عشر من خلال رسائل الجلال السيوطي، أعمال الندوة الدولية المنعقدة بتمبكتو حول: الثقافة العربية الإسلامية بأفريقيا جنوب الصحراء، غرب أفريقيا نموذجًا، تقديم: عبد الجليل التميمي، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس، 1997، ص 51.

[2] خير دليل على ذلك مراكز المحفوظات بدول غرب ووسط أفريقيا: انظر: شكل رقم 3.

[3] . عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق، ص293.

[4] . مهدي رزق الله أحمد، المرجع السابق، ص218.

[5] . عبد الله عبد الرزاق إبراهيم وشوقي الجمل، **تاريخ غرب إفريقيا الحديث والمعاصر**، مكتبة الإسكندرية، د.ط، القاهرة، 1998م، ص12.

فالقلم العربي والقلم المغاربي هو السائد على جميع تلك المخطوطات، ومن بين الكتب المتداولة المالكية ككتاب الموطأ **للإمام مالك ابن أنس**[1] و المدونة الكبرى **للإمام سحنون**[2] وكتاب **القاضي عياض**[3] وغيرها من الكتب المالكية[4]، ومعظم المصاحف والمخطوطات التي بقيت في تلك الفترة تحمل في طياتها ذاكرة لتوقيفها على الجوامع من أطراف أشخاص كانوا يبتغون من وراء ذلك وجه الله[5].

مما سبق من عرض؛ يتضح لنا أنه، وبفضل الإسلام، تحوّلت المنطقة إلى قيم الحضارة الإسلامية، وكان نتاج ذلك حضارة عظيمة في شرق إفريقيا وفي غربها، وفيما عُرف بممالك الطراز الإسلامي.

التعليم:

شهدت الممالك الإفريقية نهضة علمية، فكانت المدن مليئة بالعلماء والفقهاء والأئمة، وكانوا يتمتعون بالاحترام، ويمنحون الرواتب السخية.

وكان الطلب مشتداً على الكتب، وقد راجت تجارة الكتب، ويذكر ابن بطوطة أنه رأى كتاب (المدهش لابن الجوزي) في إحدى مدن مالي .

وقد اشتهرت مدن شتى بالعلم، وبرزت المراكز الثقافية، وأهم مركز ثقافي في تنبكت في مسجد سنكري أو جامعة سنكري.

وقد انتشرت المدارس في جميع المدن، والتعليم ينصبّ على تعليم القرآن واللغة العربية، وكانت اللغة العربية هي لغة الدواوين الحكومية والمراسلات الدولية والتجارة، وهي اللغة السائدة كما يقول توماس أرنولد: «غدت اللغة العربية هي لغة التخاطب بين قبائل نصف القارة الإفريقية» .

هذا، وقد تركت اللغة العربية أثرها في اللغات المحلية، ويظهر ذلك جلياً في لغة الهوسا، وفي اللغة السواحلية، وفي اللغة الأمهرية، ولا يزال الحرف العربي يستخدم في هذه اللغات.

وللممالك الإسلامية في التاريخ القديم اهتمام بالتعليم، مثل مملكة مالي، صنغاي، سوكوتو، إذ كان لها دور كبير في نشر التعليم، وبدأت أولى تجارب التعليم النظامي، وعلى سبيل المثال ففي الدولة الإمامية في فوتاتورو بالسنغال بنى الشيخ عبد القادر كُن 40 مسجداً جامعاً، يضمّ كلّ مسجد حلقات علمية للصغار والكبار لدراسة القرآن الكريم والعلوم الشرعية واللغوية، وأسّس المدارس القرآنية والحلقات العلمية في أنحاء البلاد، وفي عهده أسّست مدينة جولون، وأضحت مدرستها من أشهر المدارس في الدولة المتخصصة في الدراسات الأدبية واللغوية، وأنجبت علماء في اللغة والأدب

---

[1]. **الإمام مالك ابن أنس**: مالك ابن أنس بن مالك بن ابي عامر، إمام درا الهجرة في زمانه مولده ولد سنة 93هـ ،(ينظر: بن كثير: **البداية والنهاية** ,تح حسان عبد المنان ,ج1,دط ,بيت الافكار الدولية , لبنان ,2004 م ,ص 1544.

[2]. **الإمام سحنون**:أبو سيعد عبد السلام بن سعيد ربيعة التنوخي، الملقب بسحنون نسبة إلى طائر في المغرب يمتاز بحدة ذكائه, وكان مولده في أول ليلة من شهر رمضان سنة 160 هـ وتوفي في يوم الثلاثاء 9 خلوان من رجب سنة 240 هـ,أصله من الشام من حمص، صاحب المدونة في الفقه المالكي،(ينظر: ابن خلكان، **وفيات الأعيان في أنباء أبناء الزمان**، ج3، تح إحسان عباس، دار صادر، د.ط، بيروت، د.س.ن، ص 90).

[3] **القاضي عياض**:

[4] . الهادي مبروك الدالي، **التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء**، الدار المصرية اللبنانية، ط1، القاهرة، 1999م، ص8.

[5] . عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص48.

أما **المظهر الثاني من مظاهر الحضور والتأثير**، فيتجلى في مناهج التعليم ومصادره ومراجعه وأسانيده. فهي في أغلبها مغربية روحاً وجَسَداً. والمنهجُ المغربي في التعليم يبرزُ منذ الدخول إلى الكُتّاب والبدء في حفظ القرآن برواية ورش، إلى تعلُّم الكتابة بالخط المغربي المعروف والمتميّز بشكله ورسمه ونُقَطه وترتيب حروفه[1]، إلى حفظ المتون الفقهية واللغوية والأدبية، ثم مرحلة التبحُّر في مختلف العلوم باستخدام المصادر والمراجع المغربية والأندلسية في غالب الأحيان، باستثناء بعض المصادر السُنية المشرقية (المالكية وغيرها) كان المغاربةُ أنفُسُهم يعتمدونها ويرجعون إليها كمختصر خليل وشروحه وكتب السيوطي وابن حجر ... وغيرها.

وقد أورد المرحوم الأستاذ إبراهيم الكتاني في مقدمة تحقيق كتاب **فتح الشكور** للولاتي، قائمةً طويلة بأسماء الكتب المغربية التي كانت تُدرس في مراكز التعليم بالسودان الغربي، كالشفا لعياض، ودلائل الخيرات للجزولي، ومقدمة ابن آجرُّوم في النحو، وشرح المكودي على الألفية، والمرشد المعين لابن عاشر، ولامية الزَّقاق، والدُّرَر اللوامع لابن بَرّي التازي، وإضاءة الدُّجُنَّة للمقَّري، وشرح الحكَم العطائية للشيخ زروق الفاسي، والمدخل لابن الحاج، والشروح المغربية للمدوَّنة وغيرها من كتب الفقه المالكي. هذا فضلاً عما ورد في حديث طويل له عن الأسانيد المغربية في الروايات والإجازات التُّكرورية السودانية. وقد سبق لي أن بيَّنتُ في بحث آخر[2]، عُمق التأثير المغربي في مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي وأخيه عبد الله وابنه مُحَمَّد بلُّو، وهؤلاء الثلاثة كانوا من أكبر العلماء وأكثرهم تأليفاً في عصرهم، ممن يمكن اعتبارُهم بمثابة نماذج لسواهم من علماء السودان الذين نجد في فهارسهم وأسانيد شيوخهم لائحةً بأسماء الشيوخ المغاربة والأسانيد المتَّصِلة بهم في الرواية والأخذ والإجازة والإسناد، وفيها أيضاً صورةٌ واضحة عن هذا التأثير.

---

[1] راجع ما جاء في النص الملحق بهذا البحث من كتاب الجوهر الثمين للشيخ العتيق الذي يتحدث فيه عن منهج التعليم الذي كان متَّبعاً في الغرب الإفريقي ، وعن أنواع الخطوط التي كانت مستعملة وتأثرها بالخط المغربي

[2] البحث منشور بمجلة : حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر ع 4 س 1419هـ/ 1998م ، ومجلة : التاريخ العربي ع 11، بعنوان: ملامح من التأثير المغربي في الحركة الإصلاحية للشيخ عثمان بن فودي. وانظر أيضاً : رسالة في التعريف بالمصطفى التورودي للشيخ عبد الله بن القاضي مُحَمَّد الحاج ، تحقيق عبد العلي الودغيري ، منشورات معهد الدراسات الإفريقية بالرباط (2003م).

13-انتشار الاسلام في بلاد السودان الغربي:

الإسلام قديم في بلاد السودان الغربي قدم الصلات التجارية التي ترجع إلي أوائل القرن الثاني الهجري، فظاهرة اقتران الإسلام بالتجارة ظاهرة معروفة في أفريقيا جنوب الصحراء. فقد اعتنق تجار السودان الغربي وسكانه الإسلام قبل فئة الحكام ورجال الحاشية نتيجة اتصالهم بأقرانهم من شمال أفريقيا، ويدعم هذا الرأي انتشار الإسلام في غانة بين الرعايا وانتشار بعض المظاهر الإسلامية مثل بناء المساجد قبل اعتناق الحكام لهذا الدين[1](92). كما كانت مالي تحتوي علي جالية مسلمة يقوم بعض أفرادها بتعليم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والملك كان وثنيا[2] .

وهكذا انتشر الإسلام بين الرعايا تدريجيا ودون ضجيج علي مدي سنوات طوال، ولم يثر هذا الأمر فضول أصحاب المصنفات الذين نستند إليهم، في الوقت نفسه كان اعتناق واحد من الحكام للإسلام يلفت دائما انتباههم بوصفه حدثا يستحق التسجيل كنصر للإسلام لذلك لدينا معلومات أوفي عن إسلام الأسر الحاكمة دون الرعية[3].

الإسلام في مدينة جاو:

تعد جاو من أشهر مدن السودان الغربي، وتقع علي ضفة نهر النيجر عند بداية الثنية الثانية لهذا النهر، وهو يبعد عنها بأكثر من ستة كيلو مترات[4] ، ويرجع الفضل في انتشار الإسلام في هذه المدينة إلي تجار الإباضية الذين توافدوا عليها زمن الدولة الرستمية 160-297هـ/777-909م[5] فقد وقع علي كاهل هؤلاء التجار نشر الدعوة الإسلامية بين الرعايا بجانب نشاطهم التجاري، إذ كانوا يرون في انتشار الإسلام جنبا إلي جنب مع نشاطهم التجاري تدعيما لهذا النشاط [6]، فإسلام الرعايا بدأ تقريبا مع بداية الاتصالات التي ترجع إلي النصف الثاني من القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، واستمر الانتشار التدريجي للإسلام بين الرعايا، وحين أصبح المسلمون يشكلون جماعة كبيرة داخل المجتمع الجاوي تحول الملك إلي الإسلام.

هناك روايتان لإسلام ملك جاو؛ الأولي ترجع إلي المهلبي –أواخر القرن الرابع الهجري- وردت عند ياقوت الحموي تذكر أن الإسلام انتشر بين أكثر سكان المدينة وأصبح الملك مسلما كرعيته، [7] أي أن الملك اعتنق الإسلام في أواخر هذا القرن. أما الرواية الثانية فقد أوردها السعدي حيث ذكر ملوك صنغي منهم أربعة عشر ملكا ماتوا جميعا في جاهلية والذي أسلم منهم زاكسي، يقال له في كلامهم مسلم دام معناه أسلم طوعا بلا إكراه وذلك في سنه 400هـ/1009م[8]، بالرغم أن الفارق الزمني بين رواية المهلبي عن إسلام حاكم جاو ورواية السعدي ليس كبيرا، فإن الباحث يميل الي رواية الأخير، فهي أدق في التفاصيل، إذ جاء بها أسماء من مات في جاهلية من الحكام، بالإضافة إلي اسم أول ملك أسلم.

هكذا أصبح الإسلام دينا رسميا في جاو عام 400هـ/1009م، أي في أوائل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. ثم تأتي شهادة البكري- التي دونها فى كتابه عام 460هـ/1068م-لتؤكد تعمق الإسلام بين الحكام والمحكومين، حتي أصبح مرجعا أساسيا لنظام الحكم إذ يقول: " إن ملكهم مسلم ولا يملكون غير المسلم"[9] .

---

[1] البكرى : مصدر سابق ، ص 175 .

[2] المصدر السابق ، 178 .

[3] إيقان هربك : مرجع سابق ، ص

[4] الحميرى : الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، مؤسسة ناصر الثقافية ، بيروت ، ط2 ، 1980، ص 502 ، 503، أحمد الشكرى : الإسلام والمجتمع السوداني ، ص 102

[5] الوسيانى : سير أبي الربيع الوسيانى، مخطوطة ، ص49 .

[6] Devidson , B: Old Africa rediscoverd, London, 1959, P 97

[7] معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت 1976، جـ4 ، ص 495 .

[8] تاريخ السودان ، ص 3 .

[9] المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص 183 .

لذلك لا عبرة لرأي يوسف كيوك Cuoq الذي يري أن بداية انتشار الإسلام بين أهل جاو يعود إلي الربع الأخير من القرن الخامس الهجري،[1] لأن ما أورده المهلبي، والسعدي، والبكري واضح لا لبس فيه، بالإضافة إلي الأدلة الآثارية المتمثلة في شواهد القبور والتي اكتشفت في ساناي[2] Saney ، التي تقع علي بعد أربعة أميال من مدينه جاو – وتعرض الكتابات المنقوشة علي تلك الشواهد معلومات لم يسجلها أي مصدر تاريخي آخر حول الحياة السياسية والثقافية أبان القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي بالإضافة الي القرنين السادس والسابع الهجريين / الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين[3].

علي أية حال تؤكد هذه الشواهد علي قدم الإسلام في مدينه جاو وانفعال سكانها المسلمين بمظاهر هذا الدين وشعائره. فأقدم نقش عثر عليه في Saney يعود إلي عام 481هـ/ 1088م لامرأة مسلمة لا تنتمي للأسرة الحاكمة تدعي مكية بنت حسن الحاج،[4] فاسم صاحبة الشاهد يبين مدي الانفعال بالإسلام وشعائره، فهذا الاسم جاء تيمنا بمدينه مكة التي تضم بيت الله الحرام قبلة المسلمين، ويتضح أيضا من اسم أبيها أنه ظفر بحج بيت الله الحرام بمكة المكرمة. ونعتقد أنه أنجب ابنته بعد أداء هذه الفريضة، وأطلق عليها هذا الاسم تبركا. وعلي هذا يكون الأب قد أدي الفريضة تقريبا في النصف الأول من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من قدم الإسلام.

أما أقدم الشواهد الملكية في Saney لحاكم جاو الملك الناصر لدين الله، المتوكل علي الله أبي عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله بن راعي المتوفي في يوم الاثنين الأول من شهر المحرم عام 494هـ/ 1100م.[5] وتبدو المظاهر الإسلامية واضحة في هذا الشاهد من خلال الألقاب التي حملها هذا الملك مثل لقب الناصر لدين الله والمتوكل علي الله، تلك الألقاب التي شاع استخدامها لدي خلفاء العباسيين في بغداد، كما تدل هذه الألقاب علي الارتباط الروحي الذي ربط مملكة جاو بالشرق الإسلامي.

ويأتي شاهد قبر آخر مؤكدا علي ما ذهبنا إليه من قبل، كتب عليه "هذا قبر الملك الناصر لدين الله، المتوكل علي الله، أبي بكر بن أبي قحافة رحمه الله، توفي ليله الجمعة، ماضي من شهر رجب تسعة عشر يوما سنه 503هـ/1110م[6]"، ولم يكتف هذا الحاكم بالتخلص من اسمه الوثني فقط بل حمل اسم أول الخلفاء الراشدين كاملا تبركا بخليفة رسول الله صلي الله عليه وسلم. فحمل هذا الاسم يعني تعمق الإسلام وترسخه في هذه المملكة الإسلامية الناشئة في السودان الغربي، كما يعنى تقوي هذا الحاكم الذي أخذ من أبي بكر الصديق قدوة يقتدي بها.

وبعد وفاه هذا الحاكم الذي حمل اسم الخليفة الأول للمسلمين عام 503هـ/1110م، تولي بعده حاكم آخر في نفس هذا العام وأخذ اسم الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب تبركا به، بالإضافة إلي ذلك ذكر في شاهد قبر هذا الملك الاسم المحلي له. وزادت الألقاب في هذا الشاهد والتي تؤكد تمسك هذا الحاكم بالإسلام وشرائعه وسعيه الي نشره والجهاد في سبيله وقد جاء في هذا

---

[1] . Couq, j: Histoire de L'Islamisation de L'Afrique de L'ouest des origlnes á la Fin du Xvle Siécle , Paris 1984 , PP 133, 134 .

[2] تمثل Saney تل نتج من تراكم آثار ومساكن، تعود إلى العصر الإسلامى، وبالقرب من التل هناك مقبرة كبيرة ترجع إلى نفس الفترة وبها شواهد قبور منقوش عليها نقوش عربية. وكان سوفاجيه Sauvaget أول باحث يقوم بنشر ودراسة الكتابات العربية على شواهد القبور. ويظل عمله نموذجا للدقة المنهجية وأدرك أن الأسماء التى وردت فى الشواهد لم تكن ضمن قوائم ملوك جاو المسجلة فى الحوليات. لذلك يرى أن النقوش الخاصة بالمقابر الملكية تقدم للمؤرخ وللمرة الأولى مصدر حقيقي ولذلك اقترح أن يتم استبدال قوائم الحوليات التاريخية لدى المؤرخين بالكتابات المنقوشة على شواهد القبور الملكية؛ Fernando Paolo : Histoire contre Mémoire Epigraphie chroniques Tradition orale et Lieux d' oubli dans Le sahel Malien, Publications de L'institut des Etudes Africaines, Rabat 1993 PP 16 – 17

[3] أقدم الشواهد الملكية المكتشفة فى Saney ترجع إلى 494هـ/ 1100م والذى نشرها سوفاجيه . أما أحدث النقوش المؤرخة المكتشفة فى هذه المقبرة اكتشفها وصورها للمرة الأولى فى عام 1971 جون هونويك Hunwick وتحمل اسم زو ابن اركم وتعود إلى 14 ذى الحجة عام 678 هـ / أو ربما 698هـ / 16 إبريل 1280م أو 1299م وترجع نهاية الشواهد إلى القرن 7هـ / 13م، والسبب فى ذلك الاضطرابات والتغيرات السياسية الناتجة عن سيادة دولة مالى فى المنطقة .

[4] . Fernado, Paolo: op. cit, P 18

[5] . Ibid, P18

[5] Ibid, P35.

[6] Ibid, PP 124-138.

الشاهد "هذا قبر الملك الأجل الناصر لدين لله، المتوكل على الله، القائم بأمر الله، والمجاهد فى سبيل الله ماما بن كما بن اعى المسمي بعمر بن الخطاب رحمة الله عليه توفى يوم الأحد سبعة عشر من المحرم سنة 514 هـ /1119 م[1] ".

وأخيراً لابد من الإشارة إلى وجود شواهد قبورية لبعض الأميرات، وقد حوت هذه الشواهد، وشواهد الملوك التى ذكرناها آيات قرآنية[2] توضح قوة العقيدة الإسلامية في المجتمع الجاوى. وعلى أية حال لم يقتصر انتشار الإسلام في مدينة جاو بل انتشر في مدن ومناطق أخرى في السودان الغربى سنعرض لها.

انتشار الإسلام في بلاد التكرور:

تقع إمارة التكرور على الضفة اليسرى لنهر السنغال، وهى تقابل مجال صنهاجة اللثام على الضفة الأخرى خاصة قبيلة جدالة، وكان بديهيا بحكم القرب الجغرافى من ديار المسلمين أن ينتشر الإسلام فيها منذ وقت مبكر[3] ، بالإضافة إلى الصلات التجارية والدبلوماسية التى ربطت التكرور ببلاد المغرب والتى عرضنا لها.

والمصدر الوحيد عن انتشار الإسلام في التكرور هو البكرى الذى يذكر انتشار عبادة الأصنام فيها حتى حمل ورجابي بن رابيس المتوفى عام 432هـ / 1040 ـ 1041م أهلها على الإسلام وإقامة شرائعه[4] ، أى أن الإسلام أصبح الدين الرسمي لإمارة التكرور في الثلث الأول من القرن الخامس الهجرى/ الحادي عشر الميلادى. ولم يكتف ورجابي بنشر الإسلام في إمارته بل دعا إلى الإسلام في المدن القريبة من إمارته فأسلمت مدينة سلى حكومة وشعبا، بعد أن قبلوا دعوة ورجابي دون تردد[5] .

انتشار الإسلام في مالى:

تقع مالى جنوب مملكة غانة،[6] ، والمسافة التى تفصلهما نحو 12 مرحلة[7]، وقد مهد تجار ودعاة المغرب أرضها لنشر الإسلام، فالاتصالات قديمة كما بينا من قبل. وقد ترتب على الصلات التجارية بين أقطار المغرب الإسلامي ومدن السودان الغربي استقرار بعض المسلمين في تلك المدن، مع ما يستلزمه ذلك من انتشار العقيدة الإسلامية بين السكان الأصليين[8]، وتؤكد قصة إسلام ملك مالى التى أوردها البكرى تلك الحقائق.

يقول البكرى: عرف ملك مالى بالمسلمانى لأن بلاده أجدبت فاستسقوا بقرابينهم من البقر حتى كادوا يفنونها، وكان عندهم ضيف من المسلمين يقرئ القرآن ويعلم السنة، فشكا إليه الملك ما دهمهم من ذلك فطلب منه أن يؤمن بالله وبمحمد ﷺ لتعم الرحمة أهل بلده، فأسلم الملك وتعلم الفرائض والسنن، وصلى مع الداعي المسلم صلاة الاستسقاء، فانهمر المطر، فأمر الملك بكسر الأصنام وأخرج السحرة من بلاده[9] .

وإذا كان البكرى لا يذكر اسم الملك الذى أسلم فإن ما أورده يبين أن الدعاة المسلمين كانوا في مالى يعلمون القرآن الكريم

---

[1] أحمد الشكرى : الإسلام والمجتمع السودانى ، ص 94 .

[2] البكرى : مصدر سابق ، ص 172 .

[3] المصدر السابق والصفحة .

[4] المصدر السابق ، ص 178 .

[5] الأدريسى : مصدر سابق ، ص 6

[6] محمد الصمدى : تاريخ العلاقات المغربية السودانية ، ندوة التواصل الثقافى والاجتماعى بين الأقطار الإفريقية على جانبى الصحراء ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، ليبيا 1998، ص334.

[7] البكرى : مصدر سابق ، ص 178 .

[8] المصدر السابق ، ص 174 .

[9] أحمد الشكرى : الإسلام والمجتمع السوداني ، ص 102 .

والسنة النبوية الشريفة، وأن الإسلام كان معروفاً في مالى عندما أسلم هذا الملك، وإذا كان النص لا يشير إلا لداعية واحد، فإننا نعتقد أن عددهم كان كبيراً، وإن الداعية الذى سأله الملك هو الأعلى مكانة وعلماً بين الدعاة.

أما بالنسبة للتحديد الزمني لإسلام ملك مالى، فمعروف أن البكرى دون كتابه كما ذكر عام 46هـ / 1068م [1] لكن قصة إسلام هذا الملك كما ذكرها كان قد سمعها قبل أن يشرع في تدوين كتابه، لذلك يستخدم الأفعال في صيغة الماضي، ولهذا نرى أن الإسلام أصبح دينا لمالى في النصف الأول من القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى[2] ، لذلك لا عبرة لما أورده المؤرخ الإباضى الدرجيني المتوفى 670هـ / 1272م من أن جده على بن يخلف الذى سافر عام 575هـ / 1180م إلى مالى هو الذى هدى ملك هذه الدولة إلى الإسلام [3]،فإسلام الملك حدث قبل أن يكتب البكرى مؤلفه أى قبل عام 460هـ 1068م ولهذا نرى أن الدرجيني ينسب إلى جده نجاحاً حققه داعية مجهول[4].

انتشار الإسلام في غانة:

الإسلام قديم في غانة، ويرجع ذلك لقدم الصلات التى ربطت بين المغرب وغانة بوجه خاص والسودان الغربي بوجه عام. وقد أسهمت هذه الصلات فى استقرار أعداد كبيرة من المغاربة في تلك البلاد، ويشهد على ذلك القسم المسلم من العاصمة الذى احتوى على اثنى عشر مسجدا وكان لهذه المساجد الأئمة والمؤذنون والفقهاء وحملة العلم. وتقديراً للحضور الإسلامي في هذه المملكة أقام الملك الوثني مسجداً في القسم الوثني من العاصمة، لكي يؤدى المسلمون الوافدون فيه شعائر دينهم[5].

والجدير بالذكر أن نتائج الكشوف الآثارية التي أجريت في موقع عاصمة غانة بينت أن أقدم مساجد العاصمة بنى في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي[6] ، ويؤكد هذا الدليل الأثري على قدم الوجود الإسلامي في العاصمة. وهذا ليس بمستغرب في ضوء ما توصلنا إليه من قدم الصلات التجارية والتي أوضحنا أنها ترجع إلى النصف الأول من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادى[7]، فهذه الصلات بين غانة والمغرب الإسلامي أدت إلى انتشار الإسلامي بين أعداد كبيرة من سكان غانة، وأن مظاهر هذا الدين من شعائر ومساجد وثقافة عربية إسلامية قد وجدت طريقها إلى غانة في زمن مبكر وقبل حركة المرابطين التي أدت إلى زيادة عدد الداخلين في الإسلام [8]. .

ومما سبق عرضه يتضح لنا إسلام رعايا غانة دون الحكام، وهذه الصورة التي توضح حالة الإسلام فى غانة رسمها البكري وترجع إلى عام 460هـ 1068م، أي حتى هذا التاريخ لم يصبح الإسلام دينا رسمياً في غانة يعتنقه الحكام، ونترك البكري وصورته التي تغيرت في عهد الإدريسي فقد اعتنق الجميع الإسلام حكاماً ومحكومين. وانفعالا بهذه العقيدة الجديدة ادعي ملك غانة المسلم

---

[1] الدرجيني : مصدر سابق ، جـ2 ، ص 517 .

[2] Lewlcki, T: Arabic external sources , for the history of the Africa to the south of sahara, 2ed London 1969 , PP72, 73

[3] البكرى : مصدر سابق ، ص 175 .

[4] - Couq, j : Histoire de L'Islamisation de L'Afrique, P 43

[5] انظر العلاقات الاقتصادية

[6] إبراهيم طرخان : إمبراطورية غانة الإسلامية ، 41 – 43

[7] الأدرريسي : مصدر سابق ، جـ 1 ، ص 23 .

[8] Fernando, paolo: op . cit , P 18.

وجود صلة نسب بآل البيت وخاصة البيت العلوى، مع تبعية للخلافة العباسية[1]، ونعتقد أن إسلام ملك غانة قد تم في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

هكذا أثمرت الصلات المتنوعة التي ربطت بلاد المغرب والسودان الغربي في انتشار الإسلام بل وتغلغله، وقد حدث هذا في بداية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي وما كاد هذا القرن ينتهي حتى قبل حكام مختلف المناطق الإسلام دينا، وبذلك اكتسب الإسلام اعترافاً رسمياً في الوحدات السياسية بالسودان الغربي. .

وبعد أن عرف الإسلام طريقه إلى ربوع السودان الغربي أقبل الأفريقيون على أداء شعائر هذا الدين ومنها شعيرة الحج، ويشهد على ذلك ما جاء في شاهد قبر اكتشف في Saney قرب مدينة جاو ويرجع إلى عام 481 هـ / 0881م[2]، وما ذكره الحغرافى الزهرى من أن غانة أسلمت في فترة ظهور المرابطين في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، وأنهم ساروا إلى مكة المكرمة وحجوا وزاروا وانصرفوا إلى بلادهم[3]. .

كما أثمرت تلك الاتصالات أيضاً في إدخال فن الكتابة إلى السودان الغربى[4]، فمن المؤكد أن جميع أساليب الخط العربي التى نجدها في تلك البلاد، ليست سوى أنماط من هذا الخط الذي يطلق عليه الخط المغربي. وقد ساهمت طرق الاتصال التى ربطت بين شمال الصحراء وجنوبها في مرور أسلوب الخط الذي نجده في السنغال ومنطقة منعطف نهر النيجر، والشيء المؤكد هو أن أساليب الخط التى استخدمها المسلمون في مالي والسنغال وكل الغرب الأفريقي ترجع أصولها إلى بلاد المغرب[5] ، وتأتي شواهد القبور التى اكتشفت في منطقة تادمكة وترجع إلى 400هـ / 1006م، مع شواهد القبور المكتشفة قرب مدينة جاو والتى يرجع أقدمها إلى 481هـ / 1088 م ليؤكدا على استخدام الخط المغربي في السودان الغربي. .

لقد اقترن انتشار الإسلام فى السودان الغربي بالنشاط التجارى الذى ربط تلك المنطقة مع بلاد المغرب، لذلك كان الديولا Dyula. ويعني اسم ديولا تاجر . أحدى فصائل قبيلة السوئنك[6] Soninkesالتى اشتغلت بالتجارة وخاصة تجارة الذهب على اتصال بالتجار المغاربة فاخذوا منهم تعاليم الإسلام وثقافته[7] ،وأصبح هؤلاء الديولا دعاة لهذا الدين بين أقوامهم من الزنوج.ولابد من الاشارة إلى أن تقنيات الكيل والميزان قد انتقلت إلي تلك البلاد قادمة من المغرب[8].

---

[1] الزهرى : مصدر سابق ، ص 135 .

[2] إيسيفو : الإسلام كنظام اجتماعى فى افريقيا منذ القرن السابع الميلادى ، تاريخ إفريقيا العام ، اليونسكو ، م3 ، ص 134

[3] Hunwick : op . cit , p16

[4] السوننك قبيلة تكون أغلب سكان إمبراطورية غانة وهى من فروع الماند الأساسية؛ أى مجموعة الشعوب المتكلمة بلغة الماند، اختلطوا بغيرهم من العناصر ولا سيما البربر، وهو الذى غير بعض الشئ فى ألوانهم . انظر: إبراهيم طرخان : مرجع سابق، ص 18

[5] Hunwick : op . cit , P 21

[6] إيسيفو : مرجع سابق ، مجلد 3 ، ص 134

[7]

[8]

14-انتشار المذهب المالكي في السودان الغربي، وقبول العامة والخاصة:

إن المذهب المالكي دخل السودان الغربي منذ القرن الخامس الهجري، وأصبح من أهم المناطق في الغرب الإسلامي التي ساد فيها سيادة مطلقة دون منافس يستحق الذكر، وأمضى بذلك من أكثر المناطق انغلاقا عليه، وبعدا عن المذاهب الأخرى.

-أن المرابطين الذين حملوا لواء الإسلام إلى المنطقة، وقاموا بتصحيح مفاهيمه لدى المجتمع السوداني انتصروا للمذهب المالكي، وبذلك أصبح المذهب الرسمي لهم، وكان من الطبيعي أن يتبعهم السودانيون في مذهبهم.

-أن المغرب الذي يرجع إليه الفضل في انتشار الإسلام وثقافته العربية في المنطقة، عد ''القلعة الأمامية'' للمذهب المالكي، فلا غرو أن يكون من أولوياتها تثبيت المذهب المالكي في السودان الغربي وغيره.

-ما روي عن النبي ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ يَضْرِبَ النَّاسُ أَكْبَادَ الإِبِلِ يَطْلُبُونَ العِلْمَ فَلَا يَجِدُونَ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْ عَالِمِ المَدِينَةِ[1] «فأُوّل هذا الحديث بأنه يقصد الإمام مالكا، وازداد هذا الأمر رسوخا عند أتباع المذهب، ما ورد من ثناء العلماء على مالك وشهادتهم له بالعلم والتقوى والورع[2].

-شهرة المدينة التي عاش فيها الإمام مالك علما ومكانة؛ إذ هي مهبط الوحي ومنبعه، ومهوى أفئدة المسلمين، وطلاب العلم عموما والمغاربة منهم بصفة خاصة.

وهذا الأمر يؤكده ابن خلدون لما علل انتشار المذهب المالكي وانتصاره في الغرب الإسلامي بقوله: ''... وأما مالك رحمه الله فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس وإن كان يوجد في غيرهم، إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في القليل؛ لما أن رحلتهم كانت غالبا في الحجاز، وهو منتهى سفرهم والمدينة يومئذ دار العلم[3]....''

ويمكن اعتبار هذا العامل الأخير من أهم العوامل التي أسهمت في ترسيخ المذهب المالكي في السودان الغربي؛ لأن المجتمع السوداني خاصتهم وعامتهم يعتبرون أن كل ما جاء من المدينة المنورة من أمور دينية وفقهية هو الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ ولذا تعلقوا بالمذهب المالكي وتشبثوا به ولم يبغوا عنه بديلا.

ولا شك أن هذه الفكرة التي ترسخت في أذهان المجتمع السوداني فكرة صحيحة إلى حد ما؛ لأن الأصل أن يقدم ما جاء من مدينة الرسول على غيره؛ إذ أهلها أدرى بسنة رسول الله ﷺ؛ ولهذا ينبغي أن يقتدى بهم إذا ثبت أن ما يعملون به عمل جماعة عن جماعة[4].

وأن اختيار المجتمع السوداني لهذا المذهب يرجع إلى أنه وجد في قواعده ومبادئه ما يشبع رغبته ويلبي حاجاته، فلا غرو من ذلك فإن من خصوصيات المذهب المالكي ارتباطه بالبيئة واعتداده بالواقع الاجتماعي للأمة.

-دور الملوك السودانيين الذين حرصوا على التمسك بالمذهب المالكي وتحكيمه في كل القضايا اليومية من خلال جلب الفقهاء المالكيين واستفتائهم في كل ما استجد من الحوادث والمسائل[5].

---

[1] سنن الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في عالم المدينة.

[2] راجع: ترتيب المدارك، ج1 ص:774. الشيخ محمد المكي الناصري، المذهب المالكي مذهب المغاربة المفضل، ندوة الإمام مالك عام 1400هـ/1980م، ج1 ص:67 – 87.

[3] مقدمة ابن خلدون، ص:356.

[4] مجموع فتاوى ابن تيمية، مج 20، ص:294.

[5] نفس المرجع، ص:328.

فهذا منسا موسى سلطان من سلاطين السودان الغربي العظيم كان حريصا على جلب العلماء من المشرق والمغرب، وقد أثر عنه قوله – لما كان يذهب إلى الحج وزار السلطان الناصر بن مُحَمَّد قلاوون–: ''إننا مالكيو المذهب، ولا نسجد لغير الله؛ لأننا مسلمون[1].''..

وهذا الملك منسا سليمان المتحمس للثقافة العربية الإسلامية والمتشبث بالمذهب المالكي وثقافته لما تولى السلطة ''بنى المساجد والجوامع والمنارات وأقام بها الجمع والجماعات والأذان وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك، ﷺ، وتفقه في الدين[2]...''

وهكذا أسهم هذا الملك العظيم في ترسيخ المذهب المالكي في المجتمع من خلال جلب فقهاء المالكيين والكتب المالكية.

–ارتباط العلماء الأفارقة بالمذهب المالكي وتحكيم فقهه في كل القضايا المستجدة في الحياة اليومية، ونبذ المذاهب الأخرى، جعل المجتمع السوداني لا يرتاح ولا يطمئن إلا لهذا المذهب، الأمر الذي أسهم في نشر المذهب المالكي في السودان الغربي.

–التزام السلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية بالمذهب المالكي في كل الأحكام جعله مذهبا رسميا في السودان الغربي، مما ساعد على نشره.

هذه بعض العوامل التي تظهر لنا أنها أسهمت في ترسيخ المذهب المالكي وتألق نجمه في سماء السودان الغربي منذ القرن الخامس الهجري إلى يومنا هذا، تتوارثه الأجيال جيلا عن جيل. وعلى ضوئه يتفقه الفقهاء، ويقضي القضاة ويحكم الحكام طبقات عن طبقات إلى وقت قريب.

إن المذهب المالكي في السودان الغربي يمثل المدرسة التربوية الوحيدة التي تكوّن منها العلماء والأساتذة والقضاة والحكام ورجال الدعوة والإرشاد في غرب إفريقيا؛ ولهذا كل واحد منهم يسترشد في حياته الدينية والدنيوية بقدوة مذهب الإمام مالك في العقيدة والمذهب والسلوك، حيث وقر في نفوس المجتمع السوداني وإحساسهم أن المالكية عنصر من عناصر الكيان الشخصي لهم.

وهكذا أصبح المجتمع السوداني لا يعرف مذهبا إلا مذهب مالك، ولا يدرسون فقها إلا فقه الإمام مالك، الأمر الذي جعل العلماء يجتهدون في خدمته ونشره وتطويره، ويتجلى دور علماء السودان الغربي في خدمة المذهب المالكي ونشره في المنطقة من خلال عدة جوانب منها: التدريس والفتيا، والقضاء والإمامة، والخطابة والتأليف، والرحلات العلمية.

التدريس

إن علماء منطقة السودان الغربي كانوا على دراية كبيرة بمكانة الاستزادة في العلم والتعمق في الفقه، وتعليم الناس أمور الدين، للنصوص الواردة في ذلك، منها: قوله ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ[3] .[13]«وقوله ﷺ: «نعمت الغبطة، ونعمت الهدية كلمة حكمة تسمعها فتنطوي عليها ثم تحملها إلى أخ لك مسلم تعلمه إياها تعدل عبادة سنة[4].«

وبذلك أسهموا في خدمة المذهب المالكي ونشره وترسيخه في المجتمع السوداني عن طريق التدريس، كما قاموا بمسؤوليتهم تجاه المجتمع من حيث تعليمهم وتدريسهم مما علمهم الله من العلم، وللتأكد على دور العلماء في خدمة المذهب المالكي ونشره عن طريق التدريس نلقي نظرة سريعة على كتب الدراسة في الحلقات العلمية بالسودان الغربي، ومن هذه الكتب الفقهية المعتمدة في مجالس التدريس:

---

[1] العلاقة بين دولة مالي وبين المغرب الأقصى من خلال المذهب المالكي، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا بدار الحديث الحسنية، أعدها الطالب ماما هاسي تنابو، وأشرف عليها الدكتور عمر الجيدي، ص:211.

[2] مسالك الأبصار في ممالك الأمصار للعمري، ص:59 – 60.

[3] صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق» / صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة.

[4] جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، باب تفضيل العلم على العبادة، ج1 ص:22.

- الموطأ للإمام مالك بن أنس ﷺ[1]. «....
- مدونة سحنون (المتوفى سنة 240هـ(
- التهذيب للبرادعي:

هذا الكتاب الفقهي عبارة عن تهذيب للمدونة والمختلطة، وقد تم تصنيفه سنة 372هـ/983م من طرف أبي سعيد خلف بن القاسم البرادعي.[2].

- الرسالة لابن أبي زيد:

من الكتب أو المختصرات الفقهية التي حظيت باهتمام العلماء في السودان الغربي[3].

- النوادر والزيادات:

ومن الكتب الفقهية التي كانت تتداول في المجالس العلمية في السودان الغربي: كتاب النوادر والزيادات لابن أبي زيد القيرواني إمام المالكية في عصره، المتوفى سنة 386هـ.[4]....

- مختصر خليل:

يعتبر مختصر الشيخ خليل بن إسحاق بن موسى، المعروف بالجندي، ضياء الدين أبي المودة، حامل لواء مذهب مالك في زمنه بمصر، من أهم المختصرات التي حظيت باهتمام العلماء في الغرب الإسلامي فوضعوا عليه شروحا وحواشي وتعليقات وتقريرات تعد بالمئات.

ولأهمية هذا الكتاب في المذهب المالكي في القرون المتأخرة «كان المالكية يشترطون في المفتي أن يختم المختصر الخليلي مرة في السنة، بل إن بعضهم اشترط أن يختمه مرتين[5]

ومن الكتب الفقهية المعتمدة في الحلقات العلمية أيضا: الجامع لابن يونس، والتمهيد والاستذكار، والتبصرة للخمي، والبيان والتحصيل، ومختصر ابن الحاجب، والمختصر في الفقه المالكي، والتوضيح لخليل، وأحكام البرزلي، والمعيار المعرب للونشريسي، والمنتقى للباجي، وتحفة الحكام لابن عاصم وشرح ولده عليها، والقرطبية في الفقه، والمدخل لابن الحاج، والمرشد المعين لابن عاشر، ولامية الزقاق، والمنهج المنتخب في قواعد المذهب للزقاق، وشرح أبي الحسن الصغير على المدونة، ومنظومة الزكاة لمحمدبن العربي الفاسي، ونوازل عبد القادر الفاسي، ونظم العمل للفاسي وشرحه لولده، ومختصر الأخضري، وتبصرة الحكام لابن فرحون، والأحكام لابن سلمون، والجواهر الثمينة لابن شاس، والتفريع للجلاب، ومواهب الجليل للحطاب، وشرح اللقاني على المختصر، وحاشية أحمد بابا على المختصر، وشرح المختصر للأجهوري، وشرح المختصر للتتائي، وشرح المختصر للسنهوري، والتنبيهات

[1] أنظر: مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، ص:61.
[2] للمزيد أنظر : مباحث في المذهب المالكي، ص:78 و97.
[3] للمزيد أنظر: حركة التجارة والإسلام، ص:674 – 676.
[4] للمزيد أنظر: حركة التجارة والإسلام، ص:78.
[5] نفسه، ص:98.

للقاضي عياض، والتلقين للقاضي عبد الوهاب، وأحكام البرزلي، والنهاية والتمام للمتيطي، والقوانين الفقهية لابن جزي...هذه بعض الكتب الفقهية التي كانت لها الصدارة في الحلقات العلمية بالسودان الغربي على مر العصور[1].

ولا شك أن هذه الكتب الفقهية المعتمدة في الحلقات العلمية في المنطقة تبين وتؤكد على تمسك العلماء الأفارقة في السودان الغربي بكتب الفقه المالكي والتركيز عليها، الأمر الذي يظهر دورهم في نشر المذهب المالكي وترسيخه في مجتمع غرب إفريقيا، ومدى ارتباطهم وتمسكهم به.

الفتوى

وقد حرص علماء السودان الغربي أن يتقيدوا بالمذهب المالكي في القضايا التي كانت ترفع إليهم، وبذلك أسهموا في نشر المذهب المالكي في السودان الغربي وخدمته، حيث برهنوا –عن طريق الفتوى– على أنهم قادرون على مواجهة المستجدات والمشكلات الواقعة والمتوقعة، وأعطوا بذلك الحلول للنوازل والقضايا التي لم يرد فيها نص، وأثبتوا بذلك قدرتهم على مسايرة التطور البشري والزماني، وهكذا أسهموا في خدمة الفقه المالكي ونشره، وبينوا أنه فقه قابل للتطور؛ لمرونته واستيعابه لكل ما يجد في ساحة المعاملات.

وإلقاء نظرة سريعة على الكتب المعتمدة في الفتوى تبين مدى تمسكهم بالمذهب المالكي والحرص على عدم الشذوذ عما عليه علماء المذهب في الكتب المعتمدة في الفتوى. ومن أهم الكتب المعتمدة في الفتوى ما يلي: 1 – الموطأ للإمام مالك، 2 – المدونة الكبرى برواية سحنون عن ابن القاسم، 3 – الواضحة لعبد الملك بن حبيب، 4 – العتبية وتسمى المستخرجة برواية مُحَمَّد العتبي، 5 – الموازية لابن المواز، 6 – المجموعة لابن عبدوس، 7 – التهذيب في اختصار المدونة للبرادعي، 8 – النوادر والزيادات لابن أبي زيد القيرواني، 9 – الرسالة للقيرواني أيضا، 10 – جامع ابن يونس، 11 – التبصرة للخمي، 12 – التلقين للقاضي عبد الوهاب، 13 – شرح التلقين للمازري، 14 – التفريع للجلاب، 15 – المقدمات لابن رشد، 16 – البيان والتحصيل له أيضا، 17 تبصرة الحكام لابن فرحون.

إن من ألقى نظرة فاحصة على هذه الكتب المعتمدة في الفتوى، يتجلى له دور علماء السودان في خدمة المذهب المالكي ونشره، وحرصهم الشديد على التمسك به وترسيخه، وجعله المذهب المفضل لدى الأفارقة؛ من خلال البحث عن الحلول المناسبة للحوادث التي ترفع إليهم، وليس فيها نص صريح أو ضمني –في إطار المذهب المالكي–؛ فيقيسون النظير على النظير، ويلحقون الفروع بالأصول، ويعملون فكرهم في النصوص من أجل التوصل إلى الحكم المناسب للمجتمع.

القضاء

ونظرا إلى أهمية خطة القضاء في الإسلام فإن علماء السودان الغربي اهتموا بها كثيرا؛ لفض الخصومات والمنازعات التي تجري بين الناس، وتوفير مصالحهم، ورعاية حقوقهم، ومنع الظلم، ومحاربة الأهواء[2]

وتولاها أعدلهم وأبلوا فيها بلاء حسنا، حيث تحدثنا كتب التاريخ عن كثير منهم قاموا بأداء هذا الواجب خير أداء.

---

[1] لمزيد من المعلومات يراجع: نيل الابتهاج من:88، 89، 95، 341، 342 / تاريخ السودان للسعدي، ص:37 – 47 / فتح الشكور، ص:11 وما بعدها / حركة التجارة والإسلام، ص:667-693 / الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي، ص:232 – 235.

[2] يراجع الفقه الإسلامي وأدلته، ج8، ص:349.

وهذا أحمد بابا التنبكتي يحدث عن أحد أفراد أسرته الفقيه محمود بن عمر بن مُحَمَّد أقيت، الذي تولى القضاء في السودان فيقول عنه: أنه لما ولي القضاء بمدينة تنبكت عام 904 هجرية "شدد في الأمور وسدد وتوخى الحق في الأحكام، ولذوي الباطل هدد، فظهر عدله بحيث لا يعرف له نظير في وقته[1]."

وقد أسهم علماء السودان عن طريق القضاء في نشر المذهب المالكي وخدمته حيث ظلوا متمسكين بكتب المذهب المالكي في أحكامهم ولا يبغون عنها بديلا، وبذلك كان لهم دور كبير في ترسيخ المذهب المالكي في المجتمع وخدمته من خلال الاجتهاد في بعض المسائل التي لم يجدوا لها نصا في إطار المذهب المالكي.

الإمامة

ولا يتم إسناد الإمامة إلى أي عالم إلا باتفاق أهل المدينة أو البلدة وبموافقة القاضي، ويكون مالكيا، وبذلك خدم علماء السودان الغربي المذهب المالكي من خلال هذه الخطة، وتعد الإمامة من الوظائف التي تكون شبه وراثية في بعض الأسر العلمية المشهورة في السودان الغربي كأسرة أقيت واندغ وكعت وكورد ومغيا... ولذا نجد أغلب الأئمة في السودان من هذه الأسر العلمية المشهورة بالعلم والصلاح[2].

الخطابة

ونظرا لمكانة الخطابة أو الخطباء في الوعظ الديني- الذي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي قامت الدعوة على أسسه، ومن ينبوعه تغذت النفوس البشرية غذاءها الروحي، ومن ضوئه اقتبست نورانيتها- فإن حكام السودان خصصوا هذه الوظيفة للعلماء العاملين الناصحين ليؤدوا دورهم في المجتمع الذي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من على المنابر كلما أتيحت لهم فرصة في المناسبات الدينية الأسبوعية والسنوية. ولا يتولى هذا المنصب – إلى وقت قريب – إلا من كان مالكيا، وبذلك أسهموا في خدمة المذهب المالكي ونشره في المنطقة[3].

التأليف

سبق أن ذكرنا أن علماء السودان منذ أن وصلهم المذهب المالكي تمسكوا به واستوعبوه ودرسوا أصوله وفروعه واستظهروا متونه المطولة والمختصرة، ثم قاموا بالتأليف فيه حيث وضعوا على مختصراته –خاصة مختصر خليل– مختلف الشروح والحواشي والتعاليق، ونظموا كثيرا منها، وبذلك أسهموا في نشر المذهب المالكي وخدمته، ولعل أعمال أحمد بابا التنبكتي في المذهب المالكي من أبرز ما يمثل مساهمة علماء السودان في خدمة المذهب المالكي وفقهه، حيث وضع شروحا وحواشي وتعاليق على مختصر خليل وألف كتابين مفيدين في التعريف بعلماء المذهب المالكي، وظل يدافع عن المذهب بلسانه وقلمه إلى أن فارق الحياة. ومن أهم كتبه التي نالت إعجاب المغاربة:

---

[1] نيل الابتهاج، ص:607.

[2] ومن أراد أن يقف على أسماء بعض العلماء الذين تولوا هذا المنصب في مختلف العصور بالسودان الغربي فليرجع إلى السعدي الذي خصص أبوابا في كتابه "تاريخ السودان" لأئمة تنبكت وجنى منذ عهد الماليين إلى عهد الباشوات، وصاحب تذكرة النسيان الذي خصص فصولا للقضاة والأئمة في عهد الباشاوات، وبابير الأرواني الذي خصص فصولا لبعض أئمة وقضاة السودان. يراجع كتابنا: الحركة الفقهية ورجالها في السودان الغربي، ص:221 – 222.

[3] الحركة الفقهية ورجالها في السودان الغربي، ص:223 – 225.

- كتابه ‘‘منن الرب الجليل ببيان مبهمات خليل’’ الذي قال عنه: ‘‘... وقد يسر الله تعالى لي في وضع شرح عليه (أي مختصر خليل) جمعت فيه لباب كلام من وقفت عليه من شراحه وهم أزيد من عشرة مع الاختصار والاعتناء بتقرير ألفاظه، منطوقا ومفهوما وتنزيله على النقول، بحيث لو كمل لما احتيج غالبا إلى غيره[1].
- وكتاباه في تراجم الرجال: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، وكفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج.

وإليكم بعض تآليف علماء السودان الغربي التي أسهموا بها في خدمة المذهب المالكي:

* الشروح والحواسي:

- حاشية على المختصر لأحمد بن عمر الصنهاجي[2].
- شرح مختصر خليل: مُحَمَّد بن عمر السوداني، مخطوط في الخزانة الملكية بالرباط- المغرب.
- فتح الرب اللطيف في تخريج بعض ما في المختصر من الضعيف: القاضي طالبن بن الوافي بن طالبن الأرواني، وهو مخطوط.
- سراج العوام في علم الفرائض لرسالة ابن أبي زيد القيرواني، لأحمد بن أحمد بن أبي بكر الماسني: مخطوط.
- الفتح الرباني في أمثلة فرائض القيرواني، للقاضي مُحَمَّد المولود بن عثمان الجناوي، وهو مخطوط.
- تحفة الزائر في حل ألفاظ ابن عاشر لمحمد أكنن بن مُحَمَّد البشير السوقي.مخطوط.
- إيضاح السبيل على توضيح ألفاظ خليل، للإمام محمود السوداني، وهذا المؤلف مخطوط.
- نبراس الهداية في دين الحنفية، لأبي بكر المختار الزنجوي الكابري، مخطوط.

*التعليقات والرسائل الفقهية

- إرشاد الواقف لمعنى: ‘‘وخصصت نية الحالف’’، لأحمد بابا التنبكتي.
- إفهام السامع بمعنى قول خليل في النكاح بالمنافع، أو النكت اللوامع في مسألة النكاح بالمنافع، لأحمد بابا التنبكتي.
- أنفس الأعلاق بفتح الاستغلاق من فهم كلام خليل في درك الصداق، لأحمد بابا التنبكتي.
- الزند الوري في مسألة تخيير المشتري، أو تعليق على قول خليل في أواخر الخيار: ‘‘وخيّر المشتري’’، لأحمد بابا التنبكتي.
- فتح الرزاق في مسألة الشك في الطلاق، لأحمد بابا التنبكتي.

الرحلات العلمية

ومن الوسائل التي استطاع بها علماء السودان الغربي أن يساهموا في خدمة المذهب المالكي الرحلات العلمية بين السودان الغربي والدول المغاربية، حيث إن كثيرا من علماء المغرب العربي زاروا السودان الغربي ودرَسوا الفقه المالكي فيها، الأمر الذي أسهم في نشر المذهب وخدمته وترسيخه في المنطقة.

فهذا منسا موسى سلطان إمبراطورية مالي العظيم بعد رحلته الشهيرة إلى الحج استقدم عدداً كبيراً من العلماء ولاسيما من مصر والمغرب والأندلس لتنشيط الحركة الفقهية في السودان فامتلأت بلاده بالعلماء من السود والبيض[1].

---

[1] نيل الابتهاج، ص:171 – 172.

[2] دولة مالي الإسلامية، إبراهيم طرحان، ص:147 – 151، والحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي، أبو بكر إسماعيل، ص:37.

وهذا منسا سليمان اقتفى أثر أسلافه؛ إذ "بنى المساجد والجوامع والمآذن وأقام بها الجمع والجماعات والأذان وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك ﷺ.[2]..."

كما أن فقهاء السودان رحلوا إلى المغرب ودرسوا هناك ثم رجعوا إلى أوطانهم لأداء ما تحملوه فقاموا بتدريس الفقه المالكي في المساجد والقصور والمجالس، الأمر الذي أسهم في خدمة المذهب المالكي ونشره في المنطقة.

ومن الرحلات العلمية التي تركت بصمات واضحة على خدمة المذهب المالكي ونشره بالسودان الغربي زيارة الإمام المغيلي للسودان[3]، ورحلة أحمد بابا التنبكتي إلى مراكش حيث يقول: "... ولما خرجنا من المحنة طلبوا مني الإقراء فجلست بعد الإباية بجامع الشرفاء بمراكش من أنوه جوامعها، أقرئ مختصر خليل قراءة بحث وتدقيق ونقل وتوجيه، وكذا تسهيل ابن مالك وألفية العراقي، فختمت علي نحو عشر مرات، وتحفة الحكام لابن عاصم، وجمع الجوامع للسبكي، وحكم ابن عطاء الله، والجامع الصغير للجلال السيوطي قراءة تفهم مرارا، والصحيحين سماعا علي وإسماعا مرارا ومختصرهما، وكذا الشفا والموطأ والمعجزات الكبرى للسيوطي، وشمائل الترمذي والاكتفاء لأبي الربيع الكلاعي وغيرها. وازدحم عليّ الخلق وأعيان طلبتها ولازموني، بل قرأ عليّ قضاتها كقاضي الجماعة بفاس العلامة أبي القاسم بن أبي النعيم الغساني وهو كبير ينيف على الستين وكذا قاضي مكناسة... ومفتي مراكش الرجراجي وغيرهم، وأفتيت فيها لفظا وكتبا بحيث لا توجه فيها الفتوى غالبا إلا إلي، وعينت لها مرارا فابتهلت إلى الله تعالى أن يصرفها عني، واشتهر اسمي في البلاد من سوس الأقصى إلى بجاية والجزائر وغيرها، وقد قال لي بعض طلبة الجزائر وقد قدم علينا مراكش: لا نسمع في بلادنا إلا باسمك فقط[4]...."

وصفوة القول أن العلماء الأفارقة كان لهم دور بارز في خدمة المذهب المالكي ونشره وترسيخه في السودان الغربي عن طريق التدريس والإفتاء، والقضاء والإمامة، والخطابة والتأليف، والرحلات العلمية، حملوا رايته وانتصروا له بكل ما لديهم من قوة فكرية وجاه إلى أن توطدت أركانه في السودان الغربي، وتشبع المجتمع بتعاليمه حتى أصبح جزءا من حياتهم لا يبغون عنه بديلا.

---

[1] مسالك الأبصار في ممالك الأمصار للعمري، ص:59 – 60، وصبحي الأعشى للقلقشندي، ج5، ص:297، وتاريخ السودان للسعدي، ص:57. والحركة العلمية والإصلاحية في السودان الغربي للدكتور أبي بكر إسماعيل، ص:83 – 84.

[2] الحركة العلمية والإصلاحية في السودان الغربي لأبي بكر إسماعيل ميقا، ص:101 وما بعدها.

[3] نفسه ، ص113.

[4] كفاية المحتاج، ص: 462 – 463. وفتح الشكور، ص: 34 – 35.

15-أدوار العبيد السود في بلاد الغرب الاسلامي

مفهوم الرقيق

-مفهوم الرقيق ودلالته:

-الرقيق لغة :مشتق من لفظ الرقيق ونقول رق العبد ووارقة واسترقه أي ادخاله في الرق وسميا العبيد لأنهم يرقون لمالكهم ويذلون ويخضعون له وقيلا رق الشيء الرقيق ويقال الارض اللينة رق[1]

-الرقيق اصطلاحا : يعني فقد الحرية وأن يصبح ملك غيره أفراد كان أو جماعة ويطلق على الذكر ولأنثى بحيث كان هذا المصطلح يطلق على المشرق على الأبيض مملوكا على الأسود عبدا[2] والرق هو النظام الذي يسمح بشخص ما أو جماعة من تقيد حريته فردا أو أفرادا ويطلق عليهم الرقيق ويتم اجبرهم على مماربة عمل أو تقديم خدمات ويعتبر الرقيق ملكا شرعيا لذلك الشخص يتصرف بيه ما يشاء ضمن حدود متعارف عليها[3] فالرق يعني أن الانسان مستعبد لغيره مملوكا له فقد التصرف بذاته ومكاسبه أما الاسترقاق فهو الإدخال في الرق ويقال للواحد وللجمع رقيق والجمع فقد ارقاء وقيل الملك والعبودية أي نقيض العتق والحرية ومالك الرقيق هو السيد أو المولى والرق نظام قديم[4] في حين أن مدلول الاصطلاحي لبد أن يتم في أطاره الفقهي الذي رسمه له الفقهاء فقد عرفوا الرق بأنه عبارة عن عجز حكمي يقوم بالإنسان سببه الكفر وأنه عجز شرعي مانع للولايات من القضاء والشهادة وغيرهما[5] ومعني العبد قوله الحكمي أن العبد ربما يكون أقوى من سيد جسما وطاقة أما العجز الشرعي فيدل على أن العبد ممنوع من ممارسة حقوق الحر مثل الزواج بمحث وارداته أو تولي القضاء والقبول في الشهادة

وسائر الحقوق التي يتمتع به الحر وعلى هذا الرق وامتلاك انسان لرقابة انسان اخر على سبيل الاستغلال و التسخير والرقيق هو الملوك ذكرا أم انثى ومن ذلك يسمى عبدا أو يقال له القن أو الغلام والانثى تنعت بالفتاة أو الجارية[6] .

ثانيا :دور الرقيق في الحياة الاقتصادية:

قد توفرت للمعتقين خبرات ومهارات حرفية واسعة أهلتهم لامتهان أعمال متعددة ، حيث احترفوا الدباغة وحياكة الجلابيب ونسجها والخزارة والحجامة وضع كسوة الجياد وسبك الحديد والة الحرب وصناعة النحاس وصناعة الفانيد ثم صناعة الات الطوب والضرب للدنانير والدراهم وحلى النساء ، والى جانب ذلك صناعة الأدوية بالأعشاب وبيعها ، وكذلك تولوا أعمال وضيعة كحمل الموتى وحفر قبورهم وكذا توليهم حراسة الأسواق باليل والفنادق والخدمة في الحمامات وسقاية الماء ، ولم يقتصر دور الرقيق في المجال الحرفي وأيضا الاشغال في القطاع التجاري إذ انهم كانوا يعرضون منتجاتهم التي يقومون بصناعتها في الأسواق قصد بيعها ومن بينها

---

[1] ابن منظور: لسان العرب، مج: 3 , تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة , 271 م، ص1707

[2] عبد العزيز عبد الرحمان، الجغرافيا الحضارية في المشرق الإسلامي بلاد فارس وما وراء النهر، ص 2,الدار العربية للعلوم، بيروت ص17.

[3] 3 احمد منصور، استرقاق الاسري وأثر ذلك في العلاقات بين دول المغرب وأوروبا خلال القرن 21 م، مجلة عصور، دار المريخ للنشر، لندن، العدد، ص 56

[4] عيسى حسن: موسوعة الحضارات، ص 2,الاهلية للنشر والتوزيع، بيروت, 1117 م، ص 3

[5] الموسوعة الفقهية، ج 13 ,ط 1,وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت, 1111 م، ص: 33 31

[6] مُحَمَّد كاتبي، موسوعة المصطلح في العربي، ج 1 ,دار الثقافة للغرب، بيروت 1123 م، ص 2221

الخبز والسفنج والشواء والقدور الشعرية ومقروط و رغائف و بيع أدوات الحياكة ، وكانوا يتاجرون في الحوت والحم والمرجان والخشب ، وكذا حمل السلع من بلد إلى بلد أخر[1] .

واستطاعت فئة قليلة من الرقيق الوصول الي الملكية اذا امتلكوا بعض وسائل العمل حيث كانوا يقومون بكرائها مثل كراء أدوات البناء وامتلاك عقارات مهمة مثل لبيت مولى احد اللعتونين فندق بمراكش تمارس فيه الدعارة حيث يجمع المعتقين ثروته بطرق غير مشروعة .[2]

دور الرقيق في الحياة السياسية:

رقيق البلاط: استمر نفوذ العبيد يمتد في الدولة، وبخاصة الصقالبة منهم، إذا نجد أن أغلب الولايات الهامة على عهد الخليفة المعز لدين الله، كانت تحت إدارتهم المباشرة، مثل "باغاية"، "سرت"، و"برقة"، بما في ذلك ولاية المغرب، والملاحظ أن هذه الولايات على وجه التحديد، شكلت بؤر توتر متواصل بالنسبة للدولة الفاطمية[3].

ولم يقتصر نفوذ الصقالبة على إدارة الولايات، وقيادة الجيوش فحسب، بل ارتقى البعض منهم إلى –منصب الكاتب وأشهر الكتاب في البلاط الفاطمي بالمغرب خلال القرن الرابع الهجري كان جوهر وجوذرا، حيث – تمكن الأول بفضل خبره وحنكته ككاتب[4] لدى الخلفاء الفاطميين بأن يرتقي في السلم الإداري إلى منصب وزير، في بلاط المعز لدين الله الفاطمي.

غير أن جوذرا يظل أعظم شخصية بين العبيد حظيت بأداء وظائف عليا في عهد الفاطميين، فمن – مجرد يعمل في قصر المهدي إلى مشرف عن بيت المال وخزائن البز والكساء، وسفير للقائم بأمر الله يتوسط بينه وبين أوليائه، وسائر عبيده، ليرتقي بعد ذلك على عهد الخليفة المنصور بالله إلى منصب المشرف العام على الملك فقد أستخلفه المنصور على دار الملك وسائر البلاد وأعطاه مفاتح خزائن بيت المال وسائر البلاد.

وتنوعت أدوار الرقيق في البلاط من نيابة الخلفاء والامراء الى تولى منصب الحجابة وممن نال – هذا الشرف من الرقيق نجد عن الفاطميين: أبو أحمد جعفر أبن الصعلوك، الطيب الحاضر، مسلم السجلماسي[5] ، بالإضافة جعفر بن علي وصندل الخادم بالدولة الزيرية أيام الأمير الحسن بن علي فهو ابن الثاني عشر.

---

[1] عصمت عبد اللطيف دندش، الاندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني) 621 هـ 645 هـ/ 2225 م 2262 (تاريخ – 2411 هـ/ 1111 م، ص 114 113 , سياسي وحضاري، دار الغرب الإسلامي، بيروت ص 2

[2] عبد الاله بنمليح، الرق في بلاد المغرب والاندلس، ص 36

[3] ابن ابي دينار، المؤنس في اخبار الافريقية وتونس، ص 52

[4] جوهر بن عبد الله الرومي، أبو الحسن، باني "القاهرة" و "الجامع الازهر" من موالي المعز الزركلي، الاعلام، ج 1 ,ص 245

[5] القاضي النعمان. المجالس والمسايرات. ص 36

دور الرقيق في المؤسسات العسكرية : تعددت وتنوعت الأدوار الحربية للرقيق ،من بداية – الإعداد للمعركة إلى غاية المواجهة الحربية ،فقد أشرف الموالي على دار الحرب ، وبالتالي أوكلت لهم مهمة تخزين الأسلحة ،وتذكر المصادر التاريخية دورا عسكريا آخر يتمثل في التعبئة للجندية طوعا أو كرها ،ويسمى من يقوم بهذه العملية بالحاشد ،ومنهم مدام الفتى الذي ارسل لحشد الزويليين والبحرين ، والحسن بن رشيق الصقلبي الذي قام بنفس الأدوار ،بل يقف الأمر عند هذا الحد بل استعملوا في جباية الأموال ،كالتي تطلبتها الحملة على مصر ،و أوكلت المهمة إلى جوهر الذي كان كفيلا بها فباع ما في الخزائن وساهم بأمواله تقربا من مولاه[1]

ولا يمكن لأحد أن ينكر دور الرقيق في المواجهات الحربية ، وقد شاع بالمغرب و الأندلس لفظ الحشم إما دلالة على الأجناد الأجنبية على اختلاف مصادرها ، أو الحرس المقرب من الخليفة ،لتعني في عهد المرابطين فرقة من الجيش صراحة ونذكر بعض مشاركات العسكريين من الرقيق : شارك " الصقالبة" في الجيش الفاطمي كجند مرتزقة ، وكان لهم فيه حضور .واسع وفعال، وبخاصة بعد قيام عبيد الله المهدي بترتيب أفراده في الديون الذي أنشأه لهذا الغرض – كما ذكرنا. وقد استفاد الفاطميون أيما إفادة من خدمات هذه العناصر في المجال العسكري، حيث برز منهم قواد عسكريون أكفاء قادوا جيوش الفاطميون إلى الانتصار في الكثير من المواجهات العسكرية التي خاضوها ضد خصومهم، سواء في البر أو في البحر

دور الجواري في المؤامرات و الاغتيالات :

لعبت الجواري دورا كبيرا في المؤمرات وتدبير – الدسائس والتخطيط للاغتيالات ، فقد حاولت طروب استمالة فتيان القصر وخصيانه ، وتآمرت مع نصر الخصي كي يقنع الأمير عبد الرحمن ، وكل من في القصر بتوليه ابنها عبد الله ، إلا أن الأمير بدأ يميل إلى توليه ابنه مُحَمَّد ، فقرر نصر القيام بمحاولة دس السم للأمير ، فطلب من الطبيب الحراني تحضير السم ، هذا الأخير الذي أفضى إلى جارية تدعى فخر محظية عن الأمير عبد الرحمن ، وحذراها من أي شراب يقدمه نصر ، فلما أتى الأمير بالشراب أمره يشربه فخرج مسرعا يقصد الطبيب فأشار عليه بشري اللبن لكن الموت كان أسرع ، ومع هذا لم تأييس طروب وحاولت تنصيب ابنها بعد وفاة الأمير ، فاستمالت لذلك فتيان القصر وأجمعو على توليته إلا كبيرهم حبيب الصقلبي فقد فضل استخلاف مُحَمَّد لرجاحة عقله فأتي بيه متخفيا ، فوصل القصر وبايعه الجميع[2] ،كذلك الخطط والتي قامت بها صبح البشكنسية من أجل فرض السيطرة على الحكم، لكنها باءت بالفشل لفصاحة عقل المنصور بن ابي عامر[3].

رابعا: دور الرقيق في الحياة الثقافية:

تعليم الرقيق:

[1] سيرة الأستاذ جوذر. ص 223

[2] ابن سعيد، المغرب، ج 2 ,ص 62

[3] ابن العذري، البيان المعرب، ج 1 ,ص 173

ارسال الرقيق لطلب العلوم النافعة والعلوم الشرعية[1] 3 ، سوى تلك المتعلقة بالمنصور بن ابي عامر الذي دفع بمجاهد العامري الى تعلم علم القراءات فكان سهمه فيها وافرا. وفي نفس الوقت أحجم الموالي عن تعليم الرقيق، ظهر نوع آخر من التثقيف و التعليم ذكرناه سابقا متعلق بتعليم الجواري، ليس اقتداء و أسوة بالنبي ﷺ، بغية الإحسان إليهن والزواج منهن، ولكن بغية الرفع من أثمانهن وها هو ذا ابن الكتاني يفتخر بتعليم جواريه الروميات الأربع علم المنطق و الحكمة الهندسة، والموسيقى، الأسطرلاب، والنحو والعروض، بل أرسلوهن إلى المشرق للاستزادة من العلوم[2]، كما فعل عبد الرحمن بن الحكم الذي أرسل جاريته قلم البشكنسية إلى المدينة المنورة لتتعلم فنون الأدب و الغناْ[3] ، ومن الجواري الأخريات التي أدبن وعلمن الجارية الغلامية محظية الحكم المستنصر وكانت كاتبة له تولى الرصافي تثقيفها و تأييدها، وكذا صبح جارية الكرياني وإشراق السويدية[4]، فكان من الطبيعي ان تكون مجالس العلم والادب مزينة بحضور الجواري المتأدبات، والغلمان والعبيد ويدل ذلك المثل الشعبي : "ماتت الخادم جاءت المدينة كلها تعزي، مات القاضي ما جاء أحد "يدل ذلك على إقبال الإيماء على مجالس الأدب والعلم إلا أن المؤرخين لم يهتموا ولم يبينوا إن كانت هناك مشاركات للرقيق في هذه المجالس العلمية[5] .

مساهمات الرقيق في الحياة الأدبية:

الرقيق موضوع للشعر: من الظواهر الاجتماعية التي خلفها الرقيق وكان له أُثر على الحياة الثقافية خصوصا الأدبية فكان الرقيق المذكر والمؤنث موضوعا ملهما للشعراء رغم قبح هذه الظاهرة خلقيا إلا أنها كانت سببا في إنتاج شعري أدبي غزير خصوصا في الغزل:

التغزل بالجواري:

ولع المغاربة والأندلسيون بالجواري، فصار يقرضون الشعر تعبيرا عن عواطفهم – الجياشة، المتنوعة بين وصف المحبوبة، ورجاء الوصل أحيانا، والشكوى من البين والفراق، فترسل الألفاظ ناسجة أجمل الصور الشعرية التي تمتلئ بها الكتب التاريخية والأدبية، الذي نميز منه نوعين من

الغزل، ماجن وعفيف. من العفيف قول الشاعر أبو الحسن على بن عمر بن أضحى الهمداني:

يا ساكن القلب رفقا كم تقطعه لله في منزل قد ظل مثواكا

يشيد الناس للتحصين منزلهم وانت تهدمه بالعنف عيناكا

والله والله ما حبي للفاحشة اعاذني الله من هذا وعافاكا

ومن الاشعار المعبرة عن الوجد والغرام، أبيت يصف صدود محبوبته عنه قول الشاعر المعتمد بن عباد:

---

[1] عبد الاله بنلمليح، مرجع سابق، ص 451

[2] ابن الابار، التكملة، ج 4 ,ص 142

[3] المقري، النفح، ج 2 ,ص 214

[4] إسماعيل شبانة، الجواري واثرهن في الشعر العربي، ص 61

[5] بنلمليح، مرجع سابق، ص 226

ولج الفؤاد فما عسى أن يمنعا ولقد نصحت فلم أرد أن أسمعا

أسفي أود ولا أود، وأغتدي وأروح أحفظ عهد من قد ضيعا

ما كان ظني أن أجود بمهجة حبا وأقنع بالسلام فأمنعا

يا هاجرين قد اشتفيتم فأرفقوا وهبوا للعثرة عاشق لكم لعا

ردوا بردكم السلام حشاشة لم تبقى لولا أن فيكم مطمعا[1]

[1] بنلمليح، مرجع سابق، ص 226

16- الأثر السوداني في بلاد المغرب الأعلام السودانيون ببلاد المغرب

هناك في مقابل الوافدين من المغرب على السودان الغربي، فئةٌ من الأفارقة قدموا إلى المغرب في رحلات عِلمية خاصة، فأقاموا به وأخذوا عن أشياخه وعلمائه، وفئةٌ أخرى جاءت في رحلات سِفارية أو حَجّية ، فوجدت في إقامتها مناسبةً للاحتكاك بعلماء المغرب والاطلاع على مؤلفاتهم وربط الصلة العلمية المباشِرة بهم . ولعل صيتَ الأديب الشاعر أبي إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي (ت608 أو 609هـ) . أقدمِ الوافدين الأفارقة المعروفين إلى المغرب . قد طرق الأسماعَ في كل بقاع الأرض، بسبب بيتين رائعين أنشدهما في مدح الأمير الموحِّدي يعقوب المنصور وهما قوله:

أزالَ حِجابَه عني وعَيني تَراهُ من الَمهابة في حِجابِ

وقَرَّبني تفضُّلُه ولكن بَعُدتُ مَهابةً عند اقترابي

ورغم أن السبب في وجود الكانمي بالحضرة المراكشية واتصاله بأميرها المنصور غيرُ معروف على وجه الدقة، إلا أنه من الثابت أن الرجل اختلط بالأوساط العلمية لعاصمة الدولة الموحِّدية، وكانت يومها تعجُّ بالعلم والعلماء، وقرأ فيها وأقرأ، ورحل منها إلى الأندلس ثم عاد إليها وقضى فيها بقية حياته إلى أن وافاه أجله[1].

ومن أعلام السودان الذين رحلوا إلى المغرب أيضاً الإمام القاضي كاتب موسى في عهد سلطان مالي منسا موسى (ق8هـ). وقد كان من كبار المشايخ وتولى إمامة المسجد الكبير بتنبكتُو. قال عنه السعدي في تاريخه:« وهو من علماء السودان الذين رحلوا إلى فاس لتعلُّم العلم في دولة أهل مالي بأمر السلطان العدل الحاج موسى »[2]، وفي هذه الإشارة ما قد يفيد بأن هذا السلطان . على الأقل . كان يرسل بعثات طلابية للتعلُّم في المغرب، وربما كان يقدِّم لهم من المعونات المالية وغيرها ما يقوّي عزمَهم ويشجّعهم على تحمُّل أعباء الغربة والإقامة في طلب العلم.

ولم يكن كاتب موسى أولَ شخص يُبعَثُ إلى المغرب للتبحُّر في العلوم في عهد هذا السلطان المعروف بشغَفه بالعلم والكُتُب والثقافة العربية، فمن الطرائف التي حكاها السعدي في تاريخه أن الملكَ منسا موسى حين رحل للحج رجع ومعه الشيخ عبد الرحمان التميمي ليستعين به على نشر العلم في بلده مالي، ولكن هذا الفقيه المشرقي لم يكن له شُغوف على علماء السودان وطلبتها، فوجد نفسه مضطراً للرحلة إلى المغرب لزيادة التعلُّم وخاصة في الفقه المالكي وفروعه. قال السعدي متحدثاً عن الشيخ يحي التادلسي (ت864هـ) وهو من علماء تُنبكتُو الكبار: « وروي أن طلبة سَنكَري إذا جاؤوه لأخذ العلم يقول: يا أهل سَنكُري، كفاكُم سيدي عبد الرحمان التميمي، وهو جاء من أرض الحجاز صحبة السلطان موسى صاحب مالي حين رجع من الحجّ، فسكن تُنبُكتُ وأدركه حافلاً بالفقهاء السودانيّين، ولما رأى أنهم فاقوا عليه(كذا) في الفقه، رحل إلى فاس وتفقَّه هنالك، ثم رجع إليه فتوطَّن فيه ... »[3][

---

[1] يميل أستاذنا ابن شريفة فيما كتبه عن الكانمي إلى أن يكون الرجلُ جاء في سفارة بين مملكة كانم وأمير الموحدين، وكان قدومه حوالي سنة 595هـ، ولكن بقاءه في المغرب مدة ثمان عشرة سنة أو أكثر وعدم رجوعه إلى بلده إلى أن توفي، قد يدلان على أن الغاية من رحلته هي التقرُّب من المنصور والاستفادة من رفده وعطائه. وحتى لو كان الغرضُ الأول هو السِّفارة، فإن مقامه الطويل بمراكش واختلاطه بطبقات علمائها وطلابها لا بد أن يكون قد عاد عليه بالفائدة الكبيرة. ويقول الدكتور ابن شريفة عن الكانمي:« نستطيع أن نقول بأن سند الكانمي في التعلُّم هو على ما يبدو سندٌ مغربي..». ونقل عن ابن الأبار أن الرجل قد أقرأ الأدب بمراكش ، وقرأ أو أقرأ مقامات الحريري

[2] تاريخ السودان ص:57

[3] تاريخ السودان ص:57

وإذا كان لنا ما نعلّق به على هذه القصة، فهو أن الرحلة إلى المغرب وعواصمه، كانت عند أهل السودان من الأمور التي تُكسب صاحبَها جاهاً ومكانةً بين العلماء، وأن طريق الفقه المالكي إنما يُوتَى من المغرب لا من المشرق. والظاهر أن الذي دفع التميمي إلى الرحلة للمغرب وحَفَّزَه لها هو السلطانُ موسى، ولاسيما أنه كان بجانبه مستشارٌ أندلسيٌّ مغربي ذو كلمة نافذة هو أبو إسحاق إبراهيم الساحلي الذي زار المغرب هو الآخر في سِفارة بين سلطان مالي وأبي الحسن المرينيّ.

ويقول أحدُ الباحثين المتخصّصين في العلاقات الثقافية المغربية السّودانية، إن ظاهرة الرحلة لطلب العلم بالمغرب، أخذت مع بداية القرن التاسع الهجري، « تعرف نُمُواً مطَّرداً ومُتزايداً، ويتضح لنا ذلك من خلال بروز عدد من العائلات العلمية السودانية، نخصُّ بالذكر منها عائلتَي أقيت وبُغَيغ اللتين لمع نجمُهما في بلاد السودان منذ النصف الثاني من القرن التاسع الهجري. وكان العديدُ من أعلام هاتين الأسرتين قد دخل المغرب ليأخذ من فقهائه. ومنهم من توفي ودفن بالمغرب»[1].

وبمناسبة الحديث عن أسرة أقيت، وهي أسرة صنهاجية كبيرة، يجب أن لا نغفل ذكر عُمدة هذه الأسرة وأُسطوانتِها ورَحاها في العلم والمشيخة ومفخرتها عبر التاريخ، ونعني به أبا العباس أحمد بابا التنبكتي الصنهاجي. فرحلتُه إلى المغرب التي دامت حوالي أربعة عشر عاماً (1002 . 1016هـ)هي أشهر رحلة في تاريخ العلاقة الثقافية بين المغرب والسودان. ورغم أن الرجل لم يأت المغرب طائعاً ولا راغباً وإنما أُكرِهَ على المجيء، لكن نازلته هذه من النوازل التي يصدقُ عليها قولُ الله تعالى:) وعسى أن تَكرَهُوا شيئاً وهو خَيرٌ لكُم(. فقد أخذَ عنه في مراكش خلقٌ كثير، ولكنه بالمقابل أخذ وقرأ وألَّفَ واطَّلعَ على ما لم يكن . وهو بالسودان . ليطَّلع عليه أو يصل إليه من النوادر ونفائس الكتب التي حمل بعضَها معه. وقد اعترف أحمد بابا نفسُه في بعض مؤلفاته بهذا الفضل، فضلِ إقامته بالمغرب وما عادت عليه بالنفع العميم[2].

بل إن أحمد بابا لم يكن لينال تلك الشهرة التي نالها والصِّيتَ الذائعَ الذي أصبح له، لولا تلك الرحلة التي لقي فيها مَن لقيَ، وتلمذَ له من تتلمذَ. وما كان مجيءُ أحمد باباً لوحده في تلك الرحلة التي أُكرِهَ عليها، وإنما جاء معه آخرون معدودون في أسرته وأصحابه، نالوا بدورهم ما ناله من نصيب الاطلاع والاستزادة من زاد المعرفة.

ومن أشهر علماء السودان الغربي الذين كانت لهم رحلةٌ إلى المغرب في نهاية القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي)، الشيخ مُحَمَّد الأمين الكانمي الذي أصبح أميراً على بلاد بُرنو في تشاد الحالية. وكانت له قبل ذلك رحلة إلى المشرق، ثم عرَّج على بلاد المغرب فأقام في فاس مدةَ سنتين وزار طرابلس والقيروان وتلمسان وغيرها[3].

ومن أشهرهم أيضاً أحمد بن القاضي أبي بكر الفُوتي أصلاً الدَّوجقي مولداً ثم التُّنبُكتاوي الجَنّاوي، من أهل القرن الثالث عشر الهجري. فقد زار تونس خلال رحلته الحَجّية، كما زار مدينة فاس وأقام بها أيام المولى سليمان العلوي، وقرأ على عدد من مشاهير

---

[1] أحمد الشكري: الإسلام والمجتمع السوداني ، ص: 223.

[2] انظر مقالة أستاذنا الدكتور ابن شريفة التي تطرق فيها إلى موضوع ما أفاده أحمد بابا من المغرب خلال مقامه فيه ، وهي بعنوان: إفادة أحمد بابا التمبكتي من الخزانة المغربية ، ضمن كتاب: أحمد بابا التنبكتي (منشورات الإيسيسكو 1993م) ، ثم في مقالة أخرى بعنوان: بين أحمد باب وأحمد المنصور، ضمن كتاب:المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء (منشورات المعهد الإفريقي بالرباط). وقد أورد صاحبُ المقالتين فقرات من كلام أحمد بابا في بعض مؤلفاته يعترف فيها بالفوائد التي حصَّلها من تلك الإقامة في مراكش.

[3] انظر : عبد الرحمان الماحي: الدعوة الإسلامية في إفريقيا

علمائها في ذلك الوقت كمحمد الطيب بن كيران ، وإدريس العراقي ، وأحمد بن الشيخ التاودي، وأبي عبد الله مُحَمَّد الزروالي ، و مُحَمَّد بن عبد السلام الدرعي ، وغيرهم[1].

ومنهم في القرن الثالث عشر الشيخ الحاج عمر بن سعيد الفُوتي (ت 1284هـ) الذي كان على الطريقة الصُّوفية التيجانية، وكانت له رحلة للحج وطلب العلم ، فزار فاس وتلمسان والقيروان وبرقة والقاهرة ، وفيها وفي غيرها من البلاد التي مرَّ بها وأقام، جلس لتلقّي العلم والأخذ عن علمائها[2].

وُيضاف هؤلاء الذي ذكرنا من الأعلام الوافدين على المغرب، إلى ما أورده المرحومُ إبراهيم الكتاني من أسماء أخرى كثيرة، في مقدمة تحقيق **فتح الشكور**، وإلى أسماء غيرها واردةٍ في مصادر متعدِّدة، فلتُراجَع في مكانها.

هذا عن العلماء الوافدين من المغرب وإليه. وبجانبهم نشأت شريحةٌ كبيرة من العلماء الأفارقة من ذوي الأصول الصحراوية والمغربية نجد أسماء عدد غير قليل من أفرادها في مؤلفات أحمد بابا التنبكتي وخاصة كتابي **النَّيل** و**الكفاية**، وفي كتابي السَّعدي وكعت، فضلاً عما ذكره المتأخرون من أمثال الشيخ العتيق بن الشيخ سعد الدين الدغوغي السُّوقي في كتابه الموسوم **بالجوهر الثمين في أخبار صحراء الملَّثمين ومَن يُجاورهم من السَّوادين**[3].

ولو أردنا أن نقتصر فقط على أسماء الأسر العلمية ذات الأصول الصحراوية المغربية، لما وجدنا أحسن من كتاب البرتلّي الولاتي المعروف بكتاب: **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التُّكرور**، شاهداً على كثرتها وتفرُّعها. فقد أتى المؤلف على ذكر مئتين وخمس عشرة ترجمة لعالم أو فقيه، أغلبُهم ينحدر من أسر مغربية أو صحراوية عربية أو أمازيغية. ومن هذه الأسر ذات الأصل الصحراوي والمغربي التي تسلسل العلمُ في أعقابها، وعلماؤها معدودون في علماء التكرور (السودان) الذين أوردهم البرتلي، نذكر على سبيل المثال: أسرة آل أقيت الصنهاجية التي ينتسب إليها أحمد بابا وجدُّه وأبوه وإخوانه، وأسرٌ أخرى كآل التواتي ، والولاتي ، والغلاوي ، والفيلالي ، والوداني ، والكُنتي، والديماني ، والسُّوقي ، والجكني ، والحنشي ، والأرواني ، والدليمي، والوافي ، والمحضري، والبابالي، والتادلي، والدكالي ... وغيرهم.

والحديث عن الأسر العلمية المنحدرة من مناطق شمال السودان، يقودنا إلى التوقف عند **مظهر خامس من** مظاهر التأثير المغربي وهو المتمثِّل في العنصر البشري الطارئ على العناصر السُّكانية المحلّية. فقد كان سكانُ السودان الغربي يتكوَّنون أساساً من عنصر زِنجي إفريقي قديم وهو الغالب، وعنصر بربري قادم من الصحراء في فترات سابقة للإسلام[4] وهو يمثل أقلية من البيضان. ولكنه بعد دخول الإسلام أصبح العنصر البربري الصحراوي القادم من الشمال يتقَّوى جيلاً بعد جيل، ولاسيما في العصر المرابطي وما بعده.

---

[1] انظر رسالته المسماة: شِكايةُ الدين المحمدي إلى رعاية المؤكَّلين به ، ضمن كتاب: مصلح فولاني في بلاد المغرب، تحقيق مُحَمَّد المنصور وفاطمة الحراق ، منشورات معهد الدراسات الإفريقية ـ الرباط 2000م.

[2] نفسه

[3] الكتاب مخطوط ،ومؤلفه معاصر من أهل مالي فرغ منه سنة 1420هـ / 1999م . وقد ترجم فيه لعشرات من أعلام السودان والصحراء من عرب وبربر وسودانيّين أصليّين،مع اهتمام خاص بالملثمين (التوارق) من أهل المنطقة

[4] راجع المؤنس لابن دينار القيرواني حول الوجود القديم لصنهاجة في الصحراء وملوكهم القدامى وخضوع عدد من ملوك السودان لهم. وانظر أيضاً : الجوهر الثمين لمحمد العتيق ، والتوارق عرب الصحراء الكبرى لمحمد سيد القشاط

وليس التوارقُ المنتشرون في عدد من دول جنوب الصحراء (وخاصة في مالي والنيجر وتشاد وبوركينا فاصو ..) إلا من هؤلاء الملثَّمين القدامى، وهم خليطٌ من البربر والعرب المتبربرين. ولقد كان لهم دور كبير في تأسيس دول وممالك في مالي وغيرها. على أن العنصر الزِّنجي نفسه كثيراً ما وجدنا قبائل منه تحاول ربط نسبها بالعرب (من أبناء عقبة أو عرب اليمن الحِميريّين أو ترفع نسبها إلى علي بن أبي طالب). وعرف العهد الإسلامي أيضاً هجرة بعض القبائل العربية القادمة من الشرق إلى المغرب ومنهم قبائل بني حسان ومَعقل والشاوية المعروفون اليوم في نيجريا بعرب الشوا[1].

وقد عرفت المنطقة عبر التاريخ موجات عديدة من هجرة القبائل العربية والبربرية من الصحراء إلى السودان، واندمج أبناؤها مع العنصر الزنجي على فترات، ولاسيما بعد أن توسَّعت مملكةُ السُّنغاي الإسلامية وأصبحت تضم ولاتة وتغازّة وتَدَمَكَّة[2]وتكدَّة وأهير وغيرها من مدن الصحراء ومناطقها وتعتبرها جزءاً من أراضيها وخاصة في عهدي سُنِّي علي وأسكيا الحاج. ومنذ بداية القرن الحادي عشر الهجري الذي عرف دخول جيش المنصور السَّعدي إلى مالي واستقراره مع أُسَره ومَن تناسل منه من أجيال طيلة قرون، ازدادت قوةُ العنصرين العربي والبربري وأضيفت عناصرُ أخرى من الأتراك والأندلسيّين ذوي الأصول المختلطة الإسبانية العربية الأمازيغية. وهكذا أصبح المجتمع الإفريقي في تنبكتو وجِنّي وجاوةَ وغيرها من المدن والمناطق المتَّصلة بها، مكوَّنة من خليط من العناصر السكانية، كنتَ تجد فيه الفاسيَّ والمراكشي والدرعي والزعري والدكالي، والدغوغي،والجزولي، والمسُّوفي، والصنهاجي، واللَّمتوني، والجاناتي ، والأندلسي، والجزائري، والتواتي، والتلمساني، فضلاً عن العُلوج الإسبان والأتراك الذين كانوا قد دخلوا في الجيش السعدي. ومن أهل القبائل المغربية الأخرى: شراكة والشياظمة وحاحة، وتادلة، وأهل ماسّة، وشتوكة، وأولاد جرار، وأولاد عمران، والمنبهيّين، وفشتالة، ومن أهل الأطلس والغرب والصحراء وغيرها من المناطق الأخرى. وقد تحدثت بعضُ المصادر عن أحياء تنبكتو التي كانت تقطنها هذه العناصر من جيش (الرُّماة) المغربي، وأماكن سُكناهم الأخرى في جِنّي وغيرها من المدن والقرى[3].

وهكذا أصبح من الطبيعي أن يكون لهذا العنصر المغربي الآتي من مناطق مغربية شتّى، قوياً ومؤثراً بعاداته وتقاليده ولباسه ومطبخه وثقافته ولغته .

---

[1] راجع كتاب الدكتور عز الدين عمر موسى : دراسات إسلامية غرب إفريقية ص: 101، وكتاب أسكيا الحاج مُحَمَّد، للدكتور منصور فاي ص:173.

[2] هذه المدينة هي التي أصبحت تُعرف فيما بعد باسم : السُّوق ، وأهلها بأهل السُّوق(أو: كل السوق)، وإليها يُنسَبُ السُّوقيون وأكثرهم من الطوارق وفيهم علماءٌ متضلِّعون من الثقافة العربية الإسلامية ومؤلفون ومؤرخون وشعراء. وقيل إنها سُميت قديماً باسم (تَدَمَكَّة) بمعنى : (مكة الجديدة) أو (هذه مكة) لأن أهلها كانوا منذ أسلموا متشبِّثين بإسلامهم كأهل مكة. وقد أقامت بها عناصر مختلفة من السكان فأصبحت نموذجاً للمجتمع الإسلامي المندمج والمتعدِّد الأعراق. يقول الشيخ مُحَمَّد العتيق في الجوهر الثمين:« وإليها يُنسَبُ كلُّ من كان تحت حكم أهلها سواء كانوا قريباً منها أو في غاية البعد عنها من أي جهة من الجهات التي تكتنفها. وهم أُممٌ تفُوتُ الحصرَ... لا يجمعهم اسمٌ واحدٌ إلا أهل تَدَمَكَّة. وفيهم لهجاتٌ مختلفةٌ، وإن كان أصلُ لسانهم متحِداً. ويقال لهم صنهاجة من قبائل البربر أو العرب المتبَربرة . ثم انتقل إليهم كثيرٌ من قبائل البربر من جهة المغرب، ومن جهة الجزائر ومن جهة ليبيا. واختلطَ الكُلُّ ، وتكوَّنت منهم إمارةٌ عظيمةٌ . ثم انتقل إليهم كثيرٌ من العلماء والشرفاء والأنصار حتى صارت منهم قبائلُ عديدة تنتمي إلى الشرفاء ، وأخرى إلى الأنصار، وازدهرت تلك المدينة ، وسار أهلُها بسيرة أهل الصدر الأول حتى لُقِّبت بمكة الجديدة من شدة تشبُّه أهلها بالسَّلَف الصالح ...» ص:115.

[3] يقول الأرواني في كتابه: جواهر الحسان من أخبار السودان: إن أهل مراكش مثلاً كانوا يسكنون في حومة ساري كبب، وكذلك أهل درعة، وشراكة معروفون في تنبكتو بأرجُبَرُكي، وأهل الجبل في قرية كَبَر، وأهل حاحة في قرية ساريامو، والفاسيون قرب تنبكتو، والأندلسيون في جهة تغارس، والشياظميون في تنبكتو بموضع آخر، وآل منصور في حومة الكبير ... وهكذا. وانظر أيضاً: Michel Bitbol في كتابه: Tombouktou et les Arma . وراجع في هذا الشأن ما ذكره الشيخ العتيق بن الشيخ سعد الدين عن طوائف السكان في مالي ، ضمن كتابه: نصيحة المتوسط والغالي من طوائف جمهورية مالي(مخطوط).

ولو أردنا التوقُّف عند الجانب اللغوي من جوانب التأثير لهذه الكتلة السُّكانية المغربية التي تناسَلت وتكاثَرت وتعاظمَ شأنُها مع الأجيال والحقب والقرون، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من تركيبة المجتمع السوداني إلى اليوم، لكفانا، في تلمُّس هذا الأثر، ما نجده في النصوص التاريخية الثلاثة المشهورة وهي: **تاريخ السعدي** و**تاريخ الفتاش** و**تذكرة النسيان**، من عشرات الألفاظ المغربية. وقد عنَّ لي أن أشتغل بهذا الموضوع خلال فترة إقامتي بالنيجر، فاستخرجتُ من هذه المصادر الثلاثة قاموساً غنيّاً بالألفاظ المغربية التي نقلَها المغاربةُ في جملة ما نقلوه من ثقافتهم وعاداتهم إلى السودان، سنعمل على نشره في أقرب فرصة بحول الله تعالى. وتتناول هذه الألفاظ مختلف جوانب الحياة من لباس وأدوات وأطعمة وأسلحة وحرف وصناعات ومهارات ومعارف وعادات. وهذه نماذج مختارةٌ منها:

الباشا ـ البارود ـ البراوة / البرا ـ البُرنس ـ البرّاح ـ الحانوت ـ الحومة ـ الحيوط (ج: حائط) ـ المخزن ـ المخازني ـ الجنان ـ الثقاف ـ التحريكة ـ التحزيمة ـ الشاشية ـ المحلة (المعسكَر) ـ الحُوت ـ الخابية ـ الرحبة ـ الرغايف ـ الزربية ـ الزغاريت ـ الزمام ـ المزوار ـ سافط (أرسل) ـ المشور ـ المشاور ـ شاوش ـ مطيار ـ طيّر الماء ـ الظهير ـ العرصة ـ غيّاط (ج: غياطة) ـ الفرَجية (لباس) ـ قربوس ـ قفطان ـ الكاهية ـ تكمَّش ـ مولاي ـ شربيل ـ الروز ـ الروضة (المقبرة) ـ الروى (الأروى) ـ الطار ـ المونة ـ الشكارة ـ الطيفور ـ اللحيفة (اللحاف) ـ المكحلة (البندقية) .... وهناك عشرات الكلمات والتعبيرات الأخرى ذات الاستعمال المغربي المعروف. وهي من حيث أصولُها الاشتقاقية إما عربية محرَّفة من الفصيح، وإما أمازيغية أو متأثِّرة في صيغتها الصرفية بالأمازيغية، وإما من أصل تركي دخل مع العناصر التركية التي استعملها السعديون في جيوشهم. ..

17-المؤثرات المغربية في العمران في بلاد السودان الغربي

ظهرت في هذا المجال مدن عدة أشهرها مالي وكومبي صالح، جني، تمبكتو، وغيرها من المدن، فتم تخطيط المدن، وانتشر فن الزخرفة في الأبواب والشبابيك والجدران، ونظام النقش والحفر، واستخدمت الفسيفساء والرخام الملوّن، وقصور ومساجد مدينة مكوة تؤكد رقي هذا الفن.

الفن المعماري

هناك تشابه وتقارب في الهندسة المعمارية بين حافتي الصحراء، وهذا راجع إلى التأثير الكبير من جانب أهل السودان لما شاهدوه من معالم عمرانيية متطورة في المغرب الإسلامي، وخير دليل على ذلك نضرب مثلا عن أبا إسحاق إبراهيم الساحلي (ت. 747 هـ) الأندلسي الذي يتحدث عنه كثير من المؤرخين والباحثين من قدامى ومُحدَثين.

حين يتعرَّضون لسيرة هذا الرجل الأندلسي والذي كان مقرَّباً جداً من سلطان مالي الحاج منسا موسى، وجاء معه عند رجوعه من الحج، بعد أن أُعجِبَ به أيَّما إعجاب، فاتخذه مستشارًا خاصا ومشرفا على إنجاز كثير من المشاريع الثقافية والعُمرانية، حيث كُلِّف بمهمة تطوير العُمران في دولة مالي، فبنى قصورا للسلطان ومساجد وغيرها على طريقة العمران السائد في جنوب المغرب في ذلك الوقت، والقائم أساساً على الطين المضغوط بالخشب، والزخارف والنقوش والأصباغ الأندلسية المغربية التي اعتمد فيها على مواد محلية. فكان هذا النمط من العمران جديداً على أهل السودان، فنال إعجابَهم وإكبارَهم.

وقد أشار السعدي في تاريخه إلى شيء من هذا التأثير المغاربي في العمارة والعُمران بالسودان وتنبكتو على الخصوص، بالمفهوم الواسع لكلمة (عُمران) الذي يشمل الحضارة والثقافة، فقال: «فكانت تنبكت خرابَ بير، ولم تأتها العمارةُ إلا من المغرب، فأولُ الحال كانت مساكنَ الناس فيها زَريبات الأشواك وبيوت الأحشاش، ثم تحوَّلوا من هذا إلى بناء الحُيوط أسواراً قصاراً جداً، بحيث مَن وقفَ في خارجها يرى ما في داخلها. ثم بنوا مسجد الجامع على حسب الإمكان، ثم مسجد سَنكُري كذلك، ومن وقف في بابه يومئذ يرى الحيطان والبُنيان، وما ثبتَت عمارتُه إلا في أواخر القرن التاسع، وما تكامل البناءُ في الالتصاق والالتئام إلا في أواسط القرن العاشر في مدة أسكيا داوود .. »..

الجامع الكبير:

يسمى" جنقربيرا" يطلق على هذا الجامع أيضا "بيجنكري بير" أي المسجدالكبير أو جامع تنبكتو العظيم، ويعد هذا المسجد من أكبر الجوامع في مدينة تنبكتو، ولقد أوردت المصادر التاريخية أنه تأسس على يد السلطان "منسا موسى" بعد عودته من رحلة الحج[1].

وقد بناه المهندس الغرناطي الذي أحضره "المنسا موسى" الذي أقام بمكة المكرمة عند قيامه برحلة الحج[2]، فلتقى بالشاعر المعماري الأندلسي أبو إسحاق إبراهيم الساحلي المعروف بالغرناطي الطوبجي، وإليه ينسبون إدخال فن البناء الإسلام[1].

---

[1] . السعدي، المصدر السابق، ص21.

[2] . مُحَمَّد فاضل علي باري و سعيد إبراهيم كريدية، المرجع السابق، ص84.

لكن الروايات الشفوية ترى أن هذا الجامع قد أسس قبل ذلك، وأن الملك منسا موسى قام بإعادة بنائه وتوسيعه فقط، إذ أخذ شكله على الطراز الإسلامي، لنرى بأن هذا الجامع يحوي قبورا ملتصقة به من جهة اليمين وهي عادة عند أهل السودان والمغرب، فهم يدفنون موتاهم في رحاب مساجدهم[2].

أما عن شكل هذا المسجد فقد بناء صومعته على خمسة صفوف، ليضيف إليه الطوبجي هندسة قد أدخلها على السودان، وهي فن معماري جديد، قائم على القراميد المحروقة والسقوفة المنبسطة والمآذن ذات الشكل الهرمي[3]، أما المواد التي استعمالها في بنائه تعتبر جديدة على المنطقة وهو الطوب الملون[4].

وقد تم بناء هذا المسجد من الطين والحجارة الرملية تشبه الجص وهو مادة تستعمل في البناء خاصة المباني الفخمة ، وجدرانه عريضة جدا وليس بها نوافذ كبيرة، والطابع العربي ظاهر عليها، وأما في الداخل فالمسجد كبير وواسع، حتى إن أعمدته من الداخل غليظة، إذ تأخذ مساحة كبيرة وبابه ضخم كأنه باب قصر[5].

وجدد المسجد على يد القاضي العاقض بن محمود في سنة 977هـ/1569م، بغرض استيعاب أكبر عدد ممكن من المصلين المتوافدين عليها[6].

الجامع السنكري أو سنكوري:

يعود بناء هذا المسجد إلى امرأة إغلالية تدعى فاطمة بنت احمد الأغلالي[7]، وهذا الجامع يرجح أنه بنيا قبل القرن العشر الهجري، السادس عشر ميلادي بإعتبار ان جامع سنكوري كان موجود في النصف الثاني من القرن التاسع هجري الخامسعشر ميلادي واسم سنكري يعني في اللغة السودانية السيدة البيضاء، أي تسمية المسجد كانت على سيدة الإغلالية القاطنة في منطقة الشمال الإفريقي وتحديدا قبيلة "الأغلال"[8].

وأما عن الإمامة في هذا المسجد فكثير من الأوقات قد أسندت لعلماء المغاربة، خاصة في الفترة الأولى من انتشار الإسلام في مملكة مالي، ومنهم عبد الرحمان البلبالي وهو أول البيضان الذي صلى بالناس في ذلك المسجد[9].

جامع سيدي يحي 832-873هـ :

---

[1] . دنيس يولم، **الحضارات الإفريقية**، تر علي شاهين، منشورات دار مكتبة الحياة، د.ط، بيروت، 1974م، ص50.

[2] . السعدي، المصدر السابق، ص56.

[3] محمد فاضل علي باري و سعيد إبراهيم كريدية، المرجع السابق، ص84.

[4] . بشار عبد الجبار شديد، **دولة مالي الإسلامية**، مجلة دبيلي، ع9، جامعة ديبلي، 2013م، ص3.

[5] . محمد بن ناصر العبودي، **سطور من المنضور والمأثور عن : بلاد التكرور**،مكتبة الملك فهد الوطنية، ط1، الرياض، 1999م، ص154.

[6] . مزاري بسمة، **الجاليات المغاربية في مدينة تنبكتو في عهد مملكة مالي وسنغاي بين القرنين 5-10هـ/11-16م**، مذكرة لنيل شهادة الماستر، جامعة 8 ماي 1945م، قالمة، 2016-2017م، ص29.

[7] . السعدي، المصدر السابق، ص62.

[8] . مزاري بسمة، المرجع السابق، ص31.

[9] . السعدي، المصدر السابق، ص57.

وقيل أن هذا المسجد أنه بنيا ثلاثة مرات المرة الأولى في القرن الخامس والثانية في القرن التاسع ومرة الثالثة في القرن العاشر[1] ،وهو الذي بنيا في عهد **الطوارق**[2] في مابين عامي 836-874هـ، ولقد بنيا هذا المسجد تخليدا للعالم من المغرب الذي باشر التعليم في تنبكتو خلال النصف الأول من القرن السادس عشر وهو يحي الجدالي فقد سكن في تنبكتو، و أخذ جزء من المسجد للتدريس[3].

ويعتقد أهل تنبكتو أنه لما توفي قاموا ببناء على قبره ذلك المسجد، وقد تحول سريعا إلى جامع وبسبب تكاثر سكان الحي المحيطون به، بدء الازدهار مما جعل الطلبة والمدرسين يتوافدون إليه، إلى جانب الصلاة و العبادة يقام فيه أيضا قد الحلقات الدراسة ويؤديها رجال الدين الذين يتنافسون لتدريس فيه، وقدكان شيخ المسجد يرفع المظالم إلى حكام البلاد، ومنزلته لا تقل عن منزلة القاضي[4].

الكتاتيب:

كانت يسمى " بالكتاب" وهي التسمية المعروفة في العصر الوسيط، بينما أهل مالي سموها "بالخلوة" وأما أهل المشرق يسموها "بالكتاب" وأما أهل المغرب فيسموها "بالمسيد"[5]، وأصبح الكتاب ملحقا بالمسجد فكان إلى جانب المسجد غرفة أو غرفتان لتعليم الأولاد[6]، وهم يرتادون الكتاتيب لحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، ويمثل الكتاب المرحلة الابتدائية بنسبة إلى مراحل التعليم وانتشرت هذه الكتاتيب في المدن والقرى على حد سواء[7].

المكتبات:

كانت معظم المكتبات العامة تابعة للمسجد، وكان الناس يشترون الكتب ليقدموها وقفا للمساجد، وأيضا تميز بعض الناس في حب اقتناء الكتب ،وذلك في مملكة مالي ليظهر لنا نوع أخر من المكتبات ،وهي المكتبات الخاصة التي تملكها العائلات العلمية مثل عائلة أل قيت هو احمد ابن احمد [8]، الصنهاجيون خاصة فقدكان وافر الخزانة محتوى على كل علق ونفيس سموحا بإعارته[9].

القصور و مساكن عامة الناس:

---

[1] . مزاري بسمة، المرجع السابق، ص30.

[2] **. الطوارق:** وهي لفظة عربية فهي جمع طارقي، والطوارق ينتمون إلى الجنس الأبيض، ولغتهم خاصة تدعى تماشك وهي لهجة بربرية،(ينظر: ريمون فيرون، **الصحراء الكبرى**، تر جمال الدين الدناصوري، مؤسسة سجل العرب، د.ط، القاهرة، 1963م، ص ص 93،95).

[3] . مُحَمَّد بن ناصر العبودي، المرجع السابق، ص162.

[4] . عبد القادر زبادية، **حركة التعليم في تنبكتو في بلاد التكرور خلال القرن 16 ودور الاوقاف في ازدهارها**، وزارةالأوقاف والشؤون الإسلامية، العدد230، المملكة المغربية، أوت 1983م، ص45.

[5] . الخميسي رانيا و توحاري نجية، المرجع السابق، ص69.

[6] . عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، ص167.

[7] . عبد الله عبد الرزاق، المرجع السابق، ص147.

[8] . نفسه، ص166.

[9] – احمد السليماني و الطائع الحداوي، المرجع السابق، ص216.

1. القصور:

من أشهر قصور التي عرفتها مدينة تنبكتو أو ما يسمى بدار السلطان، وذلك في القرن 8هـ/14م[1]، وقد برزت فيها التأثيرات المعمارية في العالم الإسلامي، إذ كانت تحوي الزخارف والتحف البديعة وتأثرها تحديدا بالفن المعماري المغربي والأندلسي[2]، و إلى جانب هذا القصر وجدت دار الإمارة أي دار الحكم بالإضافة وجود بيت مال المسلمين والسكة[3].

وهذا التأثير راجع لكون المهندس الذي قام بتشييد ذالك القصر من أصل أندلسي المعروف بالطوبجي، إذ كانت هندسته جديدة على المنطقة إذ تحوي قبة مربعة الشكل، وهذا البناء استخدم في الطوب الأحمر[4].

أما بالنسبة إلى تقاسيم التي يحتويها قصر الملك فهي عديدة وكل منها حسب استخدامها لنذكر نموذج بالنسبة إلى **مجلس السلطان:**

إذ يجلس في عرشه على مصطبة كبيرة، وعلى كرسيه العظيم و المتسع على قدر المجلس عليه أنياب فيل في جميع جوانبها والناب إلى الناب، إذ يقف خلفه نحو ثلاثين مملوكا وأمراؤه جلوس حوله، وإليه تنتهي الشكاوي والمظالم فيفصلها بنفسه فلا يكتب شيئا في الغالب، بل يأمر بالقول بلسانه[5].

مساكن عامة الناس:

اختلفت المنازل بمملكة مالي على اختلاف المواد التي استعملت في البناء، لنذكر بذلك نماذج :

أولا/برادامة: وهي قبيلة من البربر وضبطها (بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وفتح الدال المهملة وميم المفتوحة وتاء التأنيث) بيوتهم غريبة الشكل حيث يقيمون و أعواد الخشب،و يضعون عليها الحصير، وفوق ذلك أعود متشابكة وفوقها الجلود والثياب والقطن.

ثانيا/تكدّا: تقع قرب كوكو مباشرة (وضبطها بفتح التاء المعلومة والكاف المعقودة والدال المهملة وتشديدها) وديارهم مبنية بالحجارة الحمراء[6].

بناء أهل هذه البلاد قد ورثه من المسلمين العرب والمغاربة، ويستعملون الطين والخشب العريض والطويل وهو قليل الوجود[7]، ومنهم من استعمل الخشب المطلي بالتراب والممزوج بالتبن[8].

واستخدم البعض الأخر الطين بقدر ثلثي ذراع ثم يترك حتى يجف ثم يبنى عليه مثله، وكذلك حتى ينتهي سقوفها بالخشب والقصب[1].

---

[1] . عبد الله عبد الرزاق، المرجع السابق، ص142.

[2] . ماهر عطية شعبان،" **جامعة سنكري(في تنبكتو) ودورها الحضاري والثقافي في القرن السادس عشر 1492/ 1590م**"، **مجلة الدراسات الإفريقية**، القاهرة، العدد24، سنويا 2002م، ص4.

[3] . حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص165.

[4] . بشار عبد الجبار شديد، المرجع السابق، ص4.

[5] . القلقشنيدي، المصدر السابق، ص ص 298،299.

[6] . ابن بطوطة، المصدر السابق، ص709،710.

[7] . الإدريسي، المصدر السابق، ص5.

[8] . مارمولكربخال، المرجع السابق، ج3، ص202.

وأحيط بتلك المنازل حدائق زرع فيها أشجار النخيل،أما الهندسة العامة لمدن مملكة مالي فهي موروثة من العالم الإسلامي سوء كان بالمغرب أو بالمشرق، ونرى هذا في مدينة تنبكتو وقد أحيط بالمدينة صور كبير يحميها غارت المفسدين وقطاع الطرق وكان الصور تغلق أبوابه بعد صلاة المغرب فلا يسمح لأي احد بالدخول إلى المدينة بعد ذلك[2].

[1]. القلقشندي، المصدر السابق، ص282.

[2]. عبد الله عبد الرزاق، المرجع السابق، ص ص141-143.

القرآن الكريم.

أولاً المصادر العربية المطبوعة :

الأدريسى :(أبو عبدالله مُحَمَّد بن عبدالله بن أدريس ت 558 هـ / 1162م) .

– نزهة المشتاق فى اختراق الأفاق ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة بدون تاريخ .

البكرى : (أبو عبيد بن عبد العزيز ت 487هـ / 1094م) .

. المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة بدون تاريخ .

التادلى : (أبو يعقوب يوسف بن يحيي ت 627هـ / 1229م) .

. التشوف إلى رجال التصوف ، تحقيق أحمد التوفيق ، منشورات كلية الآداب، جامعة مُحَمَّد الخامس، الرباط ، ط 1 ، 1984

.

الحميرى : (مُحَمَّد بن عبدالله بن عبد المنعم ت فى القرن 9هـ / 15م) .

. الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، مؤسسة ناصر الثقافية ، بيروت ط2 ، 1980 .

ابن حوقل : (أبو القاسم مُحَمَّد بن على النصيبي ت 380هـ / 990م) .

. صورة الأرض ، دار صادر للطباعة ، بيروت ، طبعة ليدن 1938 .

ابن حيون : (القاضى أبو حنيفة النعمان مُحَمَّد بن منصور ت 363هـ / 973 م) .

. المجالس والمسايرات

ابن خلدون : (عبد الرحمن بن مُحَمَّد ت 808 هـ / 1405م) .

. العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت 1968 .

الدرجيني : (أبو العباسي أحمد (ت منتصف القرن 7 هـ، 13م) .

. طبقات المشائخ بالمغرب ، تحقيق إبراهيم طلاى ، الجزائر 1974 .

الزهرى : (أبو عبد الله مُحَمَّد بن أبي بكر ت أواسط القرن 6هـ /12م).

.كتاب الجغرافية، تحقيق مُحَمَّد حاج صادق ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة بدون تاريخ

السعدى: (عبد الرحمن السعدى ت بعد عام 1065 هـ / 1655م) .

. تاريخ السودان ، طبعة هو داس وبنوه ، مطبعة بردين ، مدينة انجى 1898 .

ابن الصغير : (ابن الصغير المالكى ت أواخر القرن 3 هـ / 9م) .

. أخبار الائمة الرستميين، تحقيق مُحَمَّد ناصر، وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامى ، بيروت 1986 .

ابن عذارى : (مُحَمَّد بن عذارى المراكشى ت نهاية الغرب 7هـ / 13 م) .

. البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق إحسان عباس ، الدار العربية الكتاب، ودار الثقافة ، بيروت ، ط 3 ، 1983 .

أبو العرب تميم : (مُحَمَّد بن أحمد بن تميم القيروانى ت 333هـ / 944م) .

. طبقات علماء إفريقية وتونس ، تحقيق على الشابى ، ونعيم حسن، الدار التونسية للنشر، ط2 ، 1985

المالكى : (عبدالله بن أبى عبدالله ت نهاية القرن 4 هـ / 1 م) .

. رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية ، تحقيق بشير البكوش ، دار الغرب الإسلامى، بيروت ، ط2 ، 1994 .
مجهول : (كان حيا أواخر القرن 6 هـ / 12م) .
. الاستبصار فى عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر للشئون الثقافية العامة ، بغداد بدون تاريخ .
أدب المفتي والمستفتي، لابن الصلاح، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، الطبعة الأولى: 1986م، دار المعرفة، بيروت.
إزالة الريب والشك والتفريط في ذكر المؤلفين من أهل التكرور والصحراء وأهل شنقيط، لأحمد بلعراق التكني، دراسة وتحقيق وتقديم د. الهادي المبروك الدالي، الطبعة الأولى 2001م، الشركة العامة للورق والطباعة، مطابع الوحدة العربية، الرواية.
- أشهى العلوم وأطيب الخبر في سيرة الحاج عمر الشيخ موسى كمرا، تحقيق وتقديم وتعليق خديم مُحَمَّد سعيد امباكي وأحمد الشكري، الطبعة الأولى 2001م، منشورات معهد الدراسات الإفريقية بالرباط، المغرب.
مُحَمَّد بن مخلوف :
- . شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية ، دار الفكر ، القاهرة ، بدون تاريخ .
ترتيب المدارك، للقاضي عياض، تحقيق وتعليق مُحَمَّد بن تاويت الطنجي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1965م، الرباط.
جامع بيان العلم وفضله، لأبي عمر يوسف ابن عبد البر النمري، طبعة دار الكتب العلمية، 1398هـ، بيروت.
ابن الشيخ سعد الدين،
- الجوهر الثمين في أخبار صحراء الملثمين ومن يجاورهم من السوادين، مخطوط في مكتبة خاصة.
سنن الترمذي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية.
القلقشندي
- صبح الأعشى ، طبعة 1331هـ /1913م، المطبعة الأميرية، القاهرة.
صحيح البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، الطبعة الثالثة،1407هـ/1987م.
صحيح مسلم، طبعة دار الجيل بيروت، دار الآفاق الجديدة، بيروت، (نسخة المكتبة الشاملة)
، للبرتلي،
- فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرورتحقيق مُحَمَّد إبراهيم الكتاني ومُحَمَّد حجي، الطبعة الأولى 1981م، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
أحمد بابا التنبكتي،
- كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، دراسة وتحقيق الأستاذ مُحَمَّد مطيع، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، 1421هـ /2000م.
ابن تيمية
- مجموع فتاوى ، جمع وترتيب المرحوم عبد الرحمن بن مُحَمَّد قاسم، طبعة المكتب التعليمي السعودي بالمغرب.
أحمد بنيحي بن فضل الله العمري
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ، تحقيقوتعليق: د. مصطفى أبو ضيف أحمد، الطبعة الأولى:

1409هـ/1998م، توزيع سوشبريس.

الإمام أحمد

- المسند ، حققه وضبطه جماعة من العلماء، الطبعة الأولى، 1419هـ/1998م، عالم الكتب، بيروت، لبنان.

ابن خلدون

- مقدمة ، الطبعة الأولى، 1993م، دار الكتب العلمية، بيروت.

الإمام أبي حامد الغزالي.

المنخول من تعليقات الأصول، حققه وخرج نصه وعلق عليه: د مُحَمَّد حسن هيتو. الطبعة الثانية 1400هـ/1980م. دار الفكر، دمشق.

الإمام الشاطبي،

- الموافقات، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

أحمد بابا التنبكتي،

- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم: الدكتور عبد الحميد الهرامة، الطبعة الأولى، 1989م، منشورات كلية الدعوة الإسلامية – طرابلس.

الوسياني : (أبو الربيع سليمان بن عبد السلام ت 471 هـ / 1078م) .

.- سير أبي الربيع الوسياني ، مخطوطة بالهيئة المصرية العامة للكتاب ، رقم 9113 ح ميكروفيلم رقم 08452 .

الونشريسى : (أبو العباسي أحمد بن يحيي ت 914هـ / 1508م) .

.- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب ، حقق تحت اشراف ، مُحَمَّد حجى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت بدون تاريخ

ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبدالله الحموى الرومي ت 626 هـ/1228 م).

.-- معجم البلدان ، دار صادر للطباعة ، بيروت ، 1957 .

اليعقوبي : (أحمد بن أبى يعقوب بن واضح ت 284 هـ / 982م) .

.كتاب البلدان ، تحقيق دى خوى ، ليدن 1892

ثانياً : المراجع العربية والمعربة :

إبراهيم طرخان (دكتور) :

. امبراطورية غانة الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، 1970.

أحمد الشكرى (دكتور) :

. الإسلام والمجتمع السودانى ، امبراطورية مالى ، المجمع الثقافى ، ابو ظبى ، الامارات العربية 1999 .

. مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية (هل حقا قام المرابطون بغزو غانة ؟ ، منشورات معهد الدراسات الإفريقية ، جامعة مُحَمَّد الخامس ، الرباط 1997 .

إيفان هربك ، وجان دوفيس :

. المرابطون : تاريخ أفريقيا العام ، المجلد الثالث ، اليونسكو 1994 .

إيفان هربك :
. بروز الدولة الفاطمية ، تاريخ أفريقيا العام ، المجلد الثالث ، اليونسكو 1994 .
جان دفيس :
. التجارة والطرق التجارية فى غرب أفريقيا ، تاريخ أفريقيا العام ، المجلد 3 ، اليونسكو ، 1994 .
حسن أحمد محمود (دكتور) :
. قيام دول المرابطين ، النهضة المصرية ، القاهرة 1957 .
زكري . دراماني ايسيفو :
. الإسلام كننظام اجتماعى فى أفريقيا منذ القرن السابع الميلادى ، تاريخ أفريقيا العام ، المجلد الثالث ، اليونسكو ، 1994 .
الشيخ الأمين عوض الله (دكتور) :
. تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي ، مقال ضمن كتاب تجارة القوافل ودورها الحضارى حتى نهاية القرن التاسع عشر، معهد البحوث والدراسات العربية ، بغداد 1984 .
صالح إبراهيم الشيخلى (دكتور) :
. النشاطات التجارية العربية عبر الطريق الصحراوي الغربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري، مقال في كتاب تجارة القوافل ودورها الحضاري بغداد 1984 .
مهدي رزق الله أحمد
حركة التجارة والإسلام، والتعليم الإسلامي في غرب إفريقيا قبل الاستعمار وآثارها الحضارية، . الطبعة الأولى 1419هـ /1998م، مطبعة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.
أبوبكر إسماعيل ميقا
الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي من 1100 – 1400 هجرية، ، الطبعة الأولى 1417هـ/1997م مكتبة التوبة الرياض– السعودية.
عبد الرحمن مُحَمَّد ميغا،
الحركة الفقهية ورجالها في السودان الغربي من القرن الثامن إلى القرن الثالث الهجري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، 1432 هـ / 2011م.
سعد عبد الله صالح،
الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، منشورات معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، 1415هـ.
إبراهيم علي طرحان،
دولة مالي الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973م.
عبدالله العروى :
. تاريخ المغرب، ترجمة ذوقان قرقوط ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ط1، 1977 .
كلوديت فاتاكير :
. نتائج التعقيب فى حى صناعي عن مدينة أودغست ، المؤتمر التاسع للآثار الإسلامية فى الوطن العربى ، المنظمة العربية للتربية

والعلوم والثقافة ، تونس 1980 .

مُحَمَّد زنيبر :

تجارة القوافل فى المغرب ، مقال منشور فى كتاب تجارة القوافل ودورها الحضارى ، معهد البحوث والدراسات العربية ، بغداد 1984 .

مُحَمَّد الصمدى: . تاريخ العلاقات المغربية السودانية ، ندوة التواصل الثقافى بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، ليبيا 1998 .

مُحَمَّد الطالبى: . استقلال المغرب ، تاريخ أفريقيا العام ، المجلد 3، اليونسكو ، 1994 .

مُحَمَّد عيسي الحريرى: . الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامى ، دار القلم ، الكويت ط3 ، 1987 .

مُحَمَّد القاسي وإيفان هربك : . مراحل تطور الإسلام وانتشاره فى أفريقيا ، تاريخ أفريقيا العام ، المجلد 3 اليونسكو 1994 .

مُحَمَّد ناصر: . دور الإباضية فى نشر الإسلام بغرب أفريقيا ، مكتبة الضامرى للنشر والتوزيع ، سلطنة عمان ، بدون تاريخ .

محمود اسماعيل: . الخوارج فى بلاد المغرب ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ط1 ، بيروت ، 1992

. ماما هاسي تنابو

العلاقة بين دولة مالي وبين المغرب الأقصى من خلال المذهب المالكي، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا بدار الحديث الحسنية،

وهبة الزحيلي،

الفقه الإسلامي وأدلته ، دار الفكر، دمشق، الطَّبعة الرَّابعة.

بول مارتي،

كنتة الشرقيون: عربه وعلق عليه ووضع له ملحقات مُحَمَّد محمود ولد ودادي، طبعة 1985م، مطبعة زيد بن ثابت – دمشق.

عمر الجيدي،

مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، الطبعة الأولى، 1993م، مطبعة المعارف الجديدة- الرباط.

المجموع شرح المهذب، للحافظ أبي زكرياء محي الدين النووي. شركة العلماء.

الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، لأحمد بن خالد الناصري، دار الكتاب 1955م، الدار البيضاء.

أصول الفتوى والقضاء في المذهب المالكي، لمحمد رياض، الطبعة الأولى 1996م، مطبعة النجاح الجديدة-الدار البيضاء.

إعلام الموقعين، لابن قيم الجوزية، رتبه وضبطه وخرج أحاديثه مُحَمَّد عبد السلام إبراهيم، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1417هـ/1996م.

إفريقيات، نقولا زيادة، الطبعة الأولى 1991م، رياض الرايس، للكتب والنشر، لندن.

ثالثاً المراجع الأجنبية

: Adam, Ba, K

– Les relation politiques et culturelles entre le Maroc et le Mali á travers les ages, Institut des Etudes Africaines , Rabat 1991 .

: , Couq, J, M

Recueil des sources Arabes concemant L'Afrique occidental du Vlll é au xvlé –
. siecle (Bilád Al-sudán) traduction et notes , paris 1975
Histoire de I'Islamisation de L'Afrique de L'ouest des origines á la fin du xvie –
. siecle , paris 1984
: Devidson , B
. Old Africa rediscoverd, London, 1959 –
: Fernando, paolo
Histoire contre Memoire Eplgraphie chioniques tradition orale et lieux d' oubli
.dans le sahel Malien, publications de L'institut des Etudes Africaines, Rabat 1993
. Hisket , M
.The development of Islam in west Africa, Longman , London 1984 –
: Hunwick, J, O
Les rapports intellectuals entre le Maroc et L'Afrique sub-saharienne á travers –
. les ages, publications de L'Institut des Etudes Africaines, Rabat 1990
: Levizion , N
Western Maghrib and Sudan , in tne cambridge history of Africa, Vol 3 , –
. Cambridge , London 1977
: Lewicki, T
Arabic external sources for the history of the Africa to the south of Sahara , –
. zed , London 1969
: Souvaget , J
. Les Epilaphes royales de Gao, Al – Andalus, Vol XIV , fase 1, Madrid 1949 –

الفهرس العام

الموضوع	الصفحة
مقدمة	01
مصطلح السودان الغربي	02
مملكة غانا أكبر الممالك السودانية خلال العصر الوسيط.	04
إمبراطورية مالي	07
جذور العلاقات بين الشمال الإفريقي وإفريقيا جنوب الصحراء في الفترة القديمة.	08
الحياة الاقتصادية بالسودان الغربي قبل الاسلام	10
المسالك التجارية بين الغرب الاسلامي و السودان الغربي.	15
الحواضر والقبائل الصحراوية الفاعلة في العلاقات بين الغرب الاسلامي و السودان الغربي .	16
الأجناس والسلالات البشرية في السودان الغربي	29
دولة المرابطين	34
الإطار الجغرافي والسياسي العام لبلاد السودان الغربي	42
العلاقات السياسية بين بلاد المغرب و السودان الغربي	49
العلاقات الاقتصادية بين بلاد المغرب و السودان الغربي	53
العلاقات الثقافية بين بلاد المغرب و السودان الغربي	63
انتشار الاسلام في بلاد السودان الغربي	75
انتشار المذهب المالكي في السودان الغربي، وقبول العامة والخاصة	80
أدوار العبيد السود في بلاد الغرب الاسلامي	87
الأثر السوداني في بلاد المغرب الأعلام السودانيون ببلاد المغرب	92
المؤثرات المغربية في العمران في بلاد السودان الغربي	97
الخاتمة	149
المصادر و المراجع	102
الفهرس العام	108